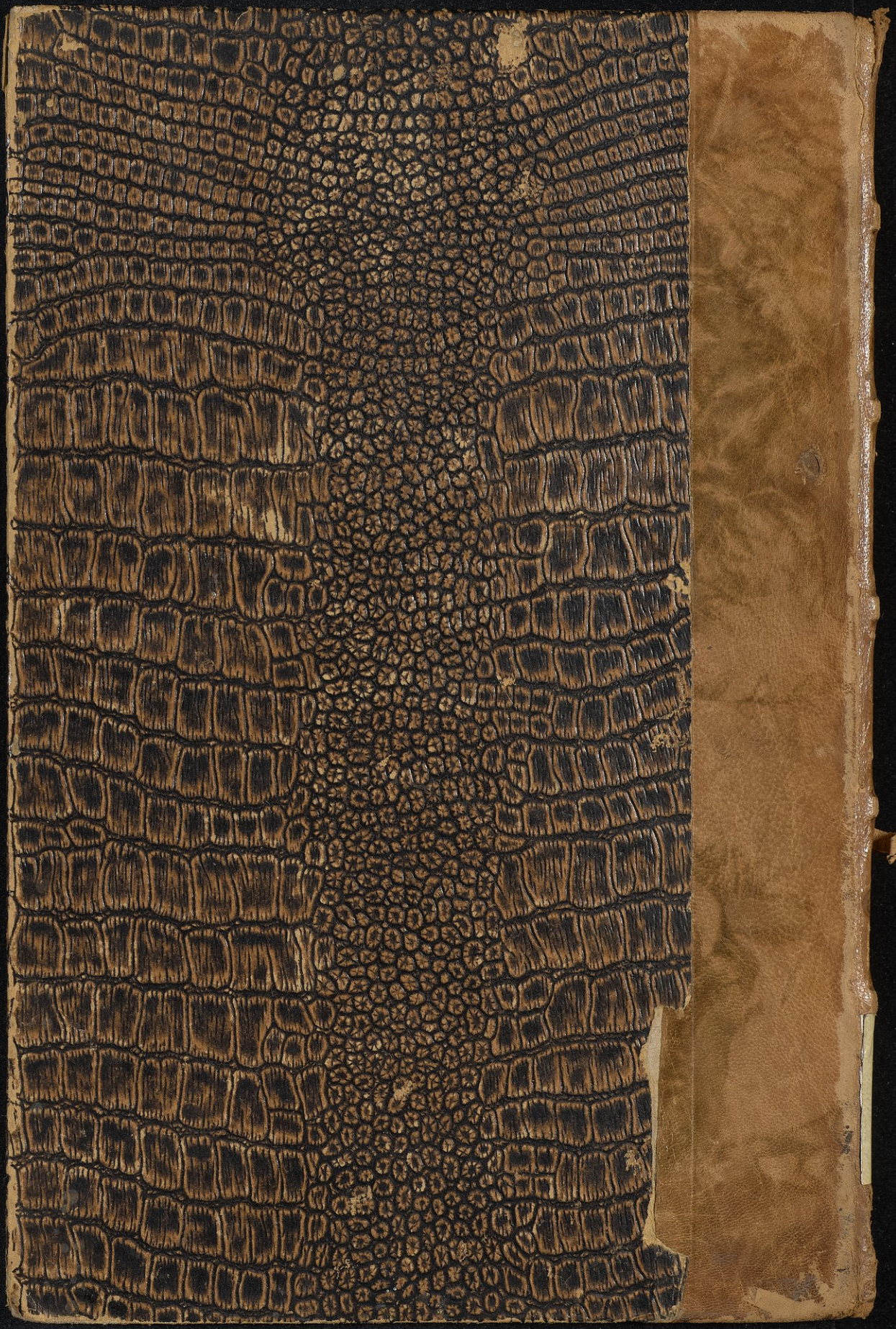

THE NEW YORK PUBLIC LIBRARIES
THE CITY OF NEW YORK
GENERAL LIBRARY

B550

44

الملك فؤاد

ملك النهضة

الملك فؤاد

ملك النهضة

« أما أن تكون أميراً فليس ذلك بشيء »
« وأما أن تكون نافعاً فذلك كل شيء »
الأمير أحمد فؤاد

بقلم

كريم ثابت

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

١٩٤٤

DT
107.8
.T5

٧٧٥ ٢٣٤ ٢٢ ك

تقدمة الكتاب

إلى مقام جلالة الملك فاروق الأول المعظم

مولاي

ليس هذا الكتاب سيرةً لساكن الجنان المغفور له والدكم العظيم فإنَّ الأوان لم يئن بعد لكتابة هذه السيرة المجيدة ، الحافلة بجلائل الأعمال ، بما يجب لها من عدالة وإنصاف ، ولكنه صفحة تظهر كيف كان جلالته ، طيب الله ثراه ، بناءً بفطرته ، وكيف كان القوة المحركة والدافعة للنهضة التي نهضتها البلاد في عهده من جميع نواحيها ، وكيف أفنى حياته في الحث على العمل وتعهد البناء ، فأدركت مصر على يده ما أدركت من آمال وحققت ما حققت من إصلاح

فإلى مقام جلالتكم أرفع هذا الكتاب ، المتواضع بمجهوده ، الجليل بموضوعه ، ملتمساً أن يفوز بتقديركم العالي ورضائكم السامي ، والله أسأل أن يطيل حياتكم الغالية ، وأن يمدكم بعونه وتأييده لتستوفوا النهضة التي وضع محمد علي الكبير أساسها ، وأقام إسماعيل بنيانها ، ووطد فؤاد العظيم أركانها ، ولتأخذوا يا مولاي بيد مصر نحو ما تريدونه لها من مجد وسؤدد ، والله أكرم مسؤول

الخادم المطيع

كريم ثابت

المغفور له الملك فؤاد الأول

تمهيد

ليس هذا الكتاب ترجمة لحياة المغفور له الملك فؤاد فإن الأوان الملائم لتدوين سيرته بكيفية جامعة عادلة لم يئن بعد ، فلا يتعرض الكتاب إذن للجانب السياسي من حياة جلالته

وليس غرض هذا الكتاب كذلك وصف مدى التقدم الذي بلغته مصر في أثناء حكم الملك فؤاد فإن التقارير المسهبة المحفوظة في ملفات الوزارات كفيلة باظهار هذا التقدم لمن يرجع إليها الآن أو في المستقبل ، فلا يحتوي هذا الكتاب على تقارير حكومية أو إحصاءات أميرية

وليس المقصود بهذا الكتاب أن يكون كتاباً إنشائياً لتمجيد الملك فؤاد والإشادة بمناقبه ومآثره ، فليس فيه أثر لتنميق في الألفاظ ولا محاولة للعناية بزخرف القول في هذا الباب

فما الغرض منه إذن ؟

الغرض منه هو أن يظهر كيف كان الملك فؤاد بنّاء بفطرته وكيف كانت جهوده موجهة في كل وقت إلى البناء فبنى أسس النهضة الحديثة في جميع نواحي الحياة العامة

والغرض منه هو أن يصف لأبناء الجيل الجديد والأجيال القادمة كيف كانت روح الملك فؤاد البنائية تدفع بجميع مرافق البلاد إلى الأمام وكيف كان

الملك فؤاد البناء يفكر في الجليل من الإصلاحات وفي الصغير منها على السواء والغرض منه هو أن يبين بالأمثلة ، المجهول منها والمعلوم ، كيف كان يريدها نهضة عامة شاملة ، فقد كان وهو بناء بطبيعته يعلم أن صرح النهضة لايبنى بالعناية بركن دون ركن فلم يغفل شيئاً

وقصارى القول أن الغرض من هذا الكتاب هو أن يبرز كيف كان الملك فؤاد القوة المحركة للنهضة الإصلاحية بجميع فروعها

هذا هو الغرض الذي توخيته من هذا الكتاب . ولو كان جميع رجالنا الذين عرفوا الملك فؤاداً أو عملوا معه أو اتصلوا به في أثناء اضطلاعهم بأعباء مناصب الدولة عنوا بتدوين مذكراتهم لأحجمت عن إخراجه . . . ولكن نحن إذا استثنينا أفراداً منهم نرى أن الباقين لسوء الحظ لم يسجلوا ذكرياتهم ولا يسجلونها بل حتى الذين كتبوا شيئاً يغلب على الظن أنهم وجهوا همهم الأكبر إلى الحوادث السياسية

فإذا أراد المؤرخ بعد سنين أن يكتب سيرة الملك فؤاد ولا سيما من الناحية البنائية فإنه لا يجد أمامه سوى التقارير والخطب وكتابات الصحف وهي مادة غير كافية للمؤرخ الذي يريد أن يتفهم بروح الرجل الذي يدرس حياته

والمؤرخ الذي لا يتشبع بروح العظيم الذي يكتب عنه لا يستطيع أن يوافي الناس بسيرة يعتد بها و يعتمد عليها ومما لا ريب فيه أن الذكريات الشخصية خير معين لمؤرخ الغد على تحقيق ذلك

ولهذا خطر لي أن أحاول عمل شئ في هذا الصدد آملا أن أضع أمام المؤرخ أو المؤرخين الذين سيكتبون غداً سيرة الملك فؤاد مادة تساعدهم على كتابتها كاملة

وقبل أن أبسط الطريقة التي اتبعتها في العمل أود أن أنوه بأنني لا أدعي أن ما عملته هو خير ما يمكن أن يعمل فإني أول من يعترف بأنه مجهود محدود

وكل ما أرجوه هو أن يرى غيري فيه ما يبعثه على تكملته بما عنده من معلومات

أما الطريقة التي اتبعتها في العمل فمطابقة للغرض من الكتاب وهذا الغرض هو كما قلت أن أظهر بالأمثلة كيف كان الملك فؤاد بناءً بفطرته وكيف كان يريدها نهضة عامة شاملة وكيف كان رحمه الله القوة المحركة التي تدفع بجميع عناصر هذه النهضة إلى الأمام

فتحقيقاً لذلك اخترت أمثلة من كل نوع وراعيت في اختيارها أن تكون متفاوتة في ما لها من شأن وخطر استيفاء للغاية من إيرادها ولم أتوسع إلا في المجهول منها . ومع ذلك لم تكن لي مندوحة عن الإشارة إلى بعض المعلوم ليتصل الحديث بعضه ببعض في كثير من أجزائه ولكني وضعت نصب عيني دائماً أن هذا الكتاب ليس ترجمة لحياة الملك فؤاد بل صورة للملك البناء استعنت على تصويرها بذكريات متعددة

أما هذه الذكريات فقد جمعتها من ثلاثة مصادر أساسية : المصدر الأول هو بعض رجالنا الذين عرفوا الملك فؤاداً واتصلوا به وبينهم من عمل معه ولا أخالني مخطئاً إذا قلت إن جل ما أفضوا به إليّ — إن لم يكن كله — ينشر لأول مرة وهو يؤلف الجانب الأكبر من الكتاب

ولم يكن في استطاعتي طبعاً أن أتصل بجميع الذين عرفوا الملك فؤاداً فراعيت في اختيار الذين قابلتهم ما توخيته من بادىء الأمر وهو أن تكون الأمثلة منوعة فكان لا بد من الرجوع إلى رجال ينتمون إلى بيئات شتى لأفوز بأكبر قسط من التنويع في الذكريات وقد ذكرت أسماءهم جميعاً عند إيراد ما سمعته منهم وإني أغتنم هذه الفرصة فأوجه إلى حضراتهم أصدق شكري على المعونة التي أسدوها إليّ

واعتمدت في ما كتبته عن الملك فؤاد وما عمله للزراعة والفلاح على سعادة

محمد زكي الإبراشي باشا وهو الرجل الذي ظل سبع سنوات ناظراً لخاصة جلالته

وأما المصدر الثاني فهو ذكريات شخصية لي عن الملك فؤاد ، فقد كان لي بحكم عملي الصحفي شرف شهود معظم زياراته وجولاته . ولما زار جلالته بعض بلدان أوربا رسمياً في سنة ١٩٢٩ تشرفت كذلك بمرافقته طول المدة التي استغرقتها الزيارة فأتيح لي هنا وهناك أن أقف بنفسي على أشياء كثيرة اكتفيت بالعودة إلى أهمها في هذا الكتاب

بقي المصدر الثالث وهو مراجع أخرى أشرت إلى كل منها في محله

وراعيت في إيراد هذا كله وبسطه أسلوبا يفهمه الطالب الناشئ ولا ينكره المفكر المثقف كما فعلت في كتابي « محمد علي » فشجعني تقدير القراء له على اتباعه هنا موجهاً همي الأول إلى جعله كتاباً حياً عساه أن يوفق إلى وصف ما كانت سيرة الملك فؤاد البناء تنطوي عليه من حيوية أدهشت الناس ولا تزال ذكراها موضوع إجلالهم وإكبارهم

رحم الله الملك فؤاداً الملك البناء العظيم وأحسن إليه في دار الخلد عداد حسناته إلى بلاده وشعبه فقد عاش في حبهما وأفنى نفسه في العمل لهما

فبراير ١٩٤٤

الجامعة المصرية
والجامعة الأزهرية

الجامعة المصرية

تعددت في أوائل القرن الحالي كتابات دعاة الإصلاح في ضرورة إنشاء جامعة مصرية على غرار الجامعات الأوربيـة ورحبت الصحف بآرائهم واقتراحاتهم فأوسعت لها المجال

وفي سنة ١٩٠٦ اشتدت الدعوة إلى وجوب إخراج المشروع من حيز الفكر إلى حيز الوجود وأعرب بعض من الأغنياء عن استعدادهم للتبرع له بالمال إلى أن كان شهر أكتوبر من تلك السنة فاستقر قرار جماعة من ذوي الرأي والحمية على عقد اجتماع يخطون فيه أول خطوة عملية في سبيل تحقيق الفكرة التي تحمسوا لها

وكان المغفور له سـعد زغلول باشا في طليعتهم فقال لهم إنه يسره أن يعقد الاجتماع في داره

وفي تلك الدار التي فازت فيما بعد بلقب « بيت الأمة » عقد فعلاً ذلك الاجتماع التاريخي الأول وعلى أثر ارفضاضه أذيع البيان التالي :

« في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٢٤ شعبان سنة ١٣٣٤ الموافق ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اجتمع في منزل عزتلو سعد بك زغلول بجهة الإنشاء الموقعون على هذا بصفتهم من المكتتبين الأولين لإنشاء الجامعة المصرية وقرروا :

أولاً : انتخاب لجنة تحضيرية مؤلفة من حضرات سـعد بك زغلول وكيلاً للرئيس العام وقاسم بك أمين سكرتيراً للجنة وحسن بك سعيد وكيل البنك

الألماني الشرقي أميناً للصندوق ومحمد بك عثمان أباظة ومحمد بك راسم وحسن بك جمجوم وحسين باشا السيوفي وأخنوخ افندى فانوس وزكريا افندي نامق ومحمود الشيشيني ومصطفى بك كامل الغمراوي أعضاء

ثانياً : تأجيل انتخاب الرئيس العام إلى الجلسة القادمة

ثالثاً : نشر دعوة في جميع الصحف المحلية عربية وافرنجية

رابعاً : الاجتماع مرة أخرى بدعوة خصوصية لانتخاب الرئيس وأعضاء اللجنة النهائية

خامساً : تسمية هذه الجامعة بالجامعة المصرية

وبلغ مجموع الاكتتابات التي اكتتب بها المجتمعون في ذلك الاجتماع ٤٤٨٥ جنيهاً »

ونشرت الصحف مع هذا البيان الدعوة التي وجهتها اللجنة التحضيرية إلى الأمة واستهلتها بوصف الغرض من إنشاء جامعة والخطة التي ستتبع في إنشائها وكان مما قالته في هذا الصدد « وليس لهذه الجامعة صبغة سياسية ولا علاقة لها برجال السياسة ولا المشتغلين بها فلا يدخل في إدارتها ولا في دروسها ما يمس بها على أي وجه كان »

وقبل أن تعقد اللجنة اجتماعها الثاني اختير سعد باشا ناظراً (وزيراً) للمعارف فلما اجتمعت للمرة الثانية في دار حسن جمجوم بك لانتخاب الرئيس العام كاشفها سعد باشا رحمه الله باضطراره إلى اعتزال رئاسة اللجنة قائلا إنه يأسف على ذلك أشد الأسف ولكن « مما هوّن على نفسه أن عمله الجديد هو خدمة المعارف في مصر وهو المقصد العام لحضرات الأعضاء . » فانتخبوا المغفور له قاسم أمين بك ليحل محله في الرئاسة الوقتية فوقف رحمه الله وألقى بياناً قال فيه « تنفيذاً لسرعة جمع الاكتتابات قد جرت مخابرات بيننا وبين أحد أمراء الأسرة العلوية ممن

يظن فيهم الميل إلى المشروعات النافعة واستمرت تلك المخابرات مدة ولهذا أرى أن يؤجل انتخاب الرئيس إلى جلسة أخرى »

وأثبتت الأيام إصالة رأي قاسم أمين فإن سنة ١٩٠٧ كلها انقضت من دون أن يتقدم المشروع تقدماً يذكر، ولم تلبث حركة الاكتتابات أن فترت فساور المهتمين بالمشروع قلق عليه ورأوا أن لا مندوحة لهم عن تجديد السعي عند الأمير أحمد فؤاد فاستمهلهم لانهماكه بتعزيز بعض الجمعيات العامة فألحوا مؤكدين لسموه أن فكرة الجامعة المصرية لا تنجح إلا إذا تعهدها بعلمه الواسع وخبرته العظيمة ونفوذه الشخصي وأخيراً قبل الرئاسة وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٠٨ — قبلها وهو مقدر للصعاب الكثيرة التي تحيط بها من كل جانب ولكنه كان بناء بفطرته فطاب له الجهاد في سبيل بناء الجيل الجديد

وكان من نتيجة هذا الاختيار أن تجددت الثقة بالمشروع والتهبت النفوس حماسة له فتدفقت عليه الاكتتابات واستطاع سموه أن يقنع أخته سمو الأميرة فاطمة اسماعيل بفائدة العمل الذي أخذ على عاتقه مهمة النهوض به فوهبت الجامعة هبتها العظيمة المعروفة

غير أن كثيرين لم يكتموا ما أخذهم من العجب لقبول سموه رئاسة مشروع كانوا يرون حبوطه محققاً . أولا لأن نجاحه يقتضي جهوداً عظيمة لم يألفوها من قبل . وثانياً لأنهم كانوا يعلمون أن هناك من يحارب المشروع ويقيم الصعاب في سبيله فقالوا « إن الأمير أحمد فؤاد يتعب نفسه بلا طائل ويهتم بعمل مؤسس على خيال »

وأشار سموه إلى تلك الصعاب في رسالة وجهها إلى الشعب المصري في أواخر سنة ١٩١١ أي بعد إنشاء الجامعة بنحو أربع سنوات فقال « وبالرغم مما صادف مشروعاتنا من التأويل الباطل والتعنت الذي أريد به وضع حجر العثرة في نهضة

جامعتنا وكان حظه الفشل وفضلا عن الصعوبات المادية والأدبية التي صادفناها في طريقنا وكان منشؤها إما الجهل أو عداء فئة قليلة لا يعتد بها لم يلبث عملنا الجليل المحبوب أن ثبتت دعائمه وأخذ يستكمل حظه يوماً فيوماً »

وكأنما أراد سموه أن يجد في بناء جيل متعلم جديد حافزاً له على المضي في جهاده فقال بعد ذلك في رسالته « ولا شك في أن نفع شباننا الأعزاء هو فوق كل المقاومات والانتقادات المقصودة وإن رغبتنا الشديدة في تحقيق هذا النفع وإخلاصنا فى إحياء العلم يكسبنا القوة للثبات والدأب في هذا العمل وقد أعرت قلبي فى سبيل هذه الغاية لكي يتسنى لأبناء وطني أن يأخذوا حظهم من العلم والعرفان وينصرفوا إلى إحياء نضارة لغتهم وآدابهم وفنونهم العظيمة ويسهل عليهم تحقيق هذه الأمنية الجليلة حينما يستقون عزيمتهم وعلمهم من مجد أجدادهم وعلومهم وقد كادت تكون في عالم النسيان حيناً من الدهر ولا وسيلة لهم إلى الوقوف على حسبهم وتاريخهم وفهم حقوقهم وقيامهم بواجبهم إلا بالرجوع إلى هذه المصادر الغزيرة وبذلك يعيدون كنوز العلوم العربية القديمة التي نأخذها الآن عن الغرب »

هذا ما قاله الأمير أحمد فؤاد في سنة ١٩١١ في رسالة وجهها «إلى أبناء وطنه» كما جاء في صدرها ومن ينعم النظر في أقواله ير أنه لم يكتف بالرد على خصوم الجامعة — يومئذ — بقوله « إن منفعة شبابنا تسمو على جميع المقاومات والانتقادات المغرضة » بل بسط بعبارات وجيزة أغراض الجامعة أو ما نسميه اليوم رسالة الجامعة وانظر كيف كان تفاؤله عظيما يومئذ حين قال « وكما أن ضوء النهار بعد الليلة الحالكة الظلام يتجدد بنور الفجر كذلك روح النهضة العلمية في مصر بعد أن كانت مستغرقة في سبات عميق حيناً من الدهر سيكون لها شأن

عظيم في إحياء ذكرى ماضينا الذي كان ولا يزال مقروناً على الدوام بالمجد والعظمة »

بل انظر إلى ما قاله بعد ذلك في رسالته تجده يعبر عما يجيش به صدره بما يصور روحه البنائية أصدق تصوير . قال « ولقد تفردنا زمناً طويلاً بمدنية زاهرة ومجد عظيم ولا يتعلم الشعب ويقف على سر مستقبله ليصل إلى النهاية العظمى من الحضارة والمدنية إلا حينما يغرس فيه شعور إجلاله لأسلافه وما كان عليه أبطالهم . فدرس أصول لغتنا وسعتها والتضلع من الآداب والتاريخ والفلسفة العربية ولاسيما المقابلة بين المدنية العربية والمدنيات الراقية في عصرنا هذا يفتح لشبابنا الطريق الذي نسير بهم فيه ليتسنى للمدارس الثانوية المصرية أن تجد فيهم معلمين أكفاء للغد »

فهل يستطيع عميد في الجامعة أن يخاطب شباننا اليوم بخير من هذا الكلام وقد قاله الملك فؤاد من ثلاثين سنة . . . . يوم كان كثيرون يبتسمون ويقولون « جامعة مصرية ؟ . . . . يا لها من فكرة غريبة » فإذا الأمير أحمد فؤاد يوضح لهم مهمة الجامعة بعبارات موجزة حققتها الأيام وأثبتت بعد نظر قائلها فأصبحت جديرة بأن تنقش اليوم على جدران كليات الجامعة وهل هناك أجمل من قول عاهل عظيم « لقد تفردنا زمناً طويلا بمدنية زاهرة ومجد عظيم ولا يتعلم الشعب ويقف على سر مستقبله ليصل إلى النهاية العظمى من الحضارة والمدنية إلا حينما يغرس فيه شعور إجلاله لأسلافه وما كان عليه أبطالهم »

ومع ذلك كان الأمير أحمد فؤاد يعلم أنه سيصادف صعاباً أخرى وأن مهمته في الجامعة لم تنته في سنة ١٩١١ ولكنه كان مصمماً على المضي في جهاده إلى النهاية لأنه كان بناء بطبيعته فقال :

« وإنني على يقين من أننا سنصادف صعوبات أخرى في طريقنا وأننا سنضطر للجهاد مراراً لإزالة عقبات أخرى وإبادة الأوهام وقهر العدوان ولكن لا يفوتنا أن عملا جديداً مثل هذا لا يمكن أن يصل إلى درجة الكمال من غير أن يلاقي في طريقه مثل هذه المقاومات ممن لا يروق في نظرهم كل عمل جديد فيقابلونه بالسخرية لضعف عزيمتهم »

وتتجلى روحه الوثابة العظيمة وقوة إيمانه بالمستقبل في قوله بعد ذلك « لو كنت من الذين يميلون إلى الاستعارات والتشبيهات لقلت إنه من السهل تشبيه الجامعة بتشييد تلك الأبنية الشاهقة والمعابد الشامخة التي يتبادر إلى الذهن أنها لا تتم أبداً لما تستدعيه من المعدات الهائلة المختلفة الأنواع غير أني أوثر العمل على زخارف الكلام المعدوم الفائدة وعلى التسليم بأن عملي مؤسس على خيال فإني آمل أن يصبح بناؤنا يوماً بعد تمامه مركزاً لإعادة مجد العلوم والفنون في هذه البلاد وأن تكون خيالات اليوم حقائق الغد »

* * *

وفي شهر يوليو سنة ١٩٠٨ سافرت إلى أوربا أول بعثة للجامعة المصرية ثم عقبتها بعثات أخرى

أما المواد التي شرع في تدريسها في الجامعة فكانت : الحضارة الإسلامية والحضارة الشرقية القديمة والعلوم التاريخية والجغرافية وتاريخ آداب اللغة الفرنسية وتاريخ آداب اللغة الإنجليزية ثم زيدت المواد تدريجياً فشملت آداب اللغة العربية وعلم الصحة والرياضيات العالية وعلم الفلك عند العرب والاقتصاد السياسي ومحاضرات في تاريخ المرأة في العصور المختلفة

وفي ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ افتتح سمو الخديو عباس الثاني الجامعة المصرية رسمياً وكان سمو الأمير أحمد فؤاد قد زار بلدان أوربا في صيف تلك السنة (١٩٠٨)

للاطلاع على نظمها الجامعية ثم كرر هذه الزيارة في السنة التالية فوفق إلى استعارة نفر من كبار الأساتذة الجامعيين الأوربيين للتدريس في الجامعة المصرية وإلى إقناع الحكومات والجماعات الأوربية بإهداء ألوف من الكتب إلى مكتبة الجامعة فكانت نواة حسنة للمكتبة العظيمة الحالية

✲✲✲

وكان دولة اسماعيل صدقي باشا من أعضاء مجلس إدارة الجامعة في عهد الأمير أحمد فؤاد فحدثني عن عمل سموه في ذلك العهد . قال : إن مواهبه تجلت في إنشاء الجامعة بأجلى مظاهرها ولا سيما موهبة الجد والنشاط مع الرغبة الصادقة في تحقيق أغراض إيجابية فأمكنه أن ينشىء الجامعة من لا شيء وما زلت أذكر أنه كان يهب لها كل وقته ولا أغالي إذا قلت إنه كان مواظباً على عمله فيها أكثر من مواظبة أعضاء مجلس الإدارة وطالما سمعته يقول إنه يريد أن يبذل كل ما في استطاعته بذله ليرفع شأن الثقافة العربية ليهيىء لشباب مصر وسائل الاستزادة منها وكثيراً ما كان يخيل إليّ أن حرمانه من هذه الثقافة في صباه كان يذكي فيه غيرة خاصة عليها وكان دائماً يردد قوله « إن مدنيتنا يجب أن تكون مدنية شرقية عربية »

واستطرد صدقي باشا من ذلك إلى القول « فإذا أكدت لكم أن الأمير أحمد فؤاد هو الذي أنشأ الفكرة الجامعية عندنا إنشاء عملياً فلا أكون إلا معترفاً بالحق ومقرراً للواقع فقد كان يعتقد أن مصر لا تتقدم إلا بتعليم عال جامعي »

✲✲✲

وكنا نقلب مرة محاضر الجامعة القديمة فقرأنا فيها ما يلي : إنه في يوم الثلاثاء ٢٨ أبريل سنة ١٩٠٨ اجتمعت اللجنة الفنية للجامعة المصرية برئاسة دولة الأمير أحمد فؤاد باشا وبحثت موضوع لغة التعليم في الجامعة ثم « قررت بالإجماع أن

تكون لغة التعليم الرسمية في الجامعة هي اللغة العربية دون سواها لتكون واسطة لنشر المعارف وترقية العلوم بين الناطقين بالضاد ولكي ترتقي اللغة العربية نفسها بهذه الوسيلة ، ولكن بما أن العلوم العالية والمعارف العصرية مدونة باللغات الأفرنكية ولا تتوفر الآن المعدات اللازمة لنقلها إلى اللغة العربية فضلا عن عدم وجود الأساتذة المتقطعين لها الآن فلذلك ستدعو الضرورة في بداية الأمر — وإلى أجل مسمى فقط — لإلقاء بعض الدروس بإحدى اللغتين الأجنبيتين الشائعتين في مصر وهما الفرنسوية والإنكليزية ريثما يعود الطلبة المصريون الذين سترسلهم الجامعة على نفقتها إلى معاهد العلم في أوربا فيتولون التدريس باللغة العربية »

فيتبين مما تقدم ما كان للغة العربية من مقام رفيع في نفس الملك فؤاد وما كان جلالته يريده لها من نحو خمس وثلاثين سنة بوصفها لغة البلاد الوطنية وفي وضوح عبارات المحضر الذي نقلنا عنه قرار اللجنة ما يغني عن كل إيضاح ومع ذلك فعبارة « هي اللغة العربية دون سواها » وعبارة «في بداية الأمر وإلى أجل مسمى فقط » تستحقان أن يضع الباحث تحتهما خطاً لما تنطويان عليه من مغزى جليل

ثم إن من ينعم النظر في العبارة الأولى من عبارات القرار يجد فيها أن الملك فؤاداً كان يرى من ذلك الحين أن رسالة الجامعة المصرية لن تقف عند حدود مصر بل ستتجاوزها حتماً إلى جمع البلدان العربية يوماً ما بدليل عبارة القرار القائلة « لتكون — أي اللغة العربية — واسطة لنشر المعارف وترقية العلوم بين الناطقين بالضاد »

* * *

وعلى ذكر اهتمام الملك فؤاد باللغة العربية وضرورة إحلالها المحل اللائق بها قصّ علينا سعادة أحمد لطفي السيد باشا أنه في سنة ١٩١١ — وكان سعادته

يومئذ مديراً لجريدة « الجريدة » — دعاه الأمير أحمد فؤاد إلى مقابلته في سراي البستان وبحث معه برنامج كلية الآداب في الجامعة المصرية ولا سيما كيفية تدريس العلوم التي يمكن تدريسها باللغة العربية

قال لطفي باشا « واستغرق بحث هذا الموضوع ساعتين كاملتين ظهر لي في أثنائهما مقدار إجلال الملك فؤاد العظيم للغة العربية »

* * *

ومن المعلوم للمحيطين بتاريخ الجامعة القديمة — أي قبل أن تنتقل إلى الحكومة — أن أحمد لطفي السيد باشا كان وكيلا لها مع المغفور له عبد الخالق ثروت باشا في عهد رئاسة المغفور له حسين رشدي باشا لمجلس إدارتها فسألناه عن الظروف التي أفضت إلى انتقالها إلى وزارة المعارف فقال : « في نحو سنة ١٩١٧ على ما أذكر قدم أحدهم إلى وزارة المعارف تقريراً بتحويل الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة مصرية أميرية ثم أغفل هذا التقرير

« وفي سنة ١٩٢٢ وكنت إذ ذاك وكيلا للجامعة رأيت أن الجامعة ستهوي فوضعت مشروعاً بتعديل نظام كلية الآداب والتمست مقابلة الملك فؤاد وبسطت له الموقف بصراحة تامة مستأذناً في أن أقدم مشروعي إلى وزارة المعارف وكان أساس هذا المشروع أن تعد وزارة المعارف امتحانات الجامعة وفي مقابل ذلك يكون لحريجي الجامعة حق الالتحاق بوظائف الحكومة . فأصغى إليَّ جلالته باهتمام عظيم ورحب بالفكرة ووعدني بأن يتكلم مع الحكومة في شأنها ثم تبسط معي في الحديث عن حالة الجامعة المادية بالمأثور عنه من عطف عليها وكان مما قاله لي « إذا استطعت أن تحث الأعيان والأغنياء على تقديم هبات للجامعة لتنهض بمهمتها فإني على استعداد تام لمكافأتهم أدبياً »

ومضى لطفي باشا في حديثه فسرد ما حدث عقب تلك المقابلة . قال : « وقابلت

بعد ذلك وزير المعارف — وكان المغفور له زكي أبو السعود باشا — فقال لي إن الملك فؤاداً شديد الاهتمام بهذا الموضوع وقد خاطبني فيه ونحن عندنا مشروع لجامعة حكومية فلماذا لا نجعل كلية الآداب جزءاً منها فقلت لا مانع بتاتاً مادام الغرض واحداً . وعلى أثر ذلك اجتمع مجلس إدارة الجامعة الأهلية وجمعيتها العمومية ووافقا راضيين على انتقالها إلى الحكومة فذهبت والمغفور له رشدي باشا إلى وزراة المعارف وكتبنا الاتفاق فانتقلت الجامعة الأهلية إلى الحكومة ، وسرنا بعد ذلك في تنفيذ المشروع قدماً وأذكر أنني وزكي أبو السعود باشا زرنا سراي موصيري في الجيزة لتكون مقراً للجامعة ثم ألّف وزير المعارف لجنة لهذا الغرض برئاسة المغفور له إسماعيل حسنين باشا وكيل المعارف يومئذ واختارني عضواً فيها وكنت إذ ذاك مديراً لدار الكتب »

وترك الملك فؤاد الأمر للحكومة تتصرف فيه كما تشاء فلم يتقدم تقدماً يذكر حتى خشي جلالته أن لا تنشأ الجامعة الجديدة . قال لطفي باشا : « وفي شهر مارس سنة ١٩٢٥ حث الملك فؤاد الحكومة حثاً مستمراً قوياً على تنفيذ مشروعها فاستصدرت مرسوماً بإنشاء الجامعة ، وفي اليوم نفسه صدر مرسوم آخر بتعييني مديراً للجامعة الجديدة ، فلما تشرفت بمقابلة جلالته لأشكره على ثقته بي وعطفه عليّ أعرب عن أسفه الشديد على الوقت الذي ضاع سدى وقال إن الجهود يجب أن تبذل بسخاء لتنفيذ المشروع الجديد بعد ما طال عليه الوقت »

واستأنف لطفي باشا حديثه فقال : « وساعدني الملك فؤاد بعد ذلك في مرحلة التنفيذ مساعدة عظيمة حتى أعددنا المكان — وكان سراي الزعفران — وأقمنا فيه المدرجات والمعامل لكي تبتدىء الدراسة في شهر اكتوبر وتمّ ذلك فعلا »

وهنا قال لطفي باشا — وهو يشدد على مخارج ألفاظه لئلا يفوتني شيء منها — « وإني أشهد بأن كل ما تسنى لنا عمله يومئذ كان بهمة الملك فؤاد وأذكر أنني

ما قابلته مرة إلا سمعته يشكو من أن العمل لا يتقدم بالسرعة التي يريدها »

* * *

و بعدما فرغ لطفي باشا من حديثه المتقدم قال إنه سيروي لي تفصيل حادث يدل على الاهتمام الذي استمر الملك فؤاد يبديه بالجامعة . ذلك إنه لما عهد جلالته إلى المغفور له محمد محمود باشا في تأليف الوزارة عرض دولته على لطفي باشا أن يشترك في الوزارة وقال له إنه يرشحه وزيراً للخارجية فعارضه لطفي باشا في ترشيحه للخارجية وقال إنه يؤثر عليها وزارة المعارف ليحتفظ بإدارة الجامعة فيواصل إشرافه عليها فلم يقتنع محمد باشا وقال إنه سيترك الأمر لجلالة الملك عندما يرفع إليه أسماء مرشحيه فلما تشرف دولته بمقابلة جلالته لهذا الغرض عرض على مسامعه ما دار بينه و بين لطفي باشا فقال جلالته على الفور : « وأنا من رأي لطفي بك فإن الجامعة أهم عندي من كل شئ آخر » فقلد سعادته وزارة المعارف مع احتفاظه بمنصب مدير الجامعة

* * *

وختم لطفي باشا حديثه بقوله : « لولا الملك فؤاد لا ستبعدت كثيراً أن يكون عندنا جامعة »

* * *

وفي يوم الثلثاء ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ تفضل الملك فؤاد بوضع حجر الأساس في بناء الجامعة الجديد في الجيزة وخطب في ذلك الاحتفال بين يدي جلالته سعادة علي الشمسي باشا بوصفه وزيراً للمعارف وسعادة لطفي السيد باشا بوصفه مديراً للجامعة ولما انتهيا من إلقاء خطبتيهما حمل بعض موظفي الجامعة ثلاثة كراسات مجلدة بالجلد القرمزي النفيس إلى جلالة الملك ملتمسين منه توقيعها بإمضائه الكريم لكي توضع في جوف الحجر الأساسي تخليداً لهذه الذكرى المباركة

فوقعها جلالته ، وقد كتب على كل كراسة منها العبارة الآتية : « بعون الله تعالى قد وضع حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم الحجر الأساسي في بناء الجامعة المصرية يوم الثلثاء ١٥ شعبان سنة ١٣٤٦ هـ — ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ م »

و بعد ما طرق جلالته حجر الأساس بمطرقة من الذهب التفت إلى الذين كانوا واقفين حوله وقال وأمارات الانشراح مرتسمة على محياه : « إن شاء الله يعود هذا المعهد على البلاد بالرقي »

* * *

ومما قصه عليَّ الشمسي باشا في سياق حديثٍ عن الملك فؤاد وحبه العظيم للجامعة وتقديره الكبير للتعليم العالي أنه لما تشرف بمقابلته ذات مرة بعد عودته من أوربا — وكان سعادته يومئذ وزيراً للمعارف — سأله جلالته عما عنده من جديد فى شأن التعليم فقال الشمسي باشا إنه لما كان يقضي إجازته في سويسرا عرض على البروفسور أندريا عميد كلية الهندسة الشهيرة في « زوريخ » أن يجئ إلى مصر ليتولى عمادة كلية الهندسة فترة من الزمن فقبل العرض ووعد بالقدوم

قال الشمسي باشا : « ولم أكد أقول لجلالته إن البروفسور أندريا قبل العرض ووعد بالقدوم إلى مصر حتى أبرقت أسارير وجهه فرحاً وكاد ينهض واقفاً وهو يقول لي : لو لم تكن أنت الذي ينقل إليَّ هذا الخبر لما صدقته . . . . . إنه أحسن خبر يمكنك أن تزفه إليَّ »

و بهذه المناسبة قال الشمسي باشا ما يؤيد ما سمعناه من أحمد لطفي السيد باشا ومن غيره وهو ان الملك فؤاداً كان يرى أن تستعين مصر بعلماء الغرب وخبرائه إلى أن ينشأ المصري الذي يبلغ مرتبة أولئك العلماء وحينئذ لا يكون على مصر إلا أن تشكرهم على ما أسدوه إليها وتحل المصري محلهم

* * *

وفي يوم السبت ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢ زار الملك فؤاد كلية الآداب وكلية الحقوق في بنائيهما الجديدين في الجيزة ثم ترأس الاحتفال بتوزيع الدرجات الفخرية والعلمية على طائفة من رجال مصر وكان معالي حلمي عيسى باشا وزير المعارف إذ ذاك خطيب ذلك الاحتفال ثم نهض الأستاذ علي الجارم بك وألقى قصيدة نظمها أمير الشعراء أحمد شوقي بك خصوصاً لهذه المناسبة فقوطعت غير مرة بالتصفيق الشديد والهتاف العالي لملك مصر والسودان ولحامي الجامعة ونصير العلم ولا سيما البيت القائل

أرأيت ركن العلم كيف يقام أرأيت الاستقلال كيف يرام

* * *

وقد أتيح لسعادة الدكتور علي ابراهيم باشا المدير الحالي للجامعة أن يتشرف بمقابلة جلالة الملك فؤاد غير مرة لشؤون تتعلق بالجامعة في المدة التي قضاها مديراً لها بالنيابة مع اضطلاعه بعمادة كلية الطب . وحدثني عن ذلك أخيراً فقال إن الملك فؤاداً كان دائماً ينظر إلى المستقبل ومما يذكره في هذا الصدد أنه ما كاد يعرض عليه رسوم قاعة الحفلات والاجتماعات الكبرى في الجامعة حتى سأل جلالته عن عدد الطلبة الذي وضعت هذه الرسوم على أساسه فقال سعادته إنها وضعت على أساس أن عدد طلبة الجامعة لا يجاوز ألفين فقال الملك على الفور : « و بعد خمسين سنة ؟ . . » ثم أردف جلالته ذلك بقوله : « إن نصيحتي لك هي أن تأخذ هذه الرسوم وتعدلها على أساس أن تسع القاعة خمسة آلاف طالب »

قال لي الدكتور علي باشا : « واليوم كلما ذكرت أن في الجامعة ثمانية آلاف طالب لا يسعني إلا أن أذكر ملاحظة الملك فؤاد في تلك المقابلة والنصيحة التي أسداها إليّ »

وكان الدكتور علي ابراهيم باشا جالساً في مكتبه في إدارة الجامعة وهو يحدثني عن تلك الذكريات وفجأة رأيته يرسل نظرة من خلال النافذة إلى بنايات الجامعة ثم التفت إليَّ وقال : « إن الملك فؤاداً هو الذي بنى الجامعة حجراً حجراً . . . هذا هو تاريخ الجامعة المصرية »

وسكت سعادته لحظة كمن هو في حيرة فالذكريات تتزاحم في ذهنه فأيها يختار ثم قال : « إنك تعلم أن في الجامعة قاعة لاستقبال الملوك وعظماء الزوار وهي القاعة التى نسميها القاعة الملكية فما قولك في أننا لما أردنا أن نؤثثها أرسلنا إلى قصر عابدين أنموذجا من الكراسي التي اختيرت لها ليطلع عليه الملك فؤاد و يبدي رأيه فيه . . . حتى السجادة أرسلناها إلى عابدين ليشاهدها جلالته . . . وقد اخترت هذا المثل دون سواه لأنه يصور ألطف تصوير ماسأقوله لك وهو أن كل ما عمل في الجامعة عمل إما بتوجيه من الملك فؤاد أو بإرشاد منه »

* * *

ومن يرجع إلى الخطب التي ألقيت بين يدي الملك فؤاد في الجامعة يجد فيها تنويهاً بالخدمات الجليلة التي أسداها إليها لما زار عواصم أوربا من أجلها في السنوات الأولى من إنشائها

وسمعت من الدكتور علي توفيق شوشه بك وكيل وزارة الصحة شيئاً خليقاً بأن يضاف إلى كل ما قيل في هذا الصدد

فقد كان الدكتور شوشه بك عضو بعثة من بعثات الجامعة القديمة إلى أوربا وكان لايزال في برلين لما زارها الأمير احمد فؤاد في سنة ١٩١٠ ليشهد احتفال جامعة برلين بعيدها المئوي بالنيابة عن الجامعة المصرية

وكانت إدارة الجامعة المصرية قد اختارت البروفسور زخاو مدير مدرسة اللغات الشرقية ليكون ولي أمر الطلبة المصريين في برلين

وكان البروفسور زخاو صديقاً حميماً للامبراطور غليوم الثاني ومن أقرب المقربين إليه فحدثه عن الأمير أحمد فؤاد فأبلغه الامبراطور أنه يسره أن يجتمع به

قال لي الدكتور شوشه بك : « وفي اليوم الثاني لليوم الذي زار فيه الملك فؤاد الأمبراطور غليوم الثاني دخل علينا الدكتور زخاو وقال لنا : إن الأمبراطور أكد له أن الأمير أحمد فؤاد من الأفراد القليلين الذين بهروه بكثرة معارفهم وأنه دهش لوفرة معلوماته وسعة اطلاعه . ثم أخبرنا البروفسور زخاو أن الأمبراطور غليوم الثاني قرر تحيةً منه للأمير أحمد فؤاد أن يمتحن الطلبة المصريون مع الطلبة الألمان ، فكانت هذه أول مرة يمتحن فيها طلبة أجانب مع الطلبة الألمان »

* * *

ولما توفي الملك فؤاد في سنة ١٩٣٦ كان عدد طلبة الجامعة ٦٤٨٧ طالباً وكان عددهم ٥٥٠ طالباً في سنة ١٩٠٨

الجامعـــة الأزهرية

إن لم يكن الأزهر الشريف أشهر معاهد العالم القديمة فهو من أشهرها بلامراء فلا يحتاج إلى تعريف وله بين الشعوب الإسلامية والأمم الناطقة بالضاد مقام رفيع لايدانيه سواه

ومع أن لهذا المعهد العريق في التاريخ والفضل أنصاراً كثيرين فله كذلك ناقدون يرون أن زمانه مضى وانقضى ولم تعد هناك حاجة إليه بما طرأ على المعارف والعلوم من تبدل وما وقع فى الدنيا من تغيير — هؤلاء هم الذين يخلعون على أنفسهم لقب المجددين فيعرضون عن كل قديم لقدمه ولا يحلو لهم سوى الجديد حتى لقد يضربون بقواعد اللغة عرض الحائط رغبة منهم في إظهار نزعتهم هذه

ولكن الواقع ينقض هذه النظرية وبقاء الأزهر في مقامه المعروف وإقبال الطلاب عليه من جميع أقطار الدنيا لتحصيل ما فيه من علوم ومعـارف دليل ساطع وبرهان قاطع على أن العالم الشرقي لا يستغني عن هذا المعهد العظيم وأن وظيفته المعروفة لا تزال تؤدى بما ينفع الناس في دينهم ودنياهم

على أن جلالة الملك فؤاد الأول أدرك أن هذا النفع الذى يجنى من الأزهر يتضاعف ويسد حاجات شتى على وجه أعم إذا روعيت في أنظمة التعليم فيه مقتضيات الزمان وما جدَّ في العصور الحديثة من شؤون فبدأ جلالته أولا بإعادة تنظيم مجلس الأزهر الأعلى ثم انقضت عدة أعوام في درس موضوع الأزهر

و إصلاحه فوضعت له أنظمة وقوانين متعددة تفاوتت في مداها إلى أن استقر القرار على القانون الذي صدر في سنة ١٩٣٠ وعدل فيما بعد على ضوء ما دل عليه التنفيذ والاختبار

وكنت أزور أخيراً فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر فجر الحديث إلى ذكر الملك فؤاد والأزهر الشريف فقال فضيلته :

« لاشك في أن الأزهر كان مغموراً بعطف الملك فؤاد ومساعداته من يوم توليته العرش إلى يوم وفاته فهو الذي أوعز في سنة ١٩٢٥ بتأليف لجنة إصلاح الأزهر وهو بلا ريب صاحب الفضل في إصدار قانون التخصص في سنة ١٩٣٣ و إذا كانت ميزانية الأزهر قد زادت في عهده تلك الزيادة العظيمة فلأنه هو الذي كان يوصي دائماً بإجلال طلبات الأزهر وحاجاته محلها من العناية والاعتبار فبلغت ميزانيتنا بمساعدته ومؤازرته مابلغته

« ومن حق الملك فؤاد على الأزهر أن أذكر له ما كان لمعونته من نصيب كبير في إخراج ما جدّ من مباني الأزهر والجامعة الأزهرية إلى حيز الوجود وهو الذي أمر ببناء هذه الدار (دار إدارة المعاهد الدينية) وكذلك البنايات الثلاث التي يشغلها معهد القاهرة الآن وهذا علاوة على المعاهد الجديدة التي أنشئت في جهات شتى فالأزهر والحالة هذه مدين له بأشياء كثيرة أدبية ومادية وتعليمية في النهضة التي نهضها »

وهنا قال الشيخ المراغي : « أذكر أنني كنت جالساً مرة في حضرة الملك فؤاد فقال إنه رأى بين رجال الدين فى الفاتيكان رجالاً يصلحون لأن يكونوا وزراء وسفراء وحكاماً وأنه يتمنى أن يجيء اليوم الذي يرى فيه علماء الأزهر قد هيئوا لمثل ذلك، وفي هذا ما يصف ما كان جلالته يريده للأزهر والأزهريين من تقدم و إصلاح »

واستطرد فضيلة الأستاذ الأكبر من ذلك إلى القول « ولو أردت أن أصف الملك فؤاداً بعبارة موجزة لقلت إنه كان يتمنى أن يرى كل شيء حسناً فقد كان يرى أن ملكه يكون عظيماً عندما يكون كل شيء في مصر عظيماً »

***

وما كاد قانون الأزهر الذي صدر في سنة ١٩٣٠ يذاع حتى اجتمع جميع طلبة الأزهر بأقسامه الثلاثة في مسجد عابدين وفي مقدمتهم شيوخهم ومدرسوهم ومراقبوهم ولما تكامل عددهم خرجوا من المسجد إلى قصر عابدين هاتفين لجلالة الملك وولي عهده ودخلوا القصر من باب التشريفات فملأوا ردهة التشريفات والردهات الأخرى المتصلة بها وطال وقوفهم وهم يهتفون للجالس على العرش ولإصلاح الأزهر ثم انتدبوا عنهم ثلاثين من كل قسم من أقسام الأزهر الثلاثة فدونوا أسماءهم في دفتر التشريفات وبعد ما فرغوا من ذلك ناب عنهم فضيلة الشيخ محمود أبو العيون المفتش في الأزهر والمعاهد الدينية إذ ذاك فقابل معالي كبير الأمناء وقدم إليه بالنيابة عن الأزهر ، شيوخاً وطلبة ، كلمتهم إلى السدة الملكية فوعده معاليه برفعها إلى جلالة الملك لوجوده فى قصر القبة

ثم عاد الشيخ أبو العيون إلى الشيوخ والطلبة فأبلغهم ذلك فعلا هتافهم بحياة الملك وظل الهتاف على هذا المنوال زهاء ساعة ثم انصرفوا من القصر إلى دروسهم

وهذا هو نص الكلمة التي قدمها يومئذ الشيخ أبو العيون إلى كبير الأمناء بالنيابة عنهم :

مولاى صاحب الجلالة

« اليوم يتشرف هذا الجمع الحاشد من علماء الجامع الأزهر وطلابه بالسعي «والوقوف في ساحة قصر المليك المعظم سلالة المجد المؤثل وحامي حمى الدين الحنيف

جلالة الملك فؤاد فى إحدى زياراته لجامعة فؤاد الأول

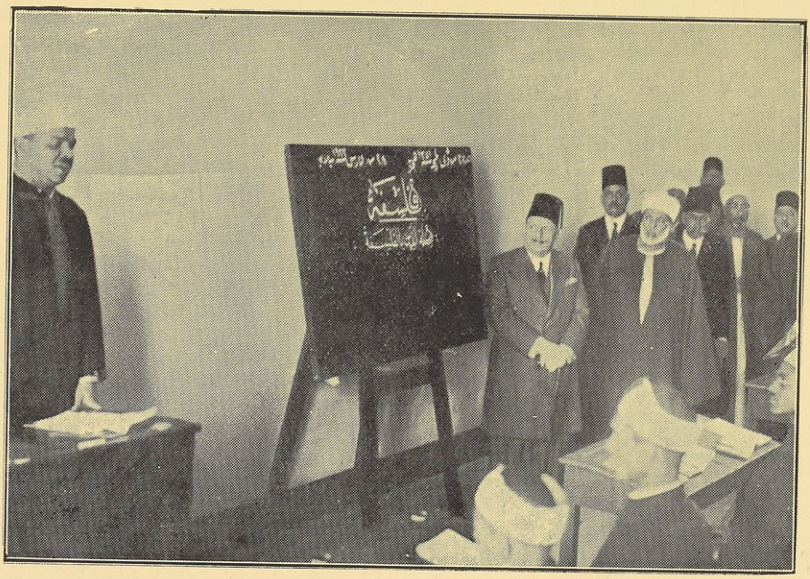

جلالة الملك فؤاد يتفقد فصول إحدى كليات الجامعة الأزهرية

« جاء هذا الجمع هاتفاً باسم جلالتكم داعياً لكم بطول العمر و بخير الحياة يحفزه الولاء والإخلاص لملك كريم وأب رحيم يرعاهم برعايته وعنايته و يغمرهم بحبه وعطفه و يهيئ لهم من الحياة السعيدة مكاناً سوياً

مولاي

« ربع قرن يا مولاي والأزهريون يكافحون بعزيمة ماضية هاتفين باسم الإصلاح والحياة القيمة واليوم يا مولاي طلع علينا المرسوم الملكي بقانون الجامع الأزهر الجديد فأحيا منا نفوساً كاد اليأس يذهب بآمالها من الإصلاح المنشود وألهج ألسنتنا بآيات الشكر والدعاء لجلالتكم لتحقيق هذه الأمنية الغالية

مولاي

« لقد أرضيت الله والناس بهذا العمل المشكور وسيكتب المستقبل لجلالتكم صحف المجد وأنبل الذكريات لأنكم رفعتم شأن أكبر جامعة في تاريخ الإسلام

« وإن اليوم الذي رسمت فيه بيراعك الكريم آية النهضة العلمية في الجامعة الأزهرية لهو يوم تسمو طلعته إلى مرتبة الأعياد الكبرى

« فنسأل العلي الأعلى أن يبقيك عمراً طويلا وأن يديمك عضداً للإسلام وحارساً لرجاله وأبنائه وأن يحفظ لنا سمو الأمير فاروق ولي عهدك المحبوب وأن يعيذه من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد »

* * *

ولم تقف عناية الملك فؤاد بالدين عند حدود مصر بل جاوزتها إلى الأقطار الشقيقة ومن ذلك أنه لما تشرف سماحة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين بمقابلة جلالته في يناير سنة ١٩٢٩ رفع إليه مجموعة نفيسة من الصور لمناظر المسجد الأقصى بأقسامه المختلفة وقد صورت هذه الصور باليد تصويراً دقيقاً ولونت بالألوان المطابقة للأصل تلويناً بديعاً ووضعت المجموعة في صندوق نفيس من خشب الزيتون المطعم بالصدف وهي الصناعة التي اشتهر بها صناع فلسطين فتفضل جلالته بقبولها

ثم تفضل جلالة الملك فسأل رئيس المجلس الأعلى عن أعمال الترميم التي تعمل في مباني المسجد الأقصى فوصفها له سماحته مستعيناً بالصور الفوتوغرافية ومبيناً الفرق بين بعض أجزائها قبل الترميم و بعده فأبدى جلالته اهتماماً عظيماً بالموضوع وودع سماحته وهو يؤكد له أنه سيضع هذه المسألة موضع تفكيره واهتمامه

و بعد أيام ذهب ناظر الخاصة الملكية إلى رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الفندق الذي كان نازلا فيه وسلمه كتاباً رسمياً أبلغه به أن جلالة الملك تبرع بخمسة آلاف جنيه لتنفق على أعمال الترميم في المسجد الأقصى

وقابلت يومئذ جميع البلدان الإسلامية هذه المبرة الملكية بالحمد والثناء

و بهذه المناسبة نذكر أنه لما زار الزعيم المسلم الهندي الكبير مولانا شوكت علي مصر وتشرف بمقابلة الملك فؤاد أوفد إليه جلالته في الغد أحد رجال القصر بثلاث صور فوتوغرافية له ليختار منها إحداها فيمضيها له جلالته بعد ذلك على سبيل التذكار

وتصادف وجودنا عند مولانا شوكت علي عند وصول مندوب الملك فقابل هذه اللفتة الكريمة بالشكر والدعاء ثم أطلع على الصور الثلاث وكانت الأولى

تمثل الملك ببدلة الردنجوت والثانية تمثله بالردنجوت كذلك والثالثة تمثله بالبدلة العسكرية فما كاد يرى هذه الصورة الأخيرة حتى صاح قائلا « أريد هذه . . . جندي الإسلام »

و بعد قليل زاره مندوب الملك مرة أخرى وسلمه الصورة التي اختارها ممضاة من جلالته فكرر الشكر والدعاء

الملك العالِم
والنهضة العلمية

الملك العـــالم

قال لي أحد المطلعين إنه لما توفي الملك فؤاد كانت مكتبته الخاصة تتألف من سبعة عشر ألف مجلد وكتاب وهي غير مكتبة القصر

وكان جلالته مشتركاً في طائفة كبيرة من أشهر الصحف والمجلات الغربية ، وعلاوة على ذلك كان يتلقى قصاصات بجميع المقالات والأخبار التي تنشر عن مصر في جميع أنحاء العالم

ولم تحل مهام الملك ومشاغله في وقت ما دون إكبابه على الاطلاع ، فقد كان دائماً شغوفاً بزيادة معلوماته وتوسيع دائرة معارفه ، وهي سجية العالم الحقيقي

سمعت مرة من معالي أحمد محمد حسنين باشا أنه بينما كانت الأذهان مشغولة بأزمة وزارية داخلية قرأ جلالته فى مجلة إنجليزية تحت صورة طير نادر الوجود أن هذا الطير لا يعرف إلا في أستراليا ونيوزيلندا فدعا إليه معاليه وكلفه أن يكتب إلى تلك المجلة كتاباً يقول لها فيه إن الطير الذي نشرت صورته يوجد منه في مصر كذلك

وعلمت فيما بعد من المرحوم اللواء أحمد شفيق باشا — وكان يومئذ مديراً عاماً لمصلحة الحدود — أنه لما تشرف يوماً بمقابلة جلالته استأذن منه في أن يعرض عليه نوعاً غريباً من الطير عثر عليه في خلال طوافه فى الصحراء الغربية فأذن له جلالته فى ذلك فحمل إليه سعادته ذلك الطير فسره أن يراه ، وسأل

شفيق باشا هل رأى مثله في حديقة الحيوان بالجيزة ، فأجاب سلباً فأمره بإرساله إليها وحفظه فيها

و بعد مدة طويلة كان جلالته يتصفح تلك المجلة الإنجليزية فوقع نظره على صورة الطير الذي قيل إنه لا يوجد إلا في استراليا ونيوزيلندا ، فتذكر الطير الذي عثر عليه اللواء شفيق باشا فقرر أن يكتب إلى المجلة لتصحح خطأها

* * *

ولم يكن الملك فؤاد يقتصر على المطالعة وحدها في الاستزادة من العلم والمعرفة بل كان إذا اتصل بمسامعه أن في البلاد زائراً من العلماء الأجانب أرسل يدعوه إلى مقابلته فيقف منه على أحدث الآراء أو النظريات أو المعلومات في العلم الذي تخصص فيه فيضيفها إلى ما يكون قد عرفه قبلاً عن ذلك العلم أو الفن

ومما أذكره بهذه المناسبة أنه لما زار العالم الهندي الشهير السر جاجاديس بوز مصر والتمس من وزير الزراعة المصرية تقديمه إلى الملك طلب جلالته أن يشاهد بعض تجاربه ، فقال جنابه لرجال القصر إن هذه التجارب تقتضي استعداداً خاصاً في الجهاز الكهربائي في القاعة التي تتم فيها المقابلة ، فكان جواب جلالة الملك إن القصر ورجاله في خدمة العلم وأربابه

وفعلا ذهب السر جاجاديس إلى القصر قبل موعد المقابلة بساعات وأعد جميع المعدات اللازمة لتجاربه حتى إذا أزفت ساعة المقابلة كان على استعداد تام لإجرائها أمام المليك العالم

وفي شهر يناير سنة ١٩٢٩ مرَّ بمصر السر دنيسن روس المستشرق الإنجليزي الكبير في طريقه إلى إيران ، وكان جنابه من أكبر الخبراء العالميين في كل ما يتصل بتاريخ الحروف والكتابة وتصادف في ذلك الحين أن كان الملك فؤاد مهتماً بالمشروع الذي أفضى إلى ابتكار حروف التاج فاستقبل السر دنيسن واستبقاه في حضرته ساعة ونصف ساعة

وأخبرني السر دنيسن أن الملك حدثه عن فكرته ، وسأله عن رأيه فيها فاستحسنها وأكد له إمكان تنفيذها بسهولة ، ثم قال « وقد عرضت على جلالة الملك طريقة استنبطها بعد بحث وتجارب طويلة لكتابة حروف كبيرة (ماجسكول) في اللغة العربية فتفضل بالاطلاع عليها وعلى تفصيلها ، ولما فرغت من بسطها لجلالته أبدى إرتياحه إليها واقترح عليّ أن أقدمها في المسابقة التي أعلنت عنها الصحف في هذا الصدد »

وأردف السر دنيسن ما تقدم بقوله « ولكن حذار وحذار ألف مرة أن يخطر لكم تبديل الحروف الهجائية العربية الحالية بالحروف اللاتينية وقد سمحت لنفسي بابداء هذا الرأي في حضرة جلالة الملك فإن الخط العربي جميل ومن الجرم القضاء عليه »[1]

* * *

ولا يزال الذين اتيح لهم أن يصحبوا الملك فؤادا في زياراته للمنشآت العامة يذكرون الأسئلة الدقيقة التي كان يوجهها إلى الرجال المختصين فيدهشهم بقوة ملاحظته وشدة استقصائه وغزارة معلوماته

ومن ذلك أنه لما زار مصلحة الإحصاء[2] بلغ من فرط تدقيقه في السؤال عن بعض أجزاء إحدى الآلات التي وقف أمامها طويلا أن الموظف المختص عجز عن الرد على سؤاله مع أنه قضى سنين طويلة في إدارة قسمه فابتسم جلالته ليسري

---

(١) سألت السر دنيسن روس عما كان تعليق الملك فؤاد على رأية فقال أن جلالته شاطره هذا الرأي وأخبره أنه أنشأ مدرسة لتحسين الخطوط العربية

ولما كان الشيء بالشيء يذكر سألت السر دنيسن هل يظن أن الحروف اللاتينية ستعمر طويلا في تركيا — وكنا يومئذ في يناير سنة ١٩٢٩ — فقال « إن المرء لا يستطيع الجزم برأي في مثل هذا الموضوع ولكني لا أرى ما يمنعها من التعمير في تركيا فان الترك لا يتكلمون العربية فلماذا تريدون منهم أن يكتبوا لغتهم بالحروف العربية وأن لا يكتبوها بالحروف اللاتينية ؟ أما أنتم فلغتكم هي العربية فيجب عليكم التمسك بحروفكم الحالية »

(٢) في شهر فبراير سنة ١٩٢٩

عنه وقال له « تبقى تسأل عن هذه المسألة وتخبرني عنها » . وكثيراً ما كان جلالته في أثناء الزيارة يتولى الشرح بنفسه للوزراء وكبار رجال القصر فيتضح لهم أن معلوماته في الموضوع الذي يحدثهم عنه شافية وافية ولا تقل عن معلومات الموظف الإخصائي المختص (١)

وحدث عند زيارة جلالته للجمعية الجغرافية (٢) أن دعي إلى مشاهدة الخارطة الكبيرة المصنوعة من الجبس البارز لتمثل نهر النيل من منبعه إلى مصبه فتأمل فيها جلالته ملياً ثم قال « أظن أن بعض مقاسات هذه الخارطة خطأ » والتفت إلى دولة حسين سري باشا (وكان يومئذ وكيلا لوزارة الأشغال) كمن يسأله عن رأيه في ذلك فأمن على ملاحظته قائلا « إن في الخارطة غلطات فنية يجب اصلاحها فعلا »

ولم يشأ جلالته أن يبتعد عن تلك الخارطة قبل أن يشاهد على مهل كل جزء

---

(١) مما تحسن الاشارة إليه هنا أنه لما عرضت على جلالته الاحصاءات الخاصة بايرادات الدولة ومصروفاتها وقيل إنها كانت فى سنة ١٨٩٠ لا تناهز اثنى عشر مليون جنيه فصارت الآن تجاوز ثمانية وثلاثين مليونا قال « الحمد لله وإن شاء الله تصبح سبعين مليوناً »

ومما هو جدير بالذكر بهذه المناسبة أنه أطال بعد ذلك الوقوف أمام كل إحصاء من الاحصاءات الخاصة بمرافق البلاد الاقتصادية فلما همّ بمغادرة القاعة التى عرضت فيها تلك البيانات قال وهو على عتبة بابها « إن مستقبل مصر في هذه القاعة » فلم يخف على الحاضرين ما أراد قوله بهذه العبارة الوجيزة المبنى العظيمة المعنى

وليس أدل على ما كان جلالته يشعر به من اعتزاز بكل أمر يعلي من قدر مصر في نظر الأجانب من أنه لما اطلع في خلال تلك الزيارة على الاحصاءات التي تبين ايرادات مصلحة سكة الحديد المصرية ومصروفاتها نادى وزير المواصلات — وكان عبد الحميد سليمان باشا — وقال له على مسمع من الحاضرين إنه لما استقبل المستر جون روكفلر المثري الامريكي الشهير (نجل روكفلر الكبير) حدثه عن مرافق مصر الاقتصادية ومشروعات الاصلاح التي تجري فيها وأنه استطرد في حديثه معه إلى الكلام عن سكة الحديد المصرية فقال له إن ربحها يتفاوت بين ٧ و٨ في المئة وأنه ليس في جميع بلدان العالم سكة حديد تعطي مثل هذا الربح . قال جلالته « فلما سمع المستر روكفلر هذ الكلام نظر إليّ نظرة المتعجب المندهش »

(٢) فى شهر إبريل سنة ١٩٢٩

من أجزائها وكان نور الشمس قوياً في القاعة فطلب إلى بعض الحجاب إغلاق النوافذ الخشبية ليتمكن من مشاهدتها على ضوء الكهرباء ثم رأى أنه لو صعد إلى منصة مرتفعة لأمكنه أن يراها على منوال أحسن فاعتلى منصة وأخذ ينعم النظر فى كل قسم من أقسام الخارطة الكبيرة على حدة وهو يشير إلى أجزائها الهامة بعصا طويلة جلبوها له خصيصاً لهذه الغاية

و بعد ما تفقد جلالته الأقسام الجديدة في الجمعية الجغرافية أعرب فجأة عن رغبته فى تفقد نظام أقسام السكرتيرية ونظافتها ولم يكن رجال الجمعية يتوقعون زيارته لهذه الأقسام وكأن جلالته أراد أن يأخذهم على غرة ليقف على حقيقة حال الأقسام المذكورة فسار إليها بخطى ثابتة يتبعه وزراؤه ورجال معيته وكان كلما دخل غرفة من غرفها أمر بفتح خزاناتها إلى أن وصل إلى قاعة السكرتيرية الكبرى حيث تحفظ « فيشات » المكتبة فنادى جلالته وزير المعارف بقوله : « لطفي بك »[1] فقال الوزير « أفندم » فقال له جلالته وهو يشير إلى الخزانة التي تحتوي على تلك الفيشات : « افتح أدراج هذا الدلاوب وانظر إلى النظام الذي فيها » فسار الوزير إلى حيث كان الدولاب قائماً وفتح أدراجه فألفى النظام تاماً فيهافقال له جلالته : « ما رأيك ؟ » فقال معاليه : « إنه نفس النظام الذي نستعمله نحن في مكتبة الجامعة » . فابتسم جلالته وقال : « حسن إذن »

* * *

وكان جلالته في خلال تلك الزيارات يبدي دائماً رغبة واضحة في الاستزادة من الاطلاع بنفسه

ففي أثناء زيارته لأقسام المباحث الفنية التابعة لوزارة الزراعة في الجيزة[2]

---

(١) أحمد لطفي السيد باشا

(٢) في شهر أبريل سنة ١٩٢٩

كان كلما دنا من أحد الموظفين الاختصاصيين الواقفين أمام معروضاتهم قال له : « اشرح لي » حتى إذا فرغ الاختصاصي من كلامه طرح عليه جلالته الأسئلة في الأمور التي يعن له الاستفسار عنها ، ولما وصل جلالته إلى القسم الخاص بآفات القطن قال له الموظف الاختصاصي : « إن بعضها لا يستطاع رؤيته بالعين المجردة و إنه لا بد من المجهر (المكرسكوب) لتبين أجزائه » . فقال له جلالته : « دعني أشاهد ذلك » . فأعد الموظف الآلة بسرعة ووضعها أمام المليك فانحنى فوقها ووضع عينه على النظارة وشاهد ما أراد مشاهدته

و بعد ما زار الأقسام الفنية كلها — واستغرقت هذه الزيارة ساعتين إلا ربعاً قضاها جلالته إما ماشياً أو واقفاً — التمس منه وزير الزراعة أن يتفضل بركوب مركبة أعدت له ليطوف بها حقول التجارب المحيطة ببناء الأقسام الفنية فابتسم جلالته وقال : « متشكر ولكنني أفضل أن أمشي إليها مع الحاضرين » وفعلاً فتح جلالته مظلته وأمسكها بيده فوق رأسه وسار في طليعة الجميع إلى الحقول التي دعي إلى زيارتها في وهج الشمس المحرقة وظل ينتقل من حقل إلى آخر ثلاثة أرباع ساعة لم يجلس في أثنائها لحظة واحدة ولم ينقطع في خلالها عن طرح الأسئلة ثم غادر المكان بعد ساعتين ونصف ساعة وأمارات النشاط والارتياح بادية على محياه في حين أن التعب استولى على معظم الحاضرين مع أنهم لم يرافقوه في طوافه كله ولم يتعبوا أعصابهم كما أتعبها جلالته بحصر الذهن و إعمال الفكر إما ليوجه الأسئلة التي وجهها أو ليصغي إلى البيانات التي أصغى إليها

ولما افتتح جلالته رسمياً مصحة فؤاد الأول في حلوان ودخل حجرة الأشعة أخذ الطبيب المختص يشرح له كيفية استعمال الآلة فقال له جلالته : « أريد أن تجربها أمامي » فأتوا بمريض من الذين يعالجون في المصحة ووضعوه أمام الآلة

بعد ما نزعوا ثيابه عن صدره وظهره وأطفأوا الأنوار وأغلقوا الأبواب والنوافذ وأسدلوا عليها ستائر سوداء حتى أمست الحجرة في ظلام حالك وأطلقوا الأشعة على جسم المريض . ثم أخذ الطبيب يشرح للمليك أعراض المرض مما هو ظاهر منها على جسم المريض فكان جلالته ينعم النظر مستقصياً مدققاً قائلا تارة « شايف » وطوراً « مش شايف » إلى أن عدلت الآلة تماماً واستطاع جلالته أن يتابع أقوال الطبيب وشرحه المبني على نتيجة تشخيصه

* * *

أما الذين تشرفوا بمقابلته فكان يبهرهم بسعة اطلاعه وتنوع معارفه وقوة ذاكرته وإحاطته بكل جديد فى العلوم والفنون

سمعت من سعادة الدكتور علي ابراهيم باشا القصة التالية . قال : « يعد الدكتور « ليري » من أكبر الأطباء الاختصاصيين في أمراض الروماتزم في العالم أجمع فلما زار مصر عُين له موعد يتشرف فيه بمقابلة الملك فؤاد فاقتضت مشيئة جلالته أن أصحب ضيفنا الكبير في هذه المقابلة وأبلغوني في القصر أنه عينت لها الساعة الرابعة بعد الظهر . فقلت في نفسي إنها لن تدوم أكثر من ربع ساعة لأنه لا ينتظر أن يتكلم الملك معه عن أمراض الروماتزم . وعملا بهذا الاعتقاد اتفقت على مواعيد في عيادتي من الساعة الرابعة والربع . . . فإذا المقابلة التي اعتقدت أنها لن تدوم أكثر من ربع ساعة تستغرق ساعة ونصف ساعة وإذا بالحديث كله يدور على الروماتزم وقد ذكر الملك نقطاً خفية لا يحيط بها إلا الذي قرأ عشرة كتب على الأقل في أمراض الروماتزم »

وروى لي سعادة حسن صادق باشا أنه لما عاد إلى مصر من مؤتمر الجيولوجيا الدولي في سنة ١٩٢٥ وتشرف بمقابلة الملك فؤاد دار الحديث على المعدنين اللذين

كانا موضوع بحوث المؤتمر في تلك السنة وهما الفوسفات وكبريتول الحديد وكان حسن باشا قد قدم إلى المؤتمر بحثاً عن الفوسفات في مصر وعن الوجوه التي يكثر استعماله فيها وكم كانت دهشة سعادته عظيمة لما سمع الملك يعدد جميع المناطق التي يوجد فيها فوسفات في العالم

ولكنه لم يكن يدري أن دهشته هذه ستتضاعف بعد لحظة . . .

فإنه ما كاد جلالته ينتهي من تعيين مناطق الفوسفات في العالم حتى قال حسن باشا « وقد وجد كذلك يا مولاي في جزر في جنوب المحيط الهادي »

فقال جلالته على الفور : «ولكن هذا من نوع آخر فنحن نتكلم عن الفوسفات الطبيعي أو الصخري كالفوسفات الموجود عندنا أما الموجود منه في تلك الجزر فيستخرج من طبقات كونتها مخلفات الطيور » .

قال لي حسن باشا : «عند ذلك ذهلت . . . وكيف لا أذهل وأنا أسمع الملك الذي القيت على عاتقه جميع تلك المهام الجسام يحدثني عن شؤون الفوسفات حديث الخبير المتفرغ للجيولوجيا »

واسترسل حسن باشا في الحديث فقال : وكان محمد شعير بك سيتشرف بمقابلة جلالته بعدي ليرفع إليه نسخة من كتابه في تحقيق الشخصية فالتقى بي وأنا خارج من حضرته فطلب مني أن أنتظره لننصرف معاً فانتظرته ولما انتهت مقابلته رأيته مقبلاً نحوي مبهوتاً وهو يقول « أجئت هنا لأقابل ملكاً أم لأقابل أستاذاً في تحقيق الشخصية . . . إنه يا عزيزي يعلم من تحقيق الشخصية أكثر مما تضمنه كتابي »

وحدثني حسن باشا بعد ذلك عن حادث آخر اتفق له مع الملك فؤاد فإنه لما ألف كتاباً في الجيولوجيا قررت وزارة المعارف تدريسه في المدارس الثانوية التمس التشرف بالمقابلة السنية ليرفع نسختين منه إحداهما للملك والأخرى للأمير فاروق

ورأى سعادته أن يرفق نسخة أمير الصعيد بصندوق جمع فيه نماذج من جميع الصخور وحفريات الأرض الشائعة في مصر لكي يسهل على سموه معرفتها والإحاطة بها

قال : « ولما عرضت الصندوق على جلالة الملك فتحه وأخرج النماذج واحداً واحداً وكان عددها أربعين و باحثني فيها كلها فخيل إليَّ في أثناء خمس وأربعين دقيقة أنني جالس مع جيولوجي نتبادل الرأي في فننا »

واستأنف حسن صادق باشا حديثه فقال : « وفي ذات يوم جاءني من أبلغني أن الملك فؤاداً يستغرب كيف أنهم يكتشفون في مصر معدناً يستعمل في صنع الطائرات ولا يعرضون ذلك على مسامعه فاستغربت ذلك بدوري لأننا لم نكن قد اكتشفنا معدناً جديداً ولكني قلت في نفسي إنه لابد أن يكون للموضوع أصل و إلا لماذا يقول الملك أنه معدن يستعمل في صنع الطائرات وأخيراً تذكرت أن بعض الأجانب كانوا يبحثون عن الزمرد في منطقة تقع في جنوب القصير ، والزمرد أساسه معدن « سليكات البرليوم » ، ومن خواص البرليوم أنه أخف من الألمنيوم وأصلب منه ، وهو يدخل فعلا في تكوين بعض المخلوطات المعدنية ، ولكنهم لم يعثروا على زمرد في الحجارة التي حدث الاختبار فيها فبحثنا عندئذ لنعرف هل في هذه الحجارة كمية كافية من البرليوم فكانت النتيجة سلبية . ويظهر أن بعضهم تسرع وأبلغ جلالة الملك شيئاً عن الاتجاه الذي اتجه إليه بحثنا فظن أننا عثرنا على البرليوم فعلا ، وفي هذا الحادث ما يدل على مدى الاهتمام الشديد الذي كان جلالته يتتبع به تقدم العلوم والفنون

وكان جلالته يقابل أكبر عدد من الرجال يتسع الوقت لمقابلتهم . وقال له مرة أحد رجال الحاشية الملكية أن الناس يعجبون كيف أن جلالته لا يضن

بالمقابلة السنية حتى على أصغر الموظفين شأناً كأمناء المحفوظات في القنصليات والمفوضيات مثلا ، فقال جلالته على الفور « إنني أريد أن أرى الذين ستكون في أيديهم الأداة الحكومية عندما يملك فاروق »

* * *

ومع ما رأيناه فيما تقدم من سعة اطلاعه لم يكن يجد على نفسه غضاضة في استشارة الفنيين في الأمور التي لم يسبق له الإلمام بها

كانت الخاصة الملكية تطبع كتباً في أوربا في وقت ما بأمر من جلالته وعلى نفقته الخاصة فرفع إليه أحد رجال الديوان نماذج شتى من الورق ليختار جلالته بعضها ، فقال له : « لست من الذين يرغبون في إقحام أنفسهم في أشياء لا يعرفونها فخذ هذه العينات إلى أمين بك بهجت[1] واطلب رأيه فيها »

* * *

ومن حسن حظ البلاد أن علمه لم يكن مقتصراً على الأمور النظرية ، ولو كان كذلك لكان حلية نفيسة يتحلى بها صاحبها لا أكثر ، ولكن جلالته كان لايفتأ يسعى لتطبيق هذا العلم والتوسل به لنفع بلاده وأمته في جميع نواحي الحياة العامة ، وهذا يسوقنا إلى الكلام عن :

أولاً — الجمعيات العلمية التي أنشأها أو أحياها لما كان أميراً ، و بعد ما أصبح ملكاً

ثانياً — تنشيطه للبحث العلمي

ثالثاً — حبه للمدارس ورعايته لمعاهد العلم

رابعاً — عنايته بالمتاحف والمكتبات

خامساً — إهتمامه بالمؤتمرات

---

(١) مدير المطبعة الأميرية يومئذ

النهضة العلميـــة

أنشأ المغفور له الخديو إسماعيل باشا الجمعية الجغرافية فى سنة ١٨٧٥ فعرفت عهداً زاهراً استمر حتى السنين الأولى من حكم الخديو توفيق باشا ثم لم يلبث نشاطها أن أخذ يفتر تدريجاً فلم تأت سنة ١٩١٤ حتى كانت « جسماً من دون روح » كما قال سكرتيرها العام فشق مصيرها على المغفور له السلطان حسين كامل فخاطب أخاه الأمير أحمد فؤاد في موضوعها وحثه على قبول رئاستها فلم يتردد في القبول بدافع من روحه العلمية المفطورة على حب البناء وبحسن تقديره لما تستطيع هذه المؤسسة العظيمة أن تسديه إلى نهضة البلاد العلمية إذا نظمت إدارتها وأحسن توجيهها . وفي ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٥ صدر مرسوم سلطاني بتعيين سموه رئيساً لها ولما اعتلى العرش أولاها التفاتاً خاصاً وظل يحبوها برعايته ويتتبع عملها بلذة واهتمام كبيرين حتى آخر حياته

* * *

ولم يقصر الأمير فؤاد عنايته على الجمعية الجغرافية وحدها بل شمل بها كذلك معهد الأحياء المائية فى الاسكندرية وهو المعهد الذي كانت فكرة إنشائه قد خطرت له في سنة ١٩١٢ ولم يستطع يومئذ إخراجها إلى خير التنفيذ لصعاب شتى اعترضته فعكف على تذليلها واحدة واحدة إلى أن أتيح له في سنة ١٩١٥ الشروع في تحقيق الفكرة بكيفية جدية فما حلت سنة ١٩١٧ حتى كانت جميع

الأعمال التمهيدية لإنشاء المعهد قد تمت فانتهز فرصة اعتلائه العرش في أواخر تلك السنة وأصدر مرسوماً في ٢٨ يناير سنة ١٩١٨ بانشاء معهد الأحياء المائية رسمياً وشمله بالرعاية السامية

* * *

والأمير أحمد فؤاد هو الذي اقترح إنشاء جمعية الاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع وسعى بنفسه لتنفيذ اقتراحه ووضع أهم أسس البيان الذي تضمن أغراض الجمعية فكان من البديهي أن يواصل تعهدها بعطفه واهتمامه بعد جلوسه على العرش فاستطاعت أن تبني لمكاتبها وقاعاتها دارا فخمة في شارع الملكة نازلي معتمدة على هبات جلالته وقد حرص على أن تعقد لجان بعض المؤتمرات جلساتها في قاعاتها تعزيزاً لمنزلتها وتنويهاً بعظم شأنها

* * *

وليس في مصر بين المثقفين من يجهل قيمة الفائدة العلمية التي يجنيها طلاب العلم بوجود جمعية علمية نافعة كالجمعية الطبية المصرية التي أنشئت في سنة ١٩٠٨ واستطاعت بعد زمن قصير من إنشائها أن تضم إليها عدداً كبيراً من الأطباء المصريين أقبلوا عليها بحمية ونشاط واشتركوا في أعمالها و بحوثها بقدر ما كانت تسمح لهم بذلك أوقاتهم والوسائل العلمية التي لديهم . ثم جاءت الحرب العظمى فاضطرت الجمعية أن تقف أعمالها في أثنائها ولكنها ما لبثت أن عادت إلى استئناف نشاطها بعد عقد الصلح على منوال نال ارتياح الملك فؤاد فتفضل في سنة ١٩٢٤ وشملها برعايته وأصدر مرسوماً ملكياً أجاز لها فيه أن تطلق على نفسها اسم « الجمعية الملكية الطبية المصرية »

* * *

وسلك جلالته المسلك عينه تجاه جمعية الحشرات وقد أنشئت بايعاز منه في

سنة ١٩١٩ فإنه غداة تربعه في دست الملك شمل هذه الجمعية برعايته وعكف على تشجيعها وتعزيز مواردها متوسلا بجميع الوسائل ونفحها من الهبات بما ساعدها على بناء دار كبيرة خاصة بها إلى جانب الدار التى بنتها جمعية الأقتصاد السياسي في شارع الملكة نازلي

وسمعت جلالته مرة يقول إنه بلغه أن كثيرين سألوا في أوقات شتى عن فائدة جمعية كجمعية الحشرات فلو علم السائلون أن خسارة البلاد في محصولاتها الزراعية بفتك الآفات الزراعية لا تقل عن عشرة ملايين جنيه في العام الواحد وأنها قد تجاوز عشرين مليوناً في بعض الأحيان لأدركوا من هذين الرقمين ما يمكن أن تجنيه مصر من جمعية كهذه إذا أدت مهمتها على الوجه المطلوب فلو أضيف إلى ذلك ما نعلمه الآن وما قد نعلمه في المستقبل عن فتك الحشرات بصحة الناس وقواهم لازدادت الحاجة إلى هذه المباحث العلمية جلاء لعيوننا وتبين لنا أننا في أشد افتقار إليها ولا سيما بعد ما أصابت ما أصابته من عناية البلدان الأخرى ، ففي انجلترا مثلا معهد خاص بدرس فعل الحشرات على أنواعها في المحصولات لا في تلك البلاد وحدها بل في سائر أنحاء الامبراطورية البريطانية كذلك، وهذا علاوة على اللذة التي يتمتع بها من يقف جانباً من قواه ووقته على البحث العلمي والإحاطة بطبائع ما حوله من المخلوقات وهي الرغبة الفطرية التي شقت أمام البشر طريق الحضارة ومكنتهم من جمع هذه المعلومات التي يعبر عنها بلفظتي العلوم والمعارف

***

وفي ٧ مايو سنة ١٩٣٠ أنشأ الملك فؤاد الجمعية المصرية لأوراق البردي ومنحها ألف جنيه من الجيب الخاص وأهدى إليها مجموعة نفيسة من أوراق البردي لتكون نواة لعملها وبحوثها

قال كبير من رجال القصر الملكي في مقال له عن الملك فؤاد : « وفي سنة ١٩٣٠ إعتراه مرض أليم فلم يحل ذلك دون اهتمامه بانشاء جمعية علم أوراق البردي و إهدائه لها مجموعة من أوراق البردي تبلغ قيمتها نحو ألف جنيه وتبرعه بألف أخرى نقداً لتستعين بها على ضروريات حياتها »(١)

* * *

ورأى الملك فؤاد أن صحاري مصر لا تزال مجهولة مع أنها تؤلف ثلثي مساحة الأراضي المصرية وأنها لا تستغل على الوجه الذي يصح استغلالها به مع أنه لو عني باستثمارها بالوسائل العلمية الحديثة لدرت على البلاد مالاً طائلا ففكر في إنشاء معهد للصحاري يرشد الناس إلى ما يمكن تحقيقه في الصحاري من المشروعات الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية فلا يعودون ينظرون إليها كأنها مساحات شاسعة من الفيافي القفار بينما تحوي في جوفها ثروة عظيمة لم تمتد إليها يد الإنسان في العصور الحديثة حتى الآن في حين أن جميع الدلائل تدل على أن الأقدمين كانوا يستثمرون جانباً كبيراً منها ولا سيما الصحراء الغربية فان الآبار وصهاريج الماء الباقية فيها إلى اليوم من عهد الرومان تشهد بأنهم كانوا يزرعون تلك المساحات المترامية الأطراف كما يزرع العرب جزءا صغيراً منها الآن على شاطىء البحر المتوسط من مرسى مطروح إلى السلوم

ولكن الملك فؤاداً انتقل إلى جوار ربه قبل أن يتسنى له افتتاح الدار الفخمة التي بنيت في ضاحية مصر الجديدة لتكون مقراً لهذا المعهد ثم تعاقبت الكوارث فلم تفتح الدار إلى اليوم ولا ينتظر أن تفتح وأن يباشر المعهد مهمته قبل أن تنتهي الحرب وتسترد الصحاري حياتها العادية

---

(١) من مقال عنوانه « جهود الملك فؤاد فى الاصلاح الاجتماعي » بقلم كبير من رجال القصر الملكي بمجلة الهلال مايو سنة ١٩٤٠

وعلمت من بعض الذين وقفوا على رغبات الملك فؤاد في صدد هذا المعهد أنه كان يريد أن يقسم إلى قسمين : القسم الأول يبحث شؤون الصحاري من الوجهة العلمية فيدرس طبقات أرضها وتربتها ومناجمها ووسائل زرعها والمحصولات التي تلائم كل منطقة من مناطقها وسيجهز هذا القسم بالمعامل الكيماوية والتحليلية التي لاغنى له عنها لاستيفاء بحوثه وتجاربه

والقسم الآخر يبحث استغلال الصحاري من الوجهة الاقتصادية أو العمرانية فيرسم طرقها ويبين مسالكها ويوضح ما خفي من أمرها وينظم رحلات إلى داخلها وواحاتها على أن يشترك فيها السياح وأبناء البلاد على السواء . ولا يخفى أن إقليم الصحاري عندنا من أجود الأقاليم هواء وأنفعها للصحة العامة وقد ظهر ذلك جلياً لكل من أتيح له زيارة جزء من أجزائها

وقد نوه معالي أحمد محمد حسنين باشا في كتابه « الصحراء » بما كان لما لقيه من تشجيع ومعاضدة من الملك فؤاد من نصيب وافر في نجاح رحلته الصحراوية المشهورة

ومما لا يعرفه كثيرون أنه ما كاد معاليه يعود من تلك الرحلة حتى عُين سكرتيراً للمفوضية المصرية في واشنطن ولكن الملك فؤاداً أبى عليه أن يسافر قبل أن يلقي محاضرة عن رحلته وقبل أن يكتب كتابه عنها

وتفضل جلالته تقديراً منه للبحث العلمي ورغبة في حث الشباب المصري على سلوك هذا السبيل فشهد الحفلة التي القى فيها الشاب المصري « أحمد محمد حسنين افندي » محاضرته . ولما انتهى من إلقائها استقبله الملك في المقصورة الملكية وهنأه بما وفق إليه وأبلغه إنعامه عليه برتبة البكوية

وقوبل يومئذ هذا العطف باغتباط عظيم من المتعلمين جميعاً للروح التي انطوى عليها فقد رأوا فيه نصراً للعلم وتأييداً للقائمين بأمره وتشديداً لعزيمة كل

باحثٍ محقق يعمل عمله بسكينة شأن العالم الحقيقي الذي يجد مكافأته ولذته في عمله ولا يعبأ كثيراً بتهليل الجماهير، فهؤلاء العاملون كانوا يجدون من تقدير الملك فؤاد وتنشيطه لسعيهم ما يزيدهم همة ويقوي رغبتهم في هذه المهمة الجليلة

✲✲✲

وقد تجلى حرص الملك فؤاد على تشجيع البحث العلمي منذما كان أميراً، والجمعيات التي أنشأها في ذلك العهد والتي جدد حياتها أكبر دليل على ذلك، فإذا أضفنا إليها جمعية ترقية اللغة العربية وقد أنشأها في سنة ١٩٠٨ تألف منها كلها مظهر جميل للنهضة العلمية التي نهضتها البلاد على يده وكأنما أراد الله أن يكلل مجهوده في سبيل اللغة العربية بما يزيده سناء فهيأ له أن يصدر في شهر ديسمبر سنه ١٩٣٣ مرسوم المجمع اللغوي

قال لي يوماً الدكتور حافظ عفيفي باشا « إن العمل العظيم الذي عمله الملك فؤاد بإنشاء تلك الجمعيات لا يقدره حق قدره إلا من يحيط بجهودها ولا شك في أنه لو تيسر لجلالته أن ينفذ كل ما كان يفكر فيه لتغير وجه مصر تغيراً تاماً في عهده »

✲✲✲

ولا جدال في أنه لولا هبات جلالته المستمرة للجمعية الجغرافية لما استطاعت أن تحقق ما حققته وأن تخرج للعلم الأسفار النفيسة التي أشرف على إعدادها وطبعها ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ ساكن الجنان المغفور له محمد علي باشا الكبير فإن المؤرخين الذين كتبوا فى الماضي عن حوادث ذلك العهد لم يتمكنوا من الإحاطة بجميع ظروفها وملابساتها لأن هناك نواحي شتى كانت تفتقر إلى ضوء جديد يلقي شعاعاً من الحقيقة على الغامض من أسرارها والمجهول من تفاصيلها

ورأى الملك فؤاد أن هذا النقص في تاريخ مصر الحديث لا يسد إلا إذا وضعت جميع الوثائق السياسية المتعلقة بذلك العهد تحت تصرف الباحثين والمؤرخين وفي مقدمة تلك الوثائق ما هو موجود منها في محفوظات وزارات الخارجية في باريس ولندن وفينا وأثينا وروما وسان بطرسبورج (لنينغراد الآن) وغيرها وهي التقارير التي كان قناصل الدول في مصر في عهد محمد علي باشا يرفعونها إلى حكوماتهم عن أحوال هذه البلاد أو عن المخاطبات التي تدور بينهم وبين محمد علي باشا في المسائل السياسية العامة

لذلك قرر جلالته وجوب جمع هذه الوثائق والمستندات وتنسيقها وتبويبها وطبعها ليستعين بها مؤرخو مصر في المستقبل فيوفر عليهم مشقة ونفقات لا قبل لهم باحتمالها . ومن بواعث السرور والاغتباط أن جلالته وجد العلماء والباحثين الذين يأخذون هذا العمل الدقيق على عاتقهم وكان من نتيجة استقصائهم ونشاطهم أن ظهر حتى الآن ثلاثون مجلداً من تلك الوثائق والمستندات الرسمية وقد نقلوها من ملفات وزارات الخارجية في البلدان التي وردت أسماؤها آنفاً بعدما نالوا إذنا خاصاً في ذلك من حكومات تلك البلدان وعنيت بطبعها الجمعية الجغرافية الملكية في مصر بمؤازرة جلالة الملك ورعايته والمبلغ الكبير الذي دفعه جلالته لنفقات هذه المطبوعات النفيسة ولا يقل عن مئة ألف وعشرين ألف جنيه

* * *

ووصف كبير من رجال القصر الملكي ما كان الملك فؤاد يعلقه من شأن عظيم على تلك المطبوعات وعلى تنظيم قسم المحفوظات التاريخية في القصر فقال :

« اشتد المرض بجلالة الملك الراحل في صيف سنة ١٩٣٤ وتحرجت السياسة بين مصر وانجلترا وكان المندوب السامي مسافراً بالاجازة فانتدبت وزارة الخارجية

البريطانية المستر بترسون رئيس القسم المصري فيها إذ ذاك ليقوم مقامه وعين صاحب الدولة أحمد زيور باشا رئيساً للديوان مما نذكره جميعاً من جسام الحوادث في ذلك العهد . وكنت قبل ذلك قد مضيت مدة طويلة مريضاً لم أستطع خلالها أن أتشرف بالمقابلة الملكية إلى أن كان يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ ففي ذلك اليوم دعيت إلى قصر المنتزه العامر فألفيت جلالة الملك رحمه الله في قاعة الاستقبال في دائرة الحرم وهو ضعيف نحيل شاحب اللون مما عاناه من الآلام وما مثلت بين يديه وهنأته بشفائه وسلامته حتى ابتدرني سائلاً « ما حال المحفوظات التاريخية ؟ وأي شوط قطعتم في ترتيبها ؟ وهل من جديد في المؤلفات التي تطبع الآن هنا وفي أوربا ؟ وما حال الجمعية الجغرافية وأخواتها ؟ لقد أقعدني المرض طول المدة الماضية ولكني لم أفتأ أفكر في أعمالنا » . وطلب مني أن أوافيه عاجلاً بمذكرة عما تم في كل هذا . فأطعت الأمر وانصرفت . وكان المغفور له توفيق نسيم باشا فى مكتب التشريفات ينتظر الأمر بتأليف الوزارة[1] »

* * *

ولولا الملك فؤاد لما كان معهد فؤاد للموسيقى الشرقية قد أنشىء ولما كانت له دار فخمة كالدار التي بنيت له في شارع الملكة نازلي

فقد أصيبت الموسيقى الشرقية بجمود لا يطابق ما يرى في مصر وسواها من بلدان الشرق من رغبة في السير إلى الأمام . و بعد ما كثر اتصال الشرق بالغرب — واجهت موسيقانا الشرقية الموسيقى الغربية بالغة من الإتقان الفني والآلي مبلغاً عظيماً ، وحيث أننا نتعلم لغات الإفرنج وآدابهم ونسيح في بلدانهم ونشهد تمثيلهم ونسمع موسيقاهم في دور التمثيل والسينما فقد كان هناك خوف على

---

(١) من مقال عنوانه « جهود الملك فؤاد في الاصلاح الاجتماعي » بقلم كبير من رجال القصر الملكي — مجلة الهلال عدد مايو سنه ١٩٤٠

الموسيقى الشرقية من أن تضعف — وهو خوف في محله — فبعث ذلك الملك فؤاد على تأييد معهد الموسيقى الشرقي إلى أن تمت له هذه النهضة . وتفضل جلالته فشرف حفلة افتتاح داره الجديدة في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ ومنحه في تلك المناسبة ألف جنيه

* * *

وحتى لما كان جلالته يسافر إلى أوربا في زيارات رسمية كان دائم التفكير في كل ما تقدم

« سافر رحمه الله وطيب ثراه إلى أوربا في سنة ١٩٢٧ في زيارات رسمية إلى بعض الدول فكان يجمع إلى مهمته الرسمية حرصه على أن لا تفوته فرصة تتاح للتردد على متحف فني أو معرض صناعي عله يجد فيه ما يستفيد منه ويفيد به مصر وكان في الوقت عينه يتتبع عن كثب مفاوضات المغفور له ثروت باشا مع السر أوستن تشمبرلن ويمد وزيره الأول بنصائحه الغالية وإرشاداته الثمينة . وكان في تلك السنة في فيشي يتصل بالمستشرق الشهير البارون دى لنجيه ويفاوضه في عقد مؤتمر للموسيقى العربية في القاهرة . كما أنه في تلك السنة عينها اتفق مع المسيو جبرائيل هانتو على وضع تاريخ شامل لمصر من أقدم العصور إلى وقتنا الحاضر

« وفي سنة ١٩٢٩ سافر للمرة الثانية إلى أوربا فكان شأنه رحمه الله هذه المرة شأنه في المرة السابقة ورأيته عقب وصوله إلى جنوى من الإسكندرية يهتم بتفاصيل الزيارات الرسمية التي كان ذاهباً إليها في ألمانيا وتشكوسلوفاكيا وسويسرا وفي الوقت نفسه يطالع باهتمام تقرير المسيو كلابارید عما شاهده في مصر خاصاً بالتعليم وأساليبه . فلما حط رحاله في انجلترا للاستفسار عن صحة الملك جورج الخامس وكان مريضاً إذ ذاك وكان رفعة محمد محمود باشا يفاوض المستر

هندرسون في شأن المعاهدة بين مصر وانجلترا أخذ جلالته يتتبع سير المفاوضات ويقابل رجال السياسة الإنجليز ولم يتوان عن زيارة مرافق لندن ومعارضها بل انتهز فرصة وجوده هناك للاتفاق مع البروفسور دودويل على تأليف كتاب في تاريخ مصر في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير ودعاه إلى زيارة مصر ليطلع على كنوز محفوظاتها ويستوعبها فيما يشيد بمجد مصر ويظهر عظمتها للملأ أجمع »[1]

---

(١) من مقال عنوانه « جهود الملك فؤاد في الاصلاح الاجتماعي » بقلم كبير من رجال القصر الملكي — مجلة الهلال عدد مايو سنة ١٩٤٠

النهضة التعليمية

١ - المدارس
٢ - المتاحف
٣ - المؤتمرات

النهضـــة التعليمية

١ — المدارس

لما تبوأ الملك فؤاد العرش في سنة ١٩١٧ كان عدد المدارس الأولية ١٣٢ مدرسة وعدد تلاميذها ١٢٤٧٣

ولما توفي في سنة ١٩٣٦ كان عددها ٤٤٨١ وعدد تلاميذها ٨٥٠٧٧٨

وكان عندنا للتعليم الثانوي ٦ مدارس أميرية للبنين يتعلم فيها ٢٤٤٢ تلميذاً فأصبح عددها ٣٧ مدرسة يتردد عليها ١٤٦٤٦ تلميذاً

وكان عدد المدارس الثانوية الحرة للبنين ٢٦ فأصبح ٧٣ و بعد ما كان عدد تلاميذها ٤٥٧٠ أصبح ٨٤٠٠٠

ولم يكن هناك في ســـنة ١٩١٧ مدرسة أميرية ثانوية للبنـات . أما في سنة ١٩٣٦ فكان لنا سبع مدارس تضم بين جوانبها ١٣٠٩ تلميذات

ولم يكن للبنات مدرسة ثانوية حرة في سنة ١٩١٧ فصار لهن ١٢ مدرسة في سنة ١٩٣٦ تعلم ٧٥٠ تلميذة

* * *

وتجلى عطف المليك فؤاد على التعليم وحبه للمدارس بأجلى مظهرهما في النهضة التي نهضتها مدارس الأوقاف الملكية فى عهده

فقبل أن يعتلي جلالته العرش كان لديوان الأوقاف الملكية سبع مدارس غير أنه لم يكن للديوان إدارة للتعليم تشرف على المدارس التابعة له من الوجهة

العلمية والأدارية علاوة على ضعف الإشراف المالي إذ لم يكن فى الديوان دفاتر لسجلات المدارس أو المصروفات أو دفاتر للعهد والجرد . وفى سنة ١٩١٥ أحيلت تلك المدارس ما عدا المدرسة الحسينية والمدارس الأولية إلى الجمعية الخيرية الإسلامية لتتولى إدارتها تخلصاً منها في مقابل مبلغ سنوي معين من المال كانت الجمعية تقبضه من الديوان . أما المدرسة الحسينية فبقيت تابعة للديوان لا تعلقاً بها ولكن لقلة ما عرض — لقاء الإشراف عليها — على الجمعية من المال لأن وقف المدرسة كان مديناً ديناً كبيراً . أما المدارس الأولية الثلاث فكانت منها مدرسة خليل أغا محالة إلى وزارة المعارف لأن وقفها كان تابعاً لديوان الأوقاف وكان الديوان يدير المدرستين الأخريين بواسطة التفتيش الذي تقع المدرسة فى دائرته . ولكن ما كاد الملك فؤاد يجلس على عرش مصر حتى استقبلت مدارس الديوان عصراً جديدا من التقدم والنجاح وكانت أول خطوة خطيت في هذا السبيل أن أمر جلالته برد مدارس الديوان إليه وكان ذلك في يونيو سنة ١٩١٨ فبدئ بإنشاء إدارة خاصة للتعليم بالديوان لتهيمن على شؤون المدارس فسجلت أسماء الطلبة وأحصت أدوات التعليم ونظمت الدفاتر وقيدت المصروفات واستوفي ما كان ينقص تلك المدارس من الأجهزة الخاصة بتدريس العلوم وانتخب للمدارس جماعة من المدرسين الأكفاء فسارت المدارس الملكية من ذلك الحين في طريق الرقي المستمر إلى أن بلغت في سنة ١٩٣٥ مستوى اطمأن الملك فؤاد منه عليها فوافق على ضمها إلى وزارة المعارف

وانتهز جلالته في شهر يناير سنة ١٩٣٠ فرصة نقل مدرسة خليل أغا التابعة للأوقاف الملكية إلى بنائها الجديد في شارع الأمير فاروق فشرفها بزيارته محاطاً بوزرائه وكبار رجال معيته وطاف يومئذ بفصول المدرسة فصلا فصلا ثم نزل جلالته إلى « البدروم » وزار جماعات الأشبال والكشافة في ناديهم وكانت

كل جماعة منهم تتسلى بالألعاب الشائعة بين الكشافة وكلها من أنواع التسلية الصناعية المفيدة التي « تساعد على نمو أذهانهم » كما قال جلالة الملك نفسه وهو يعرب عن إعجابه بما شاهد من مظاهر النظام والنشاط

وزار جلالته بعد ذلك مدرسة تحسين الخطوط العربية في البناء نفسه وقد عرضت فيها نماذج الخطوط التي كتبها الطلبة والمدرسون فأنعم النظر في كثير منها وقال « من الحرام أن تندثر معالم هذه الخطوط الجميلة » و بعد ما حادث جلالته الطلبة والمدرسين وحثهم على المضي فى نشاطهم واجتهادهم زار قاعات المائدة فتفقدها وطلب أن يشاهد المطبخ فنزل إليه محاطاً بالوزراء وكبار رجال السراي ووقف على الوسائل التي تعد بها أطعمة التلاميذ وطلب أن يرى بعض هذه الأطعمة فجاؤا إليه بنماذج منها في أطباق فارتاح إليها

* * *

وكأنما أراد جلالته أن يظهر ما يعلقه على تعليم البنت من شأن فزار في شهر مارس سنة ١٩٣٢ مدرسة محمد علي الابتدائية للبنات محفوفا بوزرائه وكبار رجال معيته كذلك واستغرقت زيارته لها ساعتين كاملتين لم يترك في أثنائهما حجرة واحدة من دون أن يدخلها مبدياً اهتمامه بكل ما يراه حتى أنه لما تفقد الفصل الأول من الفرقة الأولى كانت الإنسة أمينة رزق تدرس الجغرافيا وكان موضوع الدرس « المناطق الاستوائية وغلاتها » فشرحت لهن أقليم تلك المناطق وظواهر أحوالها الجوية ثم قالت إن المطاط (الكاوتشوك) فى مقدمة غلاتها . وهنا أقفلت أبواب الحجرة وشُرع في عرض شريط سينمائي على التلميذات يبين تاريخ المطاط من حين غرسه إلى أن يستخرج من الشجر ويشحن إلى الخارج لتحويله إلى كاوتشوك فكان شريطاً علمياً نافعاً تفضل جلالة الملك فشاهده

برمته وسأل هل تعرض الأفلام التعليمية المماثلة له على التلميذات بانتظام فأجيب بالايجاب فقال أن هذه الأفلام من خير وسائل التعليم

و بعد ما زار جلالته القسم الابتدائي كله عرج على روضة الأطفال وكان جميع الحاضرين يظنون أنه لن يقضي فيها سوى دقائق ولـكنه تفقد فصولها الخمسة ومكث في كل فصل وقتا طويلا ومن ذلك أنه لما دخل الفصل الأول من السنة الثانية كانت الآنسة عائشة أنيس تدرس المحفوظات وكان موضوع الدرس تمثيل الصناعات المختلفة فظل الملك واقفاً إلى أن أجاب كل صبي وكل فتاة على السؤال الذي وجه إليه أو إليها كأنما أراد جلالته بذلك أن يكون قدوة في الاهتمام الذي يجب على البلاد أن تعلقه على مراحل التعليم من الأساس الأول

***

و يضيق بنا المقام إذا حاولنا أن نسرد طائفة أخرى من الأمثلة المشابهة للأمثلة المتقدمة ولـكننا لا نستطيع أن نطوي هذا الفصل من دون أن ننوه بما لقيته مدرسة الهندسة ومدرسة الطب من عطف خاص من لدن الملك فؤاد فإن هناك علمين من أهم علوم البشر اشتهرت مصر بهما في قديم الزمان وفي حديثه علاوة على العلوم والفنون الأخرى التي إزدهرت على ضفاف النيل وهما علم الطب وعلم الهندسة

أما فى الطب فان اعتقـاد قدماء المصريين بالخلود حملهم على إجادة فن التحنيط وكان ذلك مدعاة إلى اتقان صناعة العلاج والجراحة وفى الآثار المصرية والمحفوظ من أوراق البردي وفي الموميات الشهيرة أدلة و براهين تؤيد هذه الشهرة وتؤكد هذه البراعة في صناعة الشفاء

وأما في الهندسة فان طبيعة الأرض المصرية والحاجة إلى أساليب ووسائل لتعيين الحدود حيث تقل الحدود الطبيعية عنها في البلدان الأخرى قضتا بالنشاط من هذه الناحية علاوة على أن شـدة تدين المصريين القدماء وجهت نظرهم

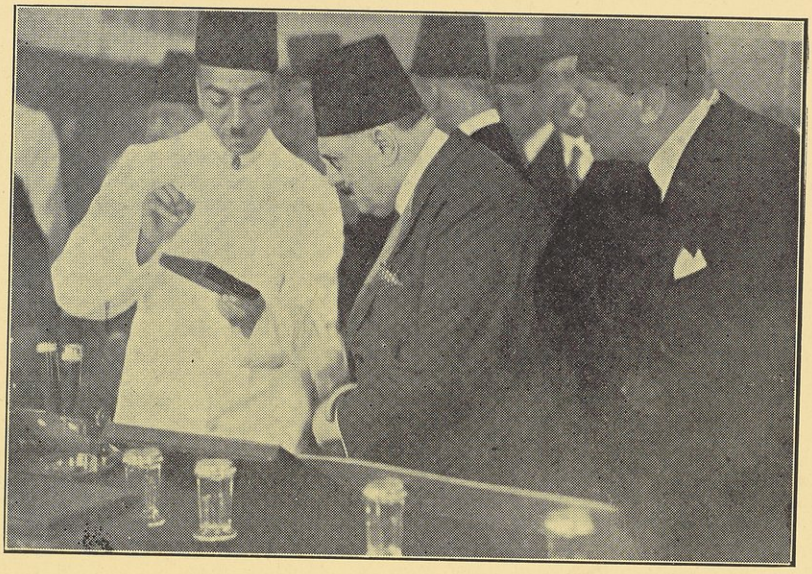

جلالة الملك فؤاد عند زيارته لمعامل وزارة الزراعة

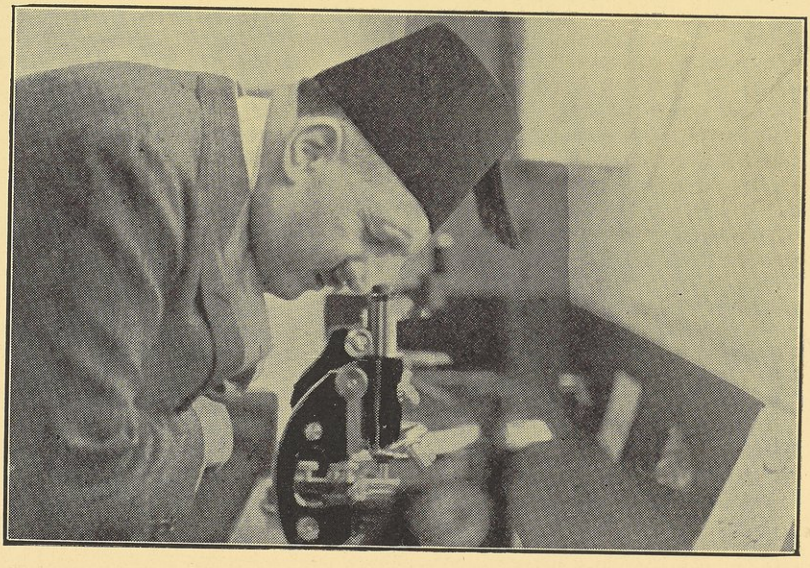

جلالة الملك فؤاد فى إحدى زياراته العلمية

واهتمامهم إلى اتقان فن البناء ليشيدوا الهيا كل الخالدة ، وعقيدتهم بالخلود بعثتهم على بناء الأهرام وسواها لتكون قبوراً تدوم ما دام الزمان

ولكن جاء دور الفتور والتقهقر وهو الذي أصاب الشرق كله فانحطت هذه العلوم والفنون في مصر كما انحطت في البلدان المجاورة لها ولكن ظل الفن الهندسي عزيز الجانب في مصر بعناية سلاطين المماليك إلى أن عراه الوهن بعد ذلك حتى كانت حملة الفرنسويين ومجيء علمائهم ثم جاء محمد علي الكبير فأراد أن يعيد إلى مصر مقامها الأول ويسد حاجتها فأنشأ مدرسة الهندسة وبدأ بتخريج المهندسين المصريين البارعين وأرسل بعضاً منهم في البعثات العلمية إلى الخارج واستخدمت مصر نفراً من المهندسين الأجانب العارفين فكانت نهضة كبيرة دليلها هذه المدرسة

وفي شهر ديسمبر سنة ١٩٣٢ احتفلت مدرسة الهندسة — ولم تكن قد أصبحت كلية بعد — بوضع الحجر الأساسي لبناء بعض أقسامها الجديدة فتفضل الملك فؤاد وترأس الاحتفال فكان في ترؤسه له تقدير لمقام هذه المدرسة ومجهود أساتذتها وخريجيها فى جميع أدوارها وتنشيط للعمل العظيم الذي أسسه جد الملك الأكبر . والحكم على المدارس يكون فى الغالب بنتائجها وعلى هذا المبدأ يصح للباحث أن يحكم بأن مدرسة الهندسة حققت أقصى الآمال التي وضعت فيها وأما النتيجة فظاهرة في براعة المهندسين المصريين وإمكان استغناء مصر عن المهندسين الأجانب فى خدمة الحكومة بعد ما كانت أعمال الري العظيمة ومشروعات البناء والطرق والكباري فى أيديهم فتسلمها المهندسون المصريون ونهضوا بها على أكمل وجه

وكان الملك فؤاد قد حيا قبل ذلك بأربع سنوات النهضة الطبية في مصر بتفضله بوضع الحجر الأساسي لبناء كلية الطب ومستشفى فؤاد الأول في المنيل في أثناء عقد المؤتمر الطبي الدولي في القاهرة في ديسمبر سنة ١٩٢٨ وختم وزير

وزير المعارف[1] خطبته بقوله يومئذ : « إن الجامعة المصرية التي هي غرس يدكم وربيبة نعمتكم قررت أن تصوغ شكرها لجلالتكم بآية هي كل ما تقدر عليه (درجة الدكتوراه الفخرية في الحقوق) ترفعها إلى مقامكم الأسمى فإذا حازت قبولا كان ذلك نعمة جديدة تسبغونها على معهدكم الذي يدين لرعايتكم بوجوده وبقائه ويدين بالإخلاص العميق لشخصكم الكريم »

(١) كان احمد لطفي السيد باشا وزيراً للمعارف ومديراً للجامعة في ذلك الحين

٢ ـ المتاحف

كان مقرراً أن يحتفل بافتتاح متحف فؤاد الصحي في يوم ١٩ ابريل سنة ١٩٢٧ برئاسة جلالة الملك فؤاد

وكانت وزارة عدلي باشا الائتلافية هي الوزارة المضطلعة بأعباء الحكم في ذلك الحين

وقبل أن يحل موعد افتتاح المتحف الجديد بيومين نشأت فجأة الأزمة التي انتهت باستقرار قرار الوزارة على الاستقالة وفعلا رفع المغفور له عدلي يكن باشا استقالته إلى الملك

و بدا للمشتغلين بالشؤون العامة انه لن يتيسر حل الأزمة الوزارية قبل موعد احتفال المتحف الصحي

فماذا يقرر الملك فؤاد يا ترى ؟

أيقرر تأجيل الافتتاح ريثما تحل الأزمة وتؤلف الوزارة الجديدة ؟

أم يقرر أن يقام الاحتفال في موعده ؟

أما الملك فؤاد نفسه فلم يتردد بل قال لكبير أمنائه لما سأله في ذلك :

« إن السياسة تستطيع أن تنتظر العلم »

وفي اليوم المعين وفي الساعة المحددة كان جلالته يفتتح المتحف محاطاً بأعضاء

الوزارة المستقيلة و يطوف أرجاءه قسماً قسماً مطيلا الوقوف والتدقيق في كل قسم منها كأن لا استقالة هناك ولا أزمة وزارية

✲✲✲

ذلك أن جلالته كان يعد المتاحف مدارس شعبية ومظهراً هاماً من مظاهر نهضة البلاد وعلى هذا الأساس كان يهتم بها وهو الذي أشار بإنشاء متحف سكة الحديد فلما تأخر البدء به ظل يلح و يحث إلى أن شرعوا في التنفيذ ثم ظل يتتبع سير العمل و يشجع القائمين به إلى أن خرج المتحف إلى حيز الوجود . ولما تم إنشاؤه أهدى إليه صورة الاتفاق الذي عقد بين المغفور له سعيد باشا والي مصر والمستر ستيفنصن مخترع سكة الحديد على مد أول خط حديدي بين القاهرة والاسكندرية

وفي ١٥ يناير سنة ١٩٣٣ تفضل جلالته فافتتح هذا المتحف وكان يطيل الوقوف في كل قسم من أقسامه مستفسراً كعادته عن كل ما يستوقف نظره ومناقشاً الموظف المختص في كل كبيرة وصغيرة . ولما شاهد الخارطة التي تبين نمو خطوط سكة الحديد في عهد الخديو اسماعيل باشا قال إن والده مد خطاً من حلفا إلى الجنوب و إن هذا الخط ازيل في أثناء الحرب العظمى الماضية . ثم أشار جلالته بتلافي هذا النقص في الخارطة لأن ذلك الخط ليس مرسوماً فيها فأعجب الحاضرون بشدة تدقيق جلالتـه في كل ما يقع عليه نظره و بقوة ذاكرته وسرعة بديهته

وقبل أن يغادر جلالته المتحف قال للذين تولوا تنظيمه : « إن هذا المتحف نواة حسنة وأنا مرتاح إلى مشاهدته فامضوا في عملكم لإنجاز ما لم ينجز منه ولسد كل نقص فيه »

✲✲✲

وفي الذكريات التي أفضى بها إليَّ سعادة محمد شراره باشا عن الظروف التي أنشىء فيها متحف البريد خير ما يصف عناية الملك فؤاد بالمتاحف

قال سعادته : كنت في سنة ١٩٣٠ مديراً عاماً لمصلحة البريد فلما عدت في شهر اكتوبر من إجازتي في لبنان تشرفت بمقابلة جلالة الملك فؤاد في قصر المنتزه فسألني في خلال الحديث هل هناك سبب فني يقتضي وجود الإدارة العامة للبريد فى الاسكندرية فأجبت بالسلب وقلت بل إن إدارة البريد فى كل بلد تكون فى العاصمة ، فقال لي جلالته إذن اذهب وقابل وزير المواصلات وحدثه في نقل الإدارة العامة للبريد إلى القاهرة وقل له أنك لا ترى سبباً فنياً يحول دون ذلك ، فقابلت وزير المواصلات — وكان إذ ذاك سعادة توفيق دوس باشا — و بعدما اتفقنا على الموضوع ذهبنا معاً إلى دولة اسماعيل صدقي باشا في ديوانه برئاسة مجلس الوزراء وكاشفناه بالأمر فطلب منا إعداد مذكرة به ، وفي الغد اجتمع مجلس الوزراء وأقر المذكرة

« وأخذنا نبحث عن مكان لمكاتب الإدارة العامة . وكان دولة حسين سري باشا وكيلا لوزارة الأشغال يومئذ فاقترح أن يبنى المكان الجديد فوق مكاتب البريد القديمة فى ميدان العتبة الخضراء (ميدان الملكة فريدة الآن) فصادف اقتراحه قبولا ورغب دولته إلى علي حسين بك مدير مصلحة المباني في ذلك الحين ومصطفى فهمي بك وكيلها في أن يتم البناء الجديد في أقصر وقت مستطاع ، وبعد اثنين وسبعين يوماً من ذلك التاريخ تسلمت مفاتيح البناء الجديد وفي خلال أسبوع أنجزت نقل المكاتب كلها من الإسكندرية إلى القاهرة

« وعلى أثر ذلك تشرفت بمقابلة جلالة الملك فؤاد ورفعت إلى جلالته نتيجة العمل الذي عمل فسر به ثم قال إنه من سنة ١٩٢٤ أخذ يفكر في موضوع نقل إدارة البريد العامة من الإسكندرية إلى القاهرة . وقبل أن يختم جلالته

الحديث التفت إليّ وقال : «ولا تنس يا شراره بك أن تخصص في البناء الجديد مكاناً لمتحف البريد فإني أريد منك أن تنشئ متحفاً للبريد وأن يشاهده أعضاء مؤتمر البريد الدولي عند ما يعقد فى القاهرة »

ومضى شراره باشا في حديثه فقال :

« ولما وضعت مشروع ميزانية مصلحة البريد طلبت أربعة آلاف جنيه لمتحف البريد فأعطوني مئة جنيه لا أكثر لأبدأ العمل بها فلما تشرفت بمقابلة الملك فؤاد بعد عودتي من الإجازة في سنة ١٩٣٢ سألني : « ماذا عملت بمتحف البريد فإن المؤتمر سيعقد في القاهرة في فبراير سنة ١٩٣٤ » . فلم أر مندوحة عن مصارحة جلالته بالحقيقة فقلت إنه ليس عندي سوى مئة جنيه فضرب جلالته المكتب بيده ونهض واقفاً وهو يقول : « مئة جنيه ؟ . . . والمؤتمر يعقد في سنة ١٩٣٤ . » فلم أتكلم . فقال جلالته : « اذهب فوراً وقابل وزير المواصلات وقل له إنني أريد أن يعتمدوا حالا أربعة آلاف جنيه لمتحف البريد » . وفعلا قابلت الوزير وكاشفته برغبة جلالة الملك فلم تلبث الحكومة أن اعتمدت المبلغ المطلوب

« ولم يحل شهر يناير سنة ١٩٣٤ حتى كان المتحف قد أعد إعداداً كاملا فالتمست التشرف بالمقابلة السنية لأزف النبأ إلى جلالة الملك فلم يكد يسمعه حتى قال مغتبطاً : « أنا ممنون . . . وسأفتح المتحف بنفسي بإذن الله »

وتفضل جلالته فعين يوم ٢٨ يناير موعداً للافتتاح ولكن في صباح يوم ٢٧ اتصل المغفور له سعيد ذو الفقار باشا كبير الأمناء بشراره باشا تليفونياً وقال له إن الملك منحرف الصحة وإن حفلة الافتتاح أجلت إلى أجل غير مسمى

وحيث أن موعد افتتاح مؤتمر البريد كان في أول فبراير أذن جلالته في أن يزور أعضاؤه متحف البريد بصفة غير رسمية

و بعد أيام دعي شراره باشا إلى مقابلة جلالة الملك وكان معتكفاً في قصر القبة فقال لسعادته : « لما استقبلتُ جاربانى نيريني[1] سألتُه عن متحف البريد الذي أنشأناه فقال لي إنه لا يقل عن متحف البريد في برلين إلا أن المكان ضيق فسرني أن أسمع ذلك وأنعمت عليك بنشان اسماعيل من الطبقة الثالثة وقد شئت أن أسلمك إياه بيدي فمبروك . » فانحنى شراره باشا على يد جلالته ولثمها

وفي شهر يونيو سنة ١٩٣٥ رغب جلالته في أن يزور صاحب السمو الملكي أمير الصعيد متحف البريد فشرفه سموه بزيارته واطلع على محتوياته فارتاح إلى نظامه وأعجب بمعروضاته وهنأ شراره باشا ومساعديه بمجهودهم

* * *

وكان الملك فؤاد منذ ما زار بودابست عاصمة المجر وشاهد متحفها الزراعي العظيم يتمنى أن يكون لمصر متحف مثله وهي بلاد زراعية قبل كل شيء فظل يحث رجال الحكومة على إنشائه إلى أن تقرر المشروع رسمياً فأوعز إليهم بإيفاد أحد كبار رجال وزارة الزراعة إلى أوربا ليزور متاحفها الزراعية ولا سيما متحف بودابست حتى إذا عاد إلى مصر أشار بما يمكن اقتباسه عنها في المتحف الزراعي الذي تقرر إنشاؤه في القاهرة فعهدت وزارة الزراعة في هذه المهمة إلى سعادة جلال فهيم باشا

* * *

وقص عليَّ معالي الدكتور عبد الواحد الوكيل بك أنه بعد عودته من أحد المؤتمرات الصحية التي عقدت في انجلترا تشرف بمقابلة جلالة الملك فؤاد فدار الحديث على أعمال المؤتمر ثم على الصحة في المصانع و بيوت العمال فقال معاليه لجلالته إنه لما كان فى لندن زار متحفاً أنشىء خصيصاً ليبين الأخطار الصحية

---

(١) السكرتير العام لمؤتمر البريد الدولي

التي تنشأ في المصانع إذا أسيء استعمال الآلات وينقسم كل جناح في هذا المتحف قسمين : قسم وضعوا فيه الآلات التي تدار خطأ ليشاهد الزائر ما ينجم عنها للعامل وقسم عرضوا فيه الآلات التي تدار على وجهها الصحيح ليرى الزائر الفرق بين الحالتين ، ولا تفتح أبواب هذا المتحف إلا لأصحاب المصانع ومديريها وجماعات العمال وللأطباء المشتغلين بالصحة العامة

فقال جلالته : « كيف فاتتني زيارة هذا المتحف عند زيارتي للمندن ؟ »

وهنا دق جلالته الجرس فأقبل الأمين الخاص فقال له : هات « النوتة » من فضلك

ولما جلب له الأمين الخاص دفتر مذكراته سأل الدكتور عبد الواحد الوكيل بك عن اسم هذا المتحف وعنوانه وهو يقول : « إذا ذهبت إلى انجلترا مرة أخرى لا بد أن أزوره وأقابل بينه و بين متحف باريس الصحي »

* * *

وقبل أن تنتهي المقابلة قال الملك فؤاد للدكتور عبد الواحد بك : « هل انتهيتم في كلية الطب من إعداد متحف الباتولوجيا ؟ » فقال معاليه : « نعم يا مولاي »

فقال جلالته : « لما حدثني الدكتور على ابراهيم باشا عن هذا المتحف أوصيته بأن يعدل نظام إضاءته بأن يجعلها من السقف ولذلك مزيتان الأولى أن يعم النور المكان كله بدرجة واحدة والأخرى أن تكسبوا الجدران كلها فيتسع المكان فيها لما تريدون أن تعرضوه عليها من نماذج فهل فعلتم ذلك ؟ » فقال معاليه : « لقد عملنا بمشورة جلالتكم فأفادتنا فعلا في الأمرين والحقيقة أننا لم نكن متنبهين لهذا الموضوع »

٣ - المؤتمـــرات

كان الملك فؤاد معتكفاً لما حل موعد افتتاح مؤتمر البريد الدولي في أول فبراير سنة ١٩٣٤ فشق عليه الأمر وهو الذي كان يهتم بالمؤتمرات الدولية اهتماماً عظيماً ويحث على الإكثار من عقدها في مصر ويشملها برعاية خاصة فقرر أن ينيب عنه ولي عهده الأمير فاروق في ترؤس الاحتفال بافتتاح المؤتمر رسمياً في دار الأوبرا الملكية فكانت هذه أول حفلة رسمية يرأسها سموه وهو لم يجاوز الرابعة عشرة بعد فكان ذلك أعظم دليل على ما لعقد المؤتمرات الدولية في مصر من منزلة رفيعة في نفس جلالته

ولا ريب في أن المؤتمرات الدولية التي عقدت في مصر هي من أعظم مآثر عصر الملك فؤاد وأجلها قدراً وأبقاها ذكراً فقد كان جلالته يعد هذه المؤتمرات بحق خير دعوة تبث على نمط فريد في بابه للاعلان عن جو مصر وجمال طبيعتها وخالد آثارها وبديع فنها القديم والحديث واطراد نهضتها علاوة على المقام الأدبي الذي تناله مصر من تقربها إلى قلوب أعضاء هذه المؤتمرات وهم إما من رجال المال أو رجال القلم أو رجال التجارة أو رجال الصناعة والفن

* * *

وكان أول مؤتمر دولي عقد في القاهرة في عهد الملك فؤاد هو المؤتمر الجغرافي وقد افتتحه جلالته رسمياً في دار الأوبرا الملكية في أول ابريل سنة ١٩٢٥

وود جلالته قبل حلول موعد المؤتمر أن يكون بين المصريين من يستطيع أن يرفع رأس مصر بين العلماء والجغرافيين الأجانب الذين سيشتركون فيه ببحوثهم العلمية والعملية فاتجه نظره إلى معالي أحمد محمد حسنين باشا وكانت بعض الجمعيات الجغرافية قد أهدت إلى معاليه مدالياتها الذهبية تقديراً للجهود التي بذلها في رحلته الصحراوية والنتائج العلمية التي أسفرت عنها فرغب جلالته في أن تصل بعض هذه المداليات إلى حسنين باشا قبل عقد المؤتمر ليظهر فيه بمظهر لائق بمصر فتحققت رغبته السامية واستطاع حسنين باشا أن يجلس إلى جانب كبار الأعضاء الأجانب وأن يكتسب فيه لنهضة مصر العلمية مقاماً طابت له نفس مليكه

وفي جلسة المؤتمر الختامية وقف السر فرنسس يونجهزبند رئيس الجمعية الجغرافية الملكية في لندن وقال : « لا نزاع في أن الفضل في النجاح الباهر الذي نجحه المؤتمر يعود إلى جلالة الملك فؤاد فقد كان عظيم الاهتمام بتنظيمه وبجميع أعماله وليس بينها عمل واحد لا تجد عليه الطابع الذي يمثل نشاط جلالته فالعلم مدين لملك مصر بالدعوة إلى عقد هذا المؤتمر »

وانتهزت الجمعيات الجغرافية في فرنسا وبريطانيا وإيطاليا واسبانيا والبلجيك وأميركا واليونان وسويسرا وبولونيا والبرازيل والأرجنتين وغيرها هذه الفرصة فانتخبت جلالته عضواً فخرياً فيها تحية لجهوده في سبيل العلم ولا سيما الجغرافيا

* * *

وفي ديسمبر سنة ١٩٢٦ افتتح جلالة الملك فؤاد في دار الأوبرا الملكية مؤتمر الملاحة الدولي وكان مؤتمر سنة ١٩٢٣ قد عقد في لندن

وسنرى في الفصل الذي سنخصصه للنهضة العمرانية في عهد الملك فؤاد شيئاً كثيراً عن الشأن العظيم الذي كان جلالته يعلقه على نمو الملاحة الداخلية والتوسع

في إصلاح الموانىء و إنشاء موانىء جديدة فحسبنا أن نقول هنا إن جلالته شاء أن يقترن عقد هذا المؤتمر في مصر بحدث جليل في تاريخ نهضتنا العمرانية فافتتح رسمياً مدينة « بور فؤاد » على الشاطىء الإسيوي المقابل لمدينة بور سعيد في آخر يوم من أيام انعقاد المؤتمر

* * *

وكان من الطبيعي أن تتبوأ مصر المقام اللائق بها في مؤتمر القطن الدولي الذي عقد في القاهرة من ٢٥ يناير إلى ٧ فبراير سنة ١٩٢٧ . ولما انتهى المؤتمر قال المستر هولرويد رئيس لجنة القطن الدولية : « إن أعضاء هذا المؤتمر وهم يمثلون سبع عشرة دولة يقدرون كل تقدير الاهتمام العظيم الذي تتبع به جلالة الملك فؤاد من الساعة الأولى نظامنا وأعمالنا و في الحقيقة أن مصر لسعيدة بأن يكون على رأسها ملك يهتم بملء جوارحه ومن صميم قلبه بأعمال مؤتمر سيكون عظيم الفائدة لمنتجاتها الزراعية »

* * *

وفي سنة ١٩٢٨ عقد في القاهرة مؤتمر طبي دولي بمناسبة انقضاء مئة سنة على إنشاء أول مدرسة للطب في مصر في عهد ساكن الجنان محمد علي الكبير وتفضل جلالته فافتتحه رسمياً في دار الأوبرا الملكية يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨

ولهذا المؤتمر قصة قصها عليّ سعادة الدكتور علي إبراهيم باشا

فإنه لما عرض سعادته على الملك فؤاد فكرة عقد مؤتمر طبي في مصر في سنة ١٩٢٨ بمناسبة انقضاء مئة سنة على إنشاء مدرسة الطب المصرية قال له جلالته : إني أوافق ولكن بعد التحقق من شرط واحد وهو أن أقتنع أن مصر ستستطيع أن تشترك في أعمال المؤتمر بطائفة من البحوث تشرف نهضتها الطبية القديمة والحديثة فإن الأجانب يعلمون أن عندنا عدداً كبيراً من الأطباء فإذا لم يكن

في وسعنا — مع وجود هذا العدد الكبير — أن نقدم بحوثاً نفيسة فمن الأفضل أن لا ندعو إلى عقد مؤتمر طبي في بلادنا »

فأكد الدكتور علي باشا لجلالته أنه سيكون في طاقة مصر أن تشترك في أعمال المؤتمر اشتراكاً فعلياً كبيراً وأن البحوث التي ستشترك بها ستكون كلها من البحوث اللائقة بنهضتها الطبية و بسمعة أطبائها

فوافق جلالته عندئذ على فكرة عقد المؤتمر وألقى التبعة على عاتق الدكتور علي باشا فقبلها عن طيب خاطر

قال لي الدكتور علي باشا : « وكان جلالته يطلب مني الموضوعات التي أعدها الأطباء المصريون و يطلع عليها و يبحثها معي موضوعاً موضوعاً . فلما نجح المؤتمر ذلك النجاح العظيم كان اغتباطه به لا يوصف » . وكان كبير المندوبين الأميركيين في المؤتمر قد قال في حفلة افتتاحه : « إنه أول مؤتمر طبي من نوعه لوفرة الموضوعات التي ستطرح على بساط البحث فيه »

ومما هو جدير بالذكر هنا أن كبير المندوبين الفرنسيين أعلن في تلك المناسبة أنه يتشرف بأن يهدي إلى كلية الطب المصرية الرسالة الطبية التي قدمها كلوت بك إلى مدرسة « مونبلييه » لنيل شهادة الدكتوراه

* * *

ورأى الملك فؤاد استيفاء للغرض الذي من أجله أنشىء معهد الموسيقى الشرقي أن تدعو مصر إلى عقد مؤتمر دولي للموسيقى وتفضل جلالته بافتتاحه رسمياً بعدما شمله برعايته وخصه من وقته وجهوده بما كفل لأعماله النجاح

* * *

وقص عليَّ سعادة عبد الحميد سليمان باشا أنه لما كان مديراً عاماً لمصلحة سكة الحديد وتشرف بمقابلة الملك فؤاد في سنة ١٩٢٩ ليستأذن في السفر إلى

لندن لشهود مؤتمر سكة الحديد الدولي فيها طلب إليه جلالته « أن يجتهد في الحصول على قرار بعقد المؤتمر القادم في القاهرة » . فلما وصل سعادته إلى لندن تبين له أن اللجنة الدولية اتفقت قبلا على العاصمة التي يعقد فيها المؤتمر القادم في سنة ١٩٣٥ إذ أن المؤتمر كان يجتمع كل ست سنوات فاقترح عبد الحميد باشا أن أن يجتمع كل ثلاث سنوات وأن يكون اجتماعه القادم في سنة ١٩٣٢ في مدينة القاهرة و بهذه الكيفية تستطيع اللجنة الدولية أن تعقده في سنة ١٩٣٥ في العاصمة التي اتفقت عليها من قبل فصادف الاقتراح قبولا ولا سيما بعد ما عضده اللورد انشكيب ، وشهد المؤتمر الذي عقد في القاهرة ١٤٠٠ عضو فكان من أعظم المؤتمرات الدولية شأناً وكان متحف فؤاد لسكة الحديد قد تم تنظيمه فدعاهم جلالة الملك إلى زيارته ومشاهدة محتوياته

* * *

وفي فبراير سنة ١٩٣٣ افتتح الملك فؤاد مؤتمر السياحة الدولي رسمياً في دار الأوبرا الملكية وخطب بين يديه المسيو أدمون شيكس رئيس اللجنة الدائمة لمؤتمر السياحة فتكلم عن فوائد السياحة اقتصادياً واجتماعياً وقال إنها من أهم وسائل توثيق عرى الألفة والمودة بين الشعوب و إنه كان لمصر القديمة فضل السبق في تنشيط السفر والسياحة لما كانت منارة الأسكندرية ترسل أنوارها في البحر المتوسط لترشد السفن في أثناء سيرها . ثم قال : « ولذلك وجب علينا نحن أبناء الغرب أن نحج إلى مصر حاملين تحيات مدنيتنا العصرية بسفنها وقطراتها وطائراتها إلى البلاد التي كانت مهد المدنية » . وتكلم المسيو شيكس بعد ذلك عن اهتمام جلالة الملك بالسياحة وقال إنه ليس أدل على هذا الاهتمام من الكأس الثمينة التي أهداها جلالته إلى المؤتمر لتمنح جائزة لأحسن إعلان يعمل عن مصر وقد صنعت هذه الكأس وقاعدتها من الذهب الخالص

وكان الملك فؤاد إلى جنب اهتمامه بعقد المؤتمرات في داخل البلاد شديد الاهتمام بالمؤتمرات الكبيرة التي تعقد في خارجها و بموضوع تمثيل مصر فيها وكان يقابل المندو بين المصريين قبل سفرهم إليها و بعد عودتهم منها على نحو ما رأينا في غير موضع واحد في الصفحات السابقة

وفي أواخر سنة ١٩٢٩ اجتمعت لجنة القطن المصري الدولية في مدينة برشلونه وكان يرأس المندو بين المصريين إليها المغفور له أحمد عبد الوهاب باشا فلما عقدت اللجنة اجتماعها الأول كلفت رئيسها عبد الوهاب باشا ووكيلها المستر كترول أن يرسلا برقية إلى كبير الأمناء في مصر يرجوان فيها منه « أن يرفع إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول عظيم تقديرنا للاهتمام الشديد الذي يبديه جلالته بجميع المسائل المتعلقة بالقطن المصري وهي (أي اللجنة) مغتبطة بالنجاح الذي أحرزته حتى الآن برعاية جلالته مقتنعة بأنها تستطيع الاعتماد على تلك الرعاية السامية وعلى معونة حكومته في حسن قيامها بأعمالها »

وشاء جلالته إظهاراً لعطفه العظيم على أعمال اللجنة الدولية أن يكون الرد الذي أرسل إلى رئيس اللجنة ووكيلها بالصيغة التالية :

حضرة أحمد عبد الوهاب بك

جناب المستر و . و . كترول

رئيس ووكيل لجنة القطن المصري ببرشلونه

« تلقينا بسرور تلغرافكم الرقيق الذي أرسلتموه بالنيابة عن لجنة القطن المصري الدولية المنعقدة في برشلونه فأشكركم شكراً جزيلا وأهنئ اللجنة بالجهود التي تبذلها في سبيل انجاح الصناعة الوطنية و يسرني أن أؤكد لكم تمام استعدادي لمعاونتكم كما أني أتمنى للجنة التوفيق في ما أخذته على عاتقها مما أقدره كل تقدير »

فؤاد

النهضة الصحية
والمؤسسات الإنسانية

النهضة الصحية

لما ارتقى جلالة الملك فؤاد العرش في سنة ١٩١٧ كانت الجهة الحكومية التي تشرف على الصحة العامة تدعى مصلحة الصحة العمومية

وفي سنة ١٩١٩ أمر جلالته بتحويل مصلحة الصحة العمومية إلى وكالة وزارة للشؤون الصحية ملحقة بوزارة الداخلية

ولم يلبث جلالته أن أوعز بانشاء كادر لرجال الصحة و بإيفاد بعثات طبية إلى أوربا و باعادة النظر في النظم الصحية و بتأليف مجلس فني أعلى للصحة

وفي سنة ١٩١٧ كانت ميزانية مصلحة الصحة ٤٥٩٨٦٦ جنيهاً

وفي سنة ١٩٢٧ أصبحت ٩٧٣٣٧٣ جنيهاً

أي أنها تضاعفت في خلال عشر سنوات

وكأنما شعر الملك فؤاد في أوائل سنة ١٩٣٦ بأن أيامه أصبحت معدودة فأراد أن يكمل أساس البناء الذي تعهده نحو عشرين سنة فحول وكالة وزارة الصحة إلى وزارة

ومما قلناه في مقدمة هذا الكتاب أنه لن يكون كتاباً يضم بين جلدتيه خطباً رسمية وتقارير حكومية و إحصاءات أميرية ولذلك لن نتوسع في سرد البيانات والأرقام المستقاة من المراجع الرسمية ولكن قد يكون من المفيد أن نسجل هنا أنه في سنة ١٩١٧ لم يزد عدد العينات التي فحصتها معامل الصحة بكتريولوجياً وكيمائياً على ١٣٧٦٠ عينة فقفز هذا الرقم بعد عشر سنوات إلى ٤٠٤٥٧

وفي سنة ١٩١٧ وزعوا ١٥٥٨٦٧٧ حقنة للتطعيم بالمصل الواقي من جدري الماء

فلما حلت سنة ١٩٢٦ أي بعد عشر سنوات وزعوا ١٥١١٤١٠١ حقنة

ويؤخذ من الاحصاءات الخاصة بالبلهرسيا والانكلستوما أنه في سنة ١٩١٩ لم يزد عدد الذين عولجوا من هذين المرضين على ٣٧٤ فلما كانت سنة ١٩٢٦ بلغ عددهم ١٥٣١١٨

فإذا أضفنا هذه الأرقام وحدها إلى الزيادة التي زادتها أرقام ميزانية الصحة من سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ثم من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٦ أمكننا أن نقدر الخطوة الكبيرة التي خطتها البلاد في سبيل النهضة الصحية في عهد الملك فؤاد وقد نعجب متى علمنا أنه قبل أن يعقد المؤتمر الطبي الدولي في مصر في سنة ١٩٢٨ كانت مصر قد اشتركت بإيعاز من الملك فؤاد في ثلاثة عشر مؤتمراً دولياً للصحة والطب والصيدلة

* * *

وأتيح لي أن أشهد زيارة الملك فؤاد لمصحة فؤاد في ضاحية حلوان ليفتتحها رسمياً وكذلك زيارته لمستشفى الملك ليفتتح الجناح الجديد الذي أنشئ فيه وقد تجلى في هاتين الزيارتين تقدير جلالته للمؤسسات الصحية ولمهمتها الإنسانية وعطفه على القائمين بأمرها على منوال يغني عن كل إفاضة في البيان

ومن الذكريات الجديرة بالتسجيل هنا أنه لما وصل الملك فؤاد في طوافه بالمصحة إلى حجرة الأشعة قال له الدكتور برنان — كبير أطباء المصحة في ذلك الحين — إن التجارب التي جربها والإصابات التي عالجها دلت على أن جو حلوان من أكثر أجواء العالم ملاءمة لمعالجة التدرن الرئوي وأن المصحة الحالية قائمة في أفضل مكان يمكن اختياره لهذا الغرض

فابتسم جلالة الملك وقال بالفرنسية : « وقل إني لما طلبت شراء هذه الدار لتحويلها إلى مصحة عارضوني معارضة شديدة ولكني صممت على رأيي وألححت

في طلبي . . . وهكذا يجب على الإنسان أن يتذرع بصدق العزيمة في مثل هذه الظروف »

و بعد ما طاف جلالته بالقسم الخاص بمرضى الدرجة الثالثة وأعجب بنظافة غرفه ونظام حجره انتقل إلى قسمي الدرجتين الأولى والثانية فأعجب بما شاهده وأثنى على كل ما رآه فدعاه الدكتور برنان إلى مشاهدة القاعة الكبيرة التي خصصت لتسلية المرضى وقد صفت فيها صفوف الكراسي أمام لوحة السينما الفضية التي تنعكس عليها الصور المتحركة وقال الدكتور برنان : « إن المرضى يتسلون في هذه القاعة بالتفرج على الروايات السينمائية » فقال جلالة الملك : « و بماذا يتسلون ؟ » فقال الدكتور برنان : « بالروايات السينمائية » فقال جلالة الملك مستدركاً : « أعني أي نوع من الروايات تعرضون عليهم لتسليتهم ؟ » فقال الدكتور برنان : « إننا نختار لهم الروايات التي تمثل المخاطرات والمغامرات (افنتور) و إني أراقب كل شريط نعرضه هنا مراقبة دقيقة »

وفيما كان جلالته خارجاً من هذه القاعة الكبيرة أطل على فناء المصحة وكان المرضى يتطلعون من نوافذ غرفهم فلما أبصروه هتفوا بحياته ، فالتفت جلالته إلى الدكتور برنان وقال له : « قولوا لهم ألا يهتفوا لئلا تتعب رئاتهم » فاستعاض المرضى عن الهتاف بالتصفيق الشديد

وطلب الملك أن يزور مطابخ المصحة ولما وصل إليها سأل رئيس الطباخين عن أنواع الطعام التي يعدونها لمرضى كل درجة من درجات المصحة الثلاث ولما وقف على ما أراد معرفته من المعلومات التفت إلى الطهاة وقال لهم : « أريدكم أن تشتغلوا هنا بعناية لأنكم تخدمون الإنسانية »

و بلغ من شدة إعجاب الملك بنظافة المطبخ ونظامه أنه التقى وهو خارج من بابه بجناب المسيو نوس بك مدير شركة السكر وقتئذ فدعاه جلالته إلى زيارة المطبخ

والتفت جلالة الملك إلى الدكتور برنان في أثناء اتجاهه إلى فناء المصحة وقال له : « إني مغتبط جداً بما رأيت » فشكره الدكتور برنان على هذا العطف السامي وقال : « إننا لم ننجز العمل كله يا صاحب الجلالة بعد » فالتفت جلالته وراءه وقال لرفعة النحاس باشا — وكان يومئذ رئيساً لمجلس النواب — مخاطباً في شخصه مجلس النواب : « هاتوا الفلوس » ثم قال جلالتـه : « بالمثابرة والثبات نصل إلى كل شيء »

وبعد ما وقع جلالته باسمه الكريم في دفتر الزيارات دنت من جلالته كريمة الدكتور برنان — وهي في الثامنة من عمرها — وقدمت له طاقة جميلة من الورد وقالت : « إني أرجو من جلالتكم أن تتقبلوا هذه الطاقة التي ستعبر لكم عن شكر المرضى الذين هم مدينون بحياتهم لفكرة جلالتكم » فقال جلالته بصوت مرتفع : « ولعلم والدك » . فكانت هاتان الكلمتان « خير مكافأة لي على العمل الذي تسنى لي عمله » كما قال الدكتور برنان بعد ذلك

* * *

ولمـا زار الملك فؤاد مستشفى الملك كان كلما دخل عنبراً من العنابر التي وضعت فيها عدة سرر للمرضى يدنو من بعضهم ويسألهم عن مرضهم ومبلغ تقدم علاجهم وكان بين الذين شملهم جلالته بعطفه فى إحدى القـاعات فتى في العقد الأول من عمره فسأله : «أنت أحسن يا صغير ؟ » فأجاب الفتى وهو يؤدي التحية العسكرية : « أحسن شويه »

ودنا جلالته في قاعة أخرى من مريض ليسأله عن مرضه فأراد المريض أن ينهض قليلا في فراشه احتراماً وإجلالاً فمنعه قائلا : « خليك . خليك »

وأبصر جلالته بين المرضى في قاعة أخرى شيخاً طاعناً في السن فسار إليه ليحادثه فلما رأى المسكين مليك البلاد يدنو منه جلس في سريره وهو يبتسم فحياه

جلالته بيده الكريمة وهو يقول له : « يابو يه عندك إيه ؟ » فأخبره الشيخ بمرضه فسأله جلالته : « وهل أنت أحسن الآن ؟ » فأجاب الرجل وهو يحدق في جلالته « قوي » وابتسم فبانت أسنانه بين شفتيه اللتين غطاهما شارباه ولحيته الكثة

وكان بين المرضى في قاعة من قاعات الدرجة الثانيـــة رجل أسمر اللون شاء الدكتور محجوب ثابت أن يسميه نوبياً فما كاد يلمح جلالة الملك حتى رحب بجلالته بكلمة ارتجلها بالألفاظ العامية كقوله : «يا اللي ما فيش زيك لا من قبل ولا من بعد . . ربنا يحفظ لنا ملكنا الدستوري » فسر جلالته بألفاظه والتفت إلى رفعة النحاس باشا وقال له باسماً وهو يشير إلى النوبي الخطيب : «ده سياسي» ثم قال جلالته : « الظاهر أنه ليس هنا مرضى فقط بل سياسيون أيضاً » وانتهز جلالته فرصة وجود النحاس باشا بجانبه — وكان إذ ذاك رئيساً للوزارة — وقال له : «نحن نريد أن نستمر في هذه الأعمال باجتهاد ونشاط، أعمال الإنسانية والتدريس والتعليم » . ولمح جلالته في إحدى القاعات الأخيرة التي طاف فيها رجلا متقدماً في السن لا يقوى على الحركة فانحنى جلالته فوق رأسه بنفسه كي لا يكلفه مؤونة رفع صوته

و بعد ما انتهى جلالة الملك من الطواف بقسم الرجال عرج على القسم الخاص بالنساء ولما وصل إلى قاعة الأمهات اللاتي وضعن حديثاً ألفى في مقدمة سرير كل منهن سريراً صغيراً لتضع فيه طفلها فسر جلالته جداً بهذا المنظر ودعا لأولئك الأمهات الفقيرات بالسعادة والتوفيق فارتفعت أصواتهن بالابتهال إلى الله أن يحفظ جلالته وولي عهده

ثم طاف جلالته بالقسم الخاص بالأولاد فعطف عليهم عطفاً أبوياً كان له أجمل وقع في النفوس

المؤسسات الانسانية

ليس في مصر من يجهل قيمة الخدمة الإنسانية العظيمة التي تسديها جمعية الإسعاف العمومية إلى الهيئة الإجتماعية

ولولا الملك فؤاد لما قامت لهذه الجمعية قائمة بل لما عاشت إلى هذا اليوم

فقد أنشئت في ١٣ مايو سنة ١٩٠٧ والآمال المعقودة على نجاحها كثيرة ولكن لم ينقض على إنشائها فترة قصيرة من الزمان حتى دب الخلاف بين المشرفين على إدارتها وهدد كيانها بالزوال فلجأوا إلى الأمير أحمد فؤاد لينقذها كما لجأوا إليه قبلا لينقذ الجامعة . وكان طيب الله ثراه يعطف بفطرته على مشروعات الإصلاح الإنسانية والاجتماعية ويقدر بثاقب فكره الفائدة العظيمة التي تستطيع البلاد أن تجنيها منها فقبل رئاستها ومن ذلك اليوم كتب لها البقاء وبلغت ما بلغته من أطراد التقدم والنجاح

ويؤخذ من سجلات الجمعية أن عدد الحوادث التي أسعفتها في سنة ١٩٠٨ — وهي السنة التي أنشئت فيها — لم يزد على ١٦٣٨ فلم تأت سنة ١٩١٠ وهي السنة التي قبل فيها الأمير أحمد فؤاد رئاستها حتى قفز الرقم إلى ٤٦٨٠ . وفي سنة ١٩١٣ زاد إلى ١٢٢٦٩ . وفي سنة ١٩٢١ كان ١٨٥٠٠

وفي سنة ١٩٣٦ — وهي سنة وفاة الملك فؤاد — أسعفت جمعية الإسعاف ٦٥٩٥٢ في القاهرة و ٤٣٧١ فى مصر الجديدة و بلغ عدد متطوعي الجمعية في تلك السنة ٢٥٠

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه في سنة ١٩١٣ اضطر الأمير احمد فؤاد إلى التخلي عن رئاسة جمعية الإسعاف لأنه كان مسافراً إلى أوربا في رحلة طويلة فاجتمع مجلس إدارة الجمعية وكتب إلى سموه يقول « لقد علمنا مع الأسف الشديد القرار الذي قررتموه فاننا لا نجهل أن مؤسستنا مدينة بازدهارها العظيم لنشاط سموكم الدائم » . ورجا مجلس الإدارة من سموه فى ختام كتابه إليه أن يتفضل بقبول رئاسة الجمعية الفخرية

غير أن سموه لم يلبث أن عاد إلى مصر فرجع إلى رئاسة الجمعية في أواخر سنة ١٩١٤

وما كاد بعد ذلك يعتلي العرش حتى ضاعف رعايته للجمعية فكان أول ما عمله أن وجه عنايته إلى توحيد جهود جمعيات الإسعاف التي كانت قائمة في ذلك الحين وهي جمعيات القاهرة والإسكندرية وطنطا والمنصورة فاندمجت كلها في الاتحاد الملكي لجمعيات الإسعاف العمومية المختلطة في مصر وكان ذلك في سنة ١٩٢٤ ثم انضم إليها ما جد من جمعيات مماثلة لها في سائر مدن المملكة كجمعيات بورسعيد ودمنهور وأسيوط والفيوم وغيرها

* * *

وروى لنا سعادة محمود فهمى القيسي باشا أنه مابرح يذكر أنه لما كان المديرون يتشرفون بمقابلة الملك فؤاد في حفلات التشريفات كان جلالته يوجه نظر كل مدير بدوره إلى ضرورة بذل مجهود خاص في سبيل تعميم جمعيات الإسعاف في الأقاليم فتشمل المراكز كما شملت عواصم المحافظات والمديريات . قال القيسي باشا « وبهذه الرعاية استطاعت مصر أن تشترك اشتراكاً مشرفاً في مؤتمر بروكسل الدولي لاتحادات الإسعاف وجمعياته في العالم كله فمنحت مدالية المؤتمر الذهبية »

* * *

وفي ٢٤ يناير سنة ١٩٢٧ افتتح الملك فؤاد عيادة الجراحة الجديدة لجمعية الإسعاف في القاهرة وخطب يومئذ بين يديه المرحوم المسيو هنري نوس بك رئيس الاتحاد فقال « إن افتتاح هذه العيادة اليوم لمرحلة جديدة في حياة جمعية الإسعاف — هذه المؤسسة التي انقذتموها جلالتكم فكفلتم النجاح للخدمة الإنسانية التي تسديها إلى البلاد »

وقال المغفور له الدكتور محمد شاهين باشا في خطبته أنه لولا منح الملك فؤاد المادية لجمعية الإسعاف « لغدت نسياً منسياً »

و بعد ما ألقى نوس بك والدكتور شاهين باشا كلمتيهما مرت وحدات متطوعي القاهرة والأقاليم أمام جلالته بشكل عرض عام فكان يحيي علم كل وحدة منها ثم نهض جلالته بعد ذلك وخرج إلى شرفة تطل على خط سكة الحديد وشاهد تمثيل إنقاذ ركاب قطار و إسعافهم ، فانه عندما ظهر جلالته على الشرفة أقبل قطار يتألف من قاطرة ومركبات لركاب الدرجة الثالثة ازدحمت بجمهور من الأهلين القرويين وهم يبكون و يولولون فبادر رجال الإسعاف إلى إسعافهم فضمدوا جروح المجروحين ونقلوا المصابين على نقالات إلى السيارات الكبيرة إلى غير ذلك من عمليات الإسعاف فبرهنوا على مقدرة و براعة وسرعة فى العمل عظيمة ، فصفق لهم جلالته طويلا وشاطره الحاضرون هذا التصفيق

وتوجه جلالته من هناك إلى مستوصف الجمعية فتفقد حجرها وعنابرها وكان ركاب القطار الذين مثلوا دور المصابين قد نقلوا إليها فهتفوا لجلالته

و بعدما زار جلالته قاعة مجلس الإدارة وشرف دفتر الزيارة بامضائه الكريم أعرب لرجال الجمعية عن ارتياحه السامي إلى كل ما شاهده وعن أمله بأن تمضي الجمعية باطراد في عملها الإنساني العظيم ، ثم انصرف مشيعاً بمثل ما قو بل به من التجلة والاحترام

وقبل أن نختم هذه الفذلكة عن اهتمام الملك فؤاد بجمعيات الإسعاف نورد ما ذكره مرة أحد كبار رجال القصر وهو أنه في سنة ١٩٣٠ دعاه جلالته وأمره بزيارة المسيو كاسترو السكرتير العام لاتحاد الإسعاف وإبلاغه أن جلالته يريد منه أن يعد خارطة للملكة المصرية يبين فيها الجهات التي أنشئت فيها مراكز للاسعاف والجهات التي لا تزال محرومة منها مع الإشارة إلى الجهات التي يرى تعميم مراكز الإسعاف فيها قبل غيرها . قال الموظف الكبير : « وكان جلالته يومئذ منحرف الصحة ومشغولا بتتبع سير المفاوضات في لندن »

* * *

وأنشئت جمعية الهلال الأحمر في سنة ١٩١٢ لمساعدة منكوبي طرابلس الغرب ولكن لم تأت سنة ١٩١٦ حتى شعر الذين يقدرون خدمات هذه الجمعية حق قدرها أنها بحاجة إلى يد تنتشلها من وهدتها فرضى الأمير أحمد فؤاد أن يمد لها هذه اليد وما كاد يتولى رئاستها حتى أصبح لها مستشفى يحتوي على ثلاث مئة سرير عولج فيه مئات الجرحى والمرضى المسلمين القادمين من ميادين القتال وكان جلهم من الترك والسوريين ولم تكتف الجمعية بمعالجتهم بل كانت توزع عليهم الملابس والنقود ولا يزال الذين عاصروا تلك الأيام يذكرون أن الأمير أحمد فؤاد كان يشرف على كل شيء بنفسه ولا يغفل أمراً من الأمور مهما بدا تافهاً في نظر رجال الجمعية

ولم تنزل ببلد إسلامي نكبة من النكبات حتى كانت جمعية الهلال الأحمر تجد في سمو رئيسها أول حافز لها على إرسال الملابس والأدوية والنقود إلى المحتاجين من المنكوبين وقد حسبوا أن الجمعية أرسلت أكثر من ٢٥٠٠٠ جنيه إلى منكوبي الأناضول في أثناء انهماك الغازي كمال أتاتورك بتحرير بلاده

وفي سنة ١٩٢٦ ابتليت بلاد البلجيك بكارثة الفيضان وأمسى ألوف من سكانها بلا مأوى ولا معين فلم يكن من جمعية الهلال الأحمر المصرية إلا أن أرسلت هبة مالية كبيرة إلى الصليب الأحمر البلجيكي إظهاراً لعطفها على البلجيك في محنتها وكان ذلك بإيعاز من الملك فؤاد . ويؤثر عنه أنه قال يومئذ « إذا كان العلم لا وطن له فالإنسانية كذلك لا وطن لها »

النهضة العمرانية والاجتماعية

النهضة العمرانية والاجتماعية

« إن مصر لم تكن في مستوى مطامعه »

عبارة سمعتها من سعادة علي الشمسي باشا لما ذهبت إليه أسأله عن بعض ذكرياته عن « الملك فؤاد البناء » فبعد ما أفضى إليَّ بما وعته ذاكرته في هذا الصدد سكت لحظة ثم قال :

« إن مصر لم تكن فى مستوى مطامعه »

وإذا كنت اخترت هذه العبارة لأصدر بها هذا الفصل فلأنها في اعتقادي خير ما ينطبق على عهد الملك فؤاد والنهضة التي كان يتوق إلى تحقيقها وعلى ما تيسر له تحقيقه منها في نحو تسع عشرة سنة بالرغم من الأحداث السياسية التي مرت بالبلاد ولم يكن عددها قليلا

* * *

ولا نعود في هذا المقام إلى تكرار ما أشرنا إليه في المقدمة وهو أن تفكير الملك فؤاد كان كالمنارة تحيط بكل ما حولها وتضيء ما حولها وترشد ما حولها كذلك كان جلالته في تفكيره متيقظاً لكل شئ محيطاً بحاجات المملكة ملماً بجميع نواحي مرافقها وعمرانها عارفاً بما ينفعها ناظراً إلى غدها حاسباً حساب مستقبلها ومقتضياته باحثاً فيما يفيدها موحياً بما يعمل موعزاً بما يجب الاستعداد له مراقباً وساهراً وملحاً في حرصه على اغتنام دقائق الوقت . « كان وراءنا كالفرقلة »

كما قال لي معالي عبد الحميد سليمان باشا وهي عبارة مع بساطتها وإيجازها تصف الحقيقة أصدق وصف

✲ ✲ ✲

ومن بعض الأمثلة والحوادث التي سردها لنا عبد الحميد باشا بهذه المناسبة ندرك ما ألمعنا إليه فى الفقرة المتقدمة

قال سعادته : كنت وزيراً للأشغال لما ذهب الملك فؤاد إلى مسجد سيدنا الحسين ليصلي الجمعة فيه وقد اجتاز موكبه في ذلك اليوم شارع الموسكي فلما انتهت الصلاة قال لي وللوزراء الذين كانوا على مقربة منه « هل يليق أن يكون شارع الموسكي ضيقاً بهذا الشكل وأن لا نفكر في عمل شيء لتخفيف شدة الزحام فيه إراحة للناس ؟ » فسكتنا جميعاً وقلنا في نفوسنا إنها ملاحظة وجيهة وفي محلها . وكانت هذه الملاحظة بداية العمل في مشروع إنشاء شارعي الأمير فاروق والأزهر على جانبي شارع الموسكي القديم

وهنا قال عبد الحميد باشا : ويذكرني هذا الحادث بحادث آخر . . . فقد كنت متشرفاً يوماً بمقابلة الملك فؤاد فما كدت أمثل بين يديه حتى قال لي بعد السلام « أنا مكسوف يا عبد الحميد باشا . . . فقد كان عندي الآن زائر أجنبي كبير فقال لي إنه ذاهب من هنا إلى دار الكتب لزيارتها فتذكرت أنه سيمر في طريقه إليها بشارع (غيط العدة) فتكدرت لأنك تعرف حالة هذا الشارع » . ولم يقل جلالته أكثر من ذلك ولكن لما اجتمع مجلس الوزراء بعد خمسة عشر يوماً برئاسة جلالته عرضت عليه رسوم شارع فقال لي « ما هذا » فقلت « رسوم الشارع الجديد الذي سيحل محل شارع غيط العدة يامولانا » . وفعلا لم يلبث أن حل شارع جديد محل شارع غيط العدة القديم

ومضى عبد الحميد باشا في الحديث فقال : « كان لا يفكر إلا في مصر ولم

يكن له سوى هم واحد وهو كيف يمكنه أن يخدم نهضتها . . . كان جلالته في باريس في خلال زيارته الرسمية لأوربا وكنت أقضي يومئذ جانباً من أجازتي في فرنسا فذهبت إلى باريس لأتشرف بالسلام عليه وفي ذات يوم جاءني بعد الظهر من يبلغني أن الملك يرغب في مقابلتي فاستغربت ذلك لأني كنت قد تشرفت بمقابلته قبل الظهر فلما رآني قال لي : « زارني الآن اللورد درزل رئيس مجلس ادارة شركة مركبات النوم الدولية فدار الحديث على شؤون شتى إلى أن تناول سكة الحديد في مصر فقلت له إن مركبات الأكل التي تسير على خطوط سكة الحديد المصرية غير مناسبة وليست نظيفة فاهتم بالأمر فقلت له إن مدير سكة الحديد المصرية موجود في باريس وسأرسله إليك . . . فالحق يا عبدالحميد باشا اتعرف به واطلب منه أن يحسن الحالة . » . . . وفعلا قصدت إلى اللورد درزل وحادثته في الموضوع بالتفصيل فألفيته شديد الإهتمام بتحقيق رغبة الملك وكان من نتيجة هذا السعي أن أدخلت مركبات « البولمان » على قطرات سكة الحديد عندنا

« وقال لي جلالته مرة أخرى وهو في باريس كذلك أن المسافر الذي يصل إلى القاهرة لا يجد أمامه سوى فنادق من الدرجة الأولى فإذا أراد أن ينزل في فندق عادي لا يعرف أين يذهب في حين أنك هنا في أوربا تجد بالقرب من كل محطة من محطات سكة الحديد الكبيرة فندقا للمسافرين العاديين يسمونه « أوتيل ترمينوس » فأريد منك أن تبحث مشروع إنشاء فندق من هذا النوع في البقعة التي تؤلف ذلك المثلث عند ميدان محطة القاهرة بين شارع الملكة نازلي من جهة وشارع نوبار (ابراهيم باشا) من جهة أخرى . فقلت « بمجرد أن أعود إلى مصر سأنفذ أمر مولانا » فقال على الفور « لا . ولماذا هذا التأخير ؟ . . . أرسل إليهم تلغرافاً بأن يوافوك برسوم تلك البقعة فوراً وإبدأ بحثك هنا »

وعقب عبد الحميد باشا على ذلك بقوله « وكم من مرة عزت إلينا الصحافة إصلاحات وأعمالا كثيرة مع أن الملك فؤاداً كان صاحب الفضل الأول في التفكير فيها والدعوة إليها ولكنه كان يأبى أن نعزو إليه فضلا ما ويقول إنه لا يفعل أكثر من ضم جهوده إلى جهود رعيته . فمن ذلك أن مشروع توسيع خط سكة حديد الأقصر — أسوان منسوب إليّ مع أن الملك هو الذي فكر فيه . ونسب إليّ كذلك مشروع مد سكة الحديد من الإسكندرية إلى مرسى مطروح مع أن المشروع مشروعه وظهرت فوائده في هذه الحرب . وهو الذي فكر في تثنية الخط حتى أسيوط فعزوا الفكرة إليّ . وأرسل إليّ جلالته مرة رسولا قال لي إن الملك يود أن يرى خط سكة حديد بين القاهرة والسويس . وإني أعترف لك بصراحة تامة بأني لم أقدر قيمة هذا المشروع الحقيقية إلا لما نفذنا المشروع . وهو الذي أوحى إليّ بمد خط سكة حديد من قنا إلى القصير وفعلا أنشأنا جزءاً من هذا الخط ولو أنشأناه كله يومئذ لأفاد فائدة عظيمة في هذه الأيام ولو بتخفيف الزحام عن ميناء السويس »

* * *

قال عبد الحميد باشا : ولم يكن تفكير الملك فؤاد يقف عند حد معين أو عند نوع معين من أنواع الإصلاح بل كان يفكر في الإصلاح تفكيراً عاماً بقطع النظر عن نوعه أو شأنه . قال لي يوماً « إن لون مركبات سكة الحديد عندنا لم يعد جميلا » فقلت لجلالته « ولاسيما أننا في بلاد حارة فما هو اللون الذي يظن مولانا أنه أنسب من سواه » فقال : « المسألة تحتاج إلى تجربة ... فما عليكم إلا أن أن تدهنوا أربع مركبات أو خمساً بأربعة ألوان مختلفة أو خمسة ثم نقرر أيها أفضل ... ولكن كيف يمكنني أن أراها ... » وبعد ما سكت جلالته لحظة قال : « وجدت الحل .... إن الملك أمان الله يصل إلى القاهرة بعد أيام وسأستقبله

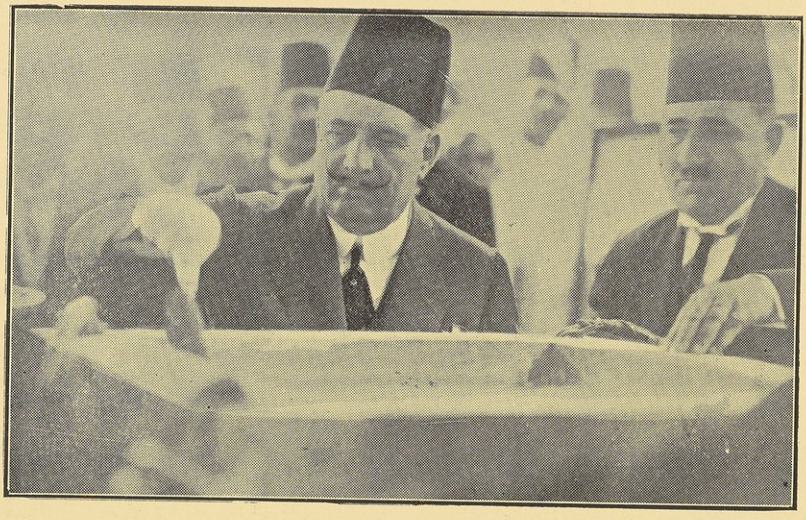

جلالة الملك فؤاد يضع حجر الأساس فى بيوت العمال

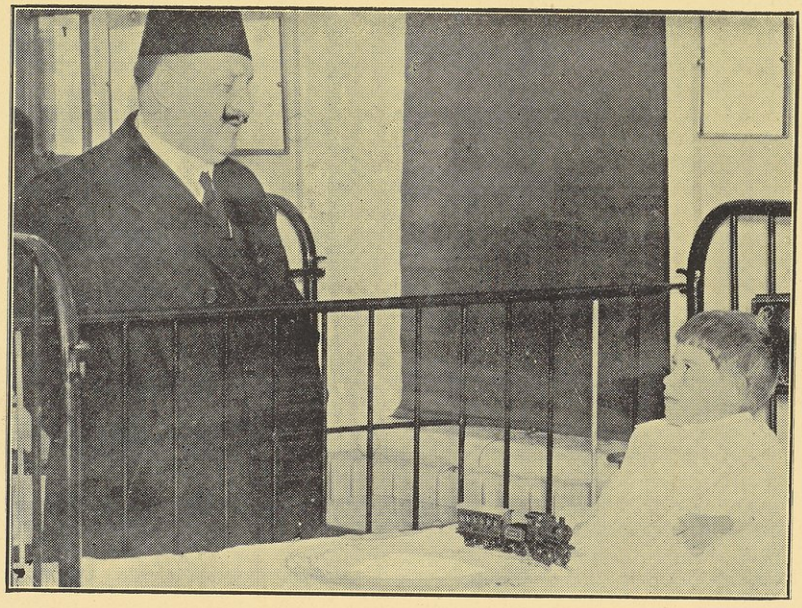

جلالة الملك فؤاد فى إحدى زياراته للمستشفيات

في المحطة فتكون الفرصة مناسبة لأشاهد تلك المركبات فاجعلوها في مكان قريب من الرصيف الذي سأقف عليه فيتيسر لي أن أشاهدها فأعطيك رأيي » ولما وصل جلالته إلى الرصيف المعد للاستقبال أرسل نظرة إلى المركبات التي كنا قد طليناها بألوان مختلفة على سبيل التجربة ثم قال لي : « أظن أن اللون الأبيض أجملها فأطلوها كلها به على أن تخبرني بعد ستة أشهر إن شاء الله أن جميع مركبات سكة الحديد عندنا أصبح لونها أبيض » . فقلت « إن ستة أشهر قليلة يا مولانا » فقال « بلاش تسويف » فقلت « لا تسويف مطلقاً يا مولانا ولكن ستة أشهر قليلة على كل حال » . وبعد إلحاح رضي جلالته أن يمهلنا سنة

واستطرد عبد الحميد باشا من ذلك إلى القول : والملك فؤاد هو صاحب فكرة زيادة سرعة القطرات وهو الذي قصر ساعات السفر بين القاهرة والإسكندرية بعد ما كانت خمساً

* * *

وكرر عبد الحميد باشا غير مرة في سياق كلامه ان جميع الاعتبارات كانت تخطر الملك فؤاد عند بحث مشروع من المشروعات فلا يغرب عن باله شيء منها . قال « لما تقرر إنشاء كوبري اسماعيل الجديد بدلا من كوبري قصر النيل القديم اقترح بعضهم تغيير مكان الكوبري الجديد فيقام بعد ثكن قصر النيل ودار المتحف ، فلما كوشف جلالته بهذه الفكرة قال إن تنفيذها يفضي إلى ارتفاع أسعار الأراضي التي ستكون على مقربة من مكان الكوبري الجديد وخفض أسعار الأراضي المجاورة لمكان الكوبرى القديم وهذا حرام إذ ما ذنب أصحاب هذه الأراضي والمباني التي تقوم عليها . وأصر جلالته على أن ينصب الكوبري الجديد مكان الكوبري القديم

* * *

وجاء ذكر خزان جبل أوليا فقال عبد الحميد باشا انه لما اقتنع الملك فؤاد

بفائدته لمصر وجه همه إلى تنفيذه حتى أنه منع المغفور له اسماعيل سري باشا من السفر إلى أوربا لكي يتولى الدفاع عن مشروعه في مجلس الشيوخ

وهنا ابتسم عبد الحميد باشا وقال : « وكان المغفور له حسن صبري باشا أول المعارضين يومئذ لهذا المشروع في المجلس والآن يمكنني أن أذيع سراً ظل مكتوماً حتى اليوم وهو أن الملك فؤاداً هو الذي أوعز باختياري مقرراً للجنة المشروع لما كان يعرفه من شدة تحمسي له »

✲✲✲

وسمعت من أحد وزراء الأشغال السابقين وهو سعادة عبد القوي احمد باشا مايصح أن يكون تكملة لما سمعناه من عبد الحميد سليمان باشا عن اهتمام الملك فؤاد بمشروع خزان جبل أوليا لما اقتنع بفائدته لمصر

فانه لما اشتدت حملة المعارضين للمشروع ترددت الوزارة في المضي فيه فقال لها الانجليز إنه إذا كانت ترى أنه سينشىء لها متاعب فانهم لايلحون عليها في تنفيذه فبينما كان عبد القوي باشا متشرفاً مرة بمقابلة الملك فؤاد عرض على مسامعه ما دار بين بعض رجال الوزارة و « دار المندوب السامي » (في ذلك الحين) فما كان من جلالته إلا أن قال على الفور : « إني أريد تنفيذ هذا المشروع لمصلحة مصر والمصريين لا لمصلحة الانجليز فاذا كانوا هم يرضون بتأجيله فيجب علينا نحن أن لا نرضى بذلك ... إن كل مشروع يزيد لنا الماء و يزيد انتاجنا الزراعي يكون خيراً على مصر و بركة فكيف نمنع الخير عنها . . . اذهب إلى فلان وقل له ان الملك يريد أن يستمر الاستعداد للمشروع بهمة عظيمة لتجني البلاد ثمرته في أقرب وقت »

✲✲✲

وقص علينا عبد القوي أحمد باشا أنه تشرف بمقابلة الملك فؤاد في سنة ١٩٢٨

(وكان سعادته قد عين يومئذ مهندساً مقيماً في تعلية خزان أسوان الثانية ولكن لما كان العمل فيها لم يبتدئ بعد كان يقوم بأعمال مدير مكتب وزير الأشغال) فسأله جلالته عن سير العمل في وزارة الأشغال

قال عبد القوي باشا : فأخبرت جلالته بأننا فرغنا من وضع برنامج عملي لمصلحة الري لمدة عشر سنوات وأن نفقات هذا البرنامج تقدر بأربعة وعشرين مليون جنيه فما كاد جلالته يسمع ذلك حتى تهلل وجهه فرحاً وطلب إليَّ أن أحدثه عن تفصيل المشروعات الكبيرة التي انطوى عليها البرنامج فبسطتها لجلالته ولما انتهيت من ذلك رجوت أن يعتمدها مجلس الوزراء قريباً لكي تتمكن مصلحة الري من الشروع حالاً في تنفيذ هذا البرنامج الضخم فقال لي جلالته : « أخرج من هنا وقابل رئيس الوزراء وقل له إنني أرجو تقديم مذكرة هذا البرنامج في أول جلسة يعقدها مجلس الوزراء وبلغ وزير الأشغال إني مسرور من مصلحة الري والصرف ولكني غير مسرور من مصلحة كذا وقل له إن هذه المصلحة الثانية في حاجة إلى روح جديدة ورجال جدد يسايرون الزمان الذي نعيش فيه »

* * *

وقبل أن ننتقل إلى طائفة أخرى من الذكريات عن الاهتمام الذي كان الملك فؤاد يبديه بالمشروعات العمرانية والإنشائية يجدر بنا التنويه بأن اهتمامه بهذه المشروعات كان كاهتمامه بالمنشآت والمؤسسات العلمية أي كان اهتماماً نظرياً وعملياً في وقت واحد فمن ذلك حرصه على أن يضع بنفسه الحجر الأساسي في قناطر نجع حمادي الجديدة (سنة ١٩٢٨) ليشاهد عن كثب ما يستوي به معلوماته عن المشروع فلما نفذ المشروع وتم بناء القناطر الجديدة تفضل جلالته فترأس الاحتفال بافتتاحها رسمياً بحضور رجال الدولة وممثلي الدول الأجنبية

وجمهور من العظماء وكبار أصحاب المال والأعمال وشاهدنا يومئذ ما شاهده جميع الذين دعوا إلى هذا الاحتفال وهو الاغتباط العظيم الذي كان متجلياً على وجهه والذي نمت عنه أحاديثه في ذلك اليوم فقد حمد الله غير مرة على إتمام المشروع وقال إن تنفيذه جاء دليلاً على مبلغ التقدم في مصر فإن الخزينة سددت نفقاته من غير صعوبة وقد بلغت مليوني جنيه وأشرف على سيره مهندسون مصريون فتم على الوجه المطلوب كأنه من أعمال المقاولات العادية

وسمعنا جلالته يحدث بعض ممثلي الدول عن فائدة هذه القناطر الجديدة فيقول إنه يرفع منسوب ماء النيل وراءها إلى حيث يمكن إطلاقه لضمان سقي الحياض في تلك الجهات وهي التي اعتادت أن تبيت شراقي كلما جاء فيضان النيل واطئاً كما حدث في هذا العام (سنة ١٩٣٠) فاستعين بهذه القناطر الجديدة ورفع المنسوب وسقيت تلك الحياض المترامية الأطراف وسددت القناطر في أول عام من أعوام وجودها جانباً يذكر من نفقات بنائها . هذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن بهذه القناطر إرواء نحو نصف مليون فدان في مديريتي جرجا وأسيوط قبلي الترعة الابراهيمية رياً صيفياً بعد إتمام تعلية خزان اسوان الثانية إذا استقر القرار على تخصيص ما يزيد من الماء المخزون كله أو جله لهذه الغاية

***

وكان الذين يسمعون جلالته وهو يبسط تفاصيل هذه المشروعات والأعمال الكبيرة يدهشون لما يعرفه عنها ويسألون كيف تسنى له الإحاطة بكل ما تستوعبه ذاكرته عنها . قال لنا دولة صدقي باشا : إني لم أعرف رجلا يقرأ مقدار ما كان الملك فؤاد يقرأه فقد كان دائم الاطلاع على كل ما يعتقد أن في اطلاعه عليه مصلحة لمصر ولا أغالي إذا قلت انه كان أكثر إحاطة بالمسائل التي تعرض على مجلس الوزراء من الوزراء أنفسهم وذلك لأنه كان يقرأ كل شيء

وقال لنا معالي عثمان محرم باشا : إنه في كل مرة عرض على الملك فؤاد مشروعاً من مشروعات الري والصرف الكبيرة كان جلالته يبهره بالسرعة العظيمة التي يستوعب بها تفاصيله الفنية « فكنت أجد لذة عظيمة في بسط مشروعاتنا لجلالته إذ كان يخيل إليّ دائماً أنني أحدث رجلا من رجال الهندسة والري مثلي »

* * *

ومن المشروعات العمرانية الكبيرة التي حرص الملك فؤاد على وضع حجر الأساس فيها بيده الكريمة التعلية الثانية لخزان أسوان ، وكوبري اسماعيل ولما تم بناؤه تفضل جلالته بافتتاحه رسمياً . وكوبري بنها الجديد افتتحه جلالته رسمياً كذلك كما افتتح محطة الرفع الجديدة التي بنتها مصلحة المجاري في ضاحية الأميرية فدل بذلك على حرصه الشديد « على أن يضيف إلى تراث القاهرة التاريخي مظهراً يتناسب مع أحوال العصر ويتكافأ مع ما تطمح إليه مصر بحق في ظل عهده السعيد من المجد والسمو » كما قال وزير الأشغال في الخطبة التي خطبها يومئذ بين يديه

* * *

وكان جلالته شديد الاهتمام بتوسيع ميناء الإسكندرية و إصلاحه وأصغت الحكومة إلى نصيحته فدعت ثلاثة خبراء أجانب (أحدهم انجليزي والثاني فرنسي والثالث إيطالي) ليضعوا لها مشروعاً بما يقترحون عليها عمله

وازداد اهتمام جلالته بهذا الموضوع بعد إنشاء ميناء حيفا الجديد لأنه رأى بثاقب نظره أن حيفا ستنافس الإسكندرية منافسة شديدة وأنها قد تغدو مع الوقت أول ميناء في هذا الجانب من البحر المتوسط إذا لم يبادر المصريون إلى توسيع ميناء الإسكندرية و إصلاحه بما يحله المحل اللائق به و بمقام مصر ولا سيما أن نمو الحركة في الميناء نفسه واتساع دائرتها أصبحا يقتضيان هذا الإصلاح

وقال لنا سعادة محمود شاكر باشا المدير العام لمصلحة السكة الحديد أنه لما كان وكيلاً لوزارة المواصلات حادثه الملك فؤاد غير مرة بإسهاب تام عما يريده لميناء الاسكندرية ، وفي مقدمة ما كان يريده له علاوة على توسيعه إنشاء رصيف خاص لتفريغ الفحم وتخصيص رصيف منعزل للبترول وإيجاد رصيف آخر للخشب وغيره للنترات . . .

قال شاكر باشا : وتبادر إلى ذهن جلالته في وقت ما أنني أعرقل المشروع الذي وضعه الخبراء الثلاثة فأعددت مذكرة بملاحظاتي وانتقاداتي وأعطيتها لرئيس الوزراء (وكان دولة صدقي باشا) فرفعها إلى جلالته فقرأها بعناية وأنصفني وطلب مني أن أناقش الخبراء الثلاثة فيها

* * *

وشاء القدر أن يرحل الملك فؤاد عن هذه الدنيا قبل أن تكتحل عيناه برؤية بداية العمل في توسيع ميناء الإسكندرية وإصلاحه ولكن مما لا ريب فيه أنه بذل في كل وقت أقصى ما يمكنه بذله ليحث على الانتقال إلى مرحلة التنفيذ

* * *

ويقول شاكر باشا إن جلالته كان شديد الاهتمام بميناء دمياط وميناء القصير كذلك وإنه كان فيما يتعلق بالقصير يقول إنه لا يجوز لمصر أن تعتمد على ميناء السويس وحده في البحر الأحمر

وبهذه المناسبة ذكر لي سعادة علي الشمسي باشا أنه في إحدى مقابلاته للملك فؤاد حدثه جلالته عن اهتمامه العظيم بإصلاح ميناء الإسكندرية ثم انتقل إلى الكلام عن ضرورة إنشاء خط سكة حديد الأقصر — القصير وتوسيع ميناء القصير وهنا قال جلالته : « إحنا عارفين راح يحصل للبحر المتوسط إيه »

قال الشمسي باشا : « كأنما كان جلالته يتنبأ بما سيحدث في سنة ١٩٣٩ أو ١٩٤٠ »

* * *

ومما رواه لنا شاكر باشا أنه لما عين في سنة ١٩٣٣ مديراً عاماً لسكة الحديد وتشرف بمقابلة الملك فؤاد قال له جلالته : « ارجع إليّ بعد ثلاثة أشهر واخبرني عما تنوي عمله »

وفي إحدى المرات التي تشرف فيها سعادته بالمقابلة بعد ذلك دار الحديث على الطريقة التي تتبعها مصلحة سكة الحديد عندنا في تنظيف المركبات فقال جلالته إنها طريقة قديمة ولا تفي بالغرض منها على الوجه الأكمل ولاسيما أننا في بلاد حارة وأنه (أي جلالته) قرأ في إحدى المجلات الأوربية عن طريقة ابتدعوها في ألمانيا لتطهير مركبات سكة الحديد تطهيراً يكفل إزالة الجراثيم التي قد تكون عالقة بها فأرسل إلى نشأت باشا (وكان وزيراً مفوضاً لمصر في برلين) أن يوافيه بتفاصيل الجهاز الذي أعدوه لهذا الغرض فجاءته هذه التفاصيل مع الرسوم اللازمة

قال شاكر باشا : « وهنا نشر الملك فؤاد أمامه رسوم ذلك الجهاز وأخذ يشرح لي كيفية استعماله وتفاصيل أجزائه جزءاً جزءاً كأنه من الفنيين المتخصصين في شئون سكة الحديد . ولما انتهت المقابلة وانصرفت من الحضرة الملكية ظهر لي أن الحديث استغرق ساعة ونصف ساعة »

* * *

ولا يزال شاكر باشا يذكر أنه في رحلات الملك فؤاد وجه جلالته نظره إلى ضرورة تجميل المحطات بالحدائق تحسيناً لمنظرها وأن جلالته هو الذي أشار بإنشاء محطة طنطا الجديدة وإنه كثيراً ما قال له انه يريد أن يكون « لسيدي جابر » محطة تليق بهذه الضاحية الشهيرة

وعلى ذكر عناية الملك فؤاد بمدن المملكة نقول إن من ينعم النظر في تفكير جلالته من هذه الناحية يرى أنه كان يدبر مشروعات إصلاح المدن وتجميلها بنظام دقيق فبعدما رسم للقاهرة من الشوارع والميادين ما يستغرق فيها من قوى تنظيمه بضعة أعوام وجه عنايته إلى العاصمة الثانية فبعد ما أوشك شارع « الكورنيش » (طريق فاروق الأول) أن ينتهي فيها أعرب جلالته عن رغبته السامية في إصلاح ما برح محبو تلك المدينة الشهيرة يتمنون إتمامه لسببين كبيرين أحدهما الحرص على رفاهية سكانها وزائريها وتسهيل المواصلات التجارية والاجتماعية فيها والآخر أن تكون المدينة التي تعد بحق عنوان البلاد للقادم إليها على الحالة التي يتمناها كل امرئ لواجهة بيته فقد كان جلالته يود أن ينشأ شارع بعرض أربعين متراً من باب الجمرك إلى ميدان محمد علي . ولاريب في أنه لو نفذ هذا المشروع لكان تجميلاً عظيماً للمدينة التي لقبت بحق عروس البحر المتوسط والتي ما برح أهلها يظهرون في جميع الأحوال ما فطروا عليه من الهمة والنشاط وحب التقدم والارتقاء ولاريب كذلك في أن فتح هذا الشارع الجديد كان يفضي إلى تحقيق إصلاح كبير في جانب غير يسير من الشوارع والحارات الضيقة وهو إصلاح يؤول إلى تحسين الصحة العامة بما يكفل للناس من نور الشمس والهواء النقي وما يزيد في رفاهيتهم ونجاتهم من حالة أجمع الجميع على وجوب إزالتها والقضاء عليها . ولكن الملك فؤاداً انتقل إلى جوار ربه قبل أن يرى بداية العمل في هذا المشروع العظيم

* * *

وقبل أن نبتعد عما رددناه من أحاديث الملك فؤاد عن الموانىء المصرية وضرورة توجيه عناية خاصة إليها تحسن بنا الإشارة إلى زيارة جلالته للسويس في سبتمبر سنة ١٩٣٠ لافتتاح ميناءها الجديد و بعض المنشآت العمرانية الأخرى ووضع حجر الأساس في طائفة من المؤسسات العمرانية

فقد رأى الملك فؤاد أن مدينة السويس حرمت مدة طويلة من أعمال الإصلاح فيها بل حدث في وقت من الأوقات أنها تقهقرت وأضاعت ما كان لها من منزلة ولا سيما أنها لا تقوم في منطقة زراعية تدر عليها الخير والثروة فهي سوق تجارية وميناء بحري وما برحت كذلك في تاريخها الطويل كله فأوعز جلالته إلى حكومته برفع مينائها الشهير إلى المقام الذي هو جدير به من حيث إنه صلة عظيمة القدر بين تجارة الشرق والغرب فاذا لم يكن في الطاقة إعادته إلى ما كان عليه قبل شق الترعة التي اقتبست اسمها من اسم المدينة القديمة أيام كانت السويس محط رحال القادمين من الشرق إلى الغرب والذاهبين من الغرب إلى الشرق إليها تلجأ السفن ومنها تخرج القوافل فلا أقل من جعلها من أمهات الموانىء ووقايتها من المزاحمة الشديدة التي أخذت تبدو للعيان بعد ما فتح ميناء بور سودان وأعد فيه أحدث المعدات وصار مقصداً للبواخر الذاهبة إلى الشرق الأقصى والعائدة منه والسفن التي تمخر بحار شرق أفريقيا في الذهاب والإياب

وإتماماً لهذه الفائدة أشار جلالته بمد سكة الحديد الصحراوية بين القاهرة والسويس على نحو ما روى عبد الحميد سليمان باشا في ما تقدم

* * *

ولم يقصر الملك فؤاد عنايته على الموانىء المتصلة بالملاحة الخارجية بل وجهها كذلك إلى الملاحة الداخلية والموانىء اللازمة لها

فقد كان بعض رجال الحكومة يعتقد أن الملاحة النهرية تنافس سكة الحديد وأنها لهذا السبب يجب أن تهمل لئلا تؤثر منافستها في إيرادات الخزانة العامة وكانت الملاحة النهرية فيما مضى لا تصيب عناية ما من أولي الأمر حتى لقد كانت السفن النهرية تدفع رسماً على اجتياز الكباري في حين أن الذين يستعملون الكباري كطرق لا يدفعون شيئاً أي أن الذين كانت الكباري تسهل سفرهم

واتقالهم يعفون من الرسوم في حين أن الذين كانت تعوق عملهم وتضيع وقتهم كانوا يكرهون على دفع المال وظلت الحال على هـذا المنوال إلى أوائل القرن الحاضر فأنصفت الملاحة النهرية وأزيل هذا العبء عن عاتقها

وفي أثناء الحرب الأخيرة جربت السلطة العسكرية تجارب في الملاحة النهرية ودعت مندوبي الصحف إلى مشاهدتها ولكنها لم تسفر عن نتيجة تذكر

والحقيقة التي لا تنكر هي أن الملاحة النهرية أرخص وسائل النقل ولها في مصر مزايا عظيمة في مقدمتها أن الريح التي يغلب هبوبها عندنا تعارض سير مجرى تيار النيل

فالسفن النهرية تصعد في النيل بقوة الريح وتنزل فيه بفعل التيار فتستغني عن قوة دافعة صناعية حيث لا تدعو الحالة إلى السرعة

وهذا علاوة على أن الترع والمصارف الصالحة للملاحة لا تعيش ولا تنجح وتقوى بوجود الطرق وحدها بل لا بد لها من موانئ ودور صنعة وأنظمة ووقاية وتأمين فحث جلالته الحكومة على ضرورة الاهتمام بالموانئ الداخلية فصدعت بأمره وفي شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ وضع جلالته الحجر الأساسي في مرفأ قنا الجديد وفي مرفأ بني سويف الجديد

ومن سوء الحظ أن اعتبارات شتى وفي مقدمتها العسر المالي الذي أصيبت به مصر في ذلك الحين كغيرها من بلدان العالم كله حالت دون تنفيذ أعمال كثيرة بالسرعة التي كان جلالته يريدها

* * *

وكانت عناية جلالته بالرقي العام تشمل جميع نواحي حياة البلاد العامة ولا تقف عند بعضها وتغفل سواها . قال سعادة محمود فهمي القيسي باشا : « سمعت جلالته غير مرة يقول إن البلاد لا تستوفي نهضتها إلا إذا رفعت بوليسها إلى

المستوى الملائم لهذه النهضة وكان دائماً يتحدث عن البوليس في أوربا وكفاءته ويتمنى أن يأتي اليوم الذي يصل فيه بوليسنا إلى مرتبته »

وعلى ذكر البوليس نقول إنه في سنة ١٩٢٥ أصدر الملك فؤاد مرسوماً بوضع نظام جديد لمدرسة البوليس نص فيه على أن يقتصر دخولها على حملة شهادة الدراسة الثانوية قسم ثان (بكالوريا) دون سواهم وأن تكون مدة الدراسة ثلاث سنوات وأضيفت إلى المواد القديمة مواد جديدة لم تكن تدرس من قبل

وفي سنة ١٩٣١ انشىء لأول مرة قسم لقبول حملة شهادة الليسانس في الحقوق على سبيل التجربة ثم اوقف العمل بهذا النظام ولكن ولاة الأمور ما لبثوا أن اقتنعوا بفائدته فصدر في سنة ١٩٣٧ مرسوم بإعادة إنشائه وتنظيمه

وفي سنة ١٩٢٥ أعيد إنشاء قسم الكونستبلات وهو القسم الذي انشئ لأول مرة سنة ١٩٠٢ وألغي سنة ١٩٠٩

وفي سنة ١٩٣٣ أهدى الملك فؤاد إلى مدرسة البوليس ١٨ كلباً من نوع الكلب الراعي الألماني فكانت نواة لقسم الكلاب البوليسية في المدرسة

وزار جلالته مدرسة البوليس مرتين الأولى في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٢٢ والثانية في ١١ إبريل سنة ١٩٣١

***

وكان الملك فؤاد في مقدمة المتحمسين لمشروع كهربة خزان اسوان وفي طليعة الداعين إليه ولما زار جلالته جمعية المهندسين في دارها الجديدة الفخمة في شارع الملكة نازلي [1] أطال الوقوف أمام النموذج الذي وضعه الدكتور عبد العزيز احمد بك لتوليد الكهرباء من مساقط الماء في خزان اسوان وأبدى اهتماماً كبيراً به واستفسر عن بعض الأمور المتعلقة به ثم التفت إلى الواقفين حوله وقال : « إن شاء الله يكون في تنفيذ هذا المشروع العظيم خير كثير للبلاد »

(١) كان ذلك في ٢ مارس سنة ١٩٣٢

ومن أحسن ما سمعته في وصف روح الملك فؤاد البنائية ما قاله لي دولة حسين سري باشا . قال: « لم يكن هناك مشروع عظيم على عظمة الملك فؤاد ولم يكن يهمه ما سيكلفه المشروع بقدر ما كان يهمه ما ستستفيده مصر منه فقد كان مقدار الفائدة التي تفيدها مصر هو الذي يعنيه قبل كل شيء »

وحدثنا دولته بعد ذلك عما اتفق له شخصياً مع الملك فؤاد في صدد مشروع منخفض القطارة فقال : « لما فرغت من بحوثي الأولية ذهبت إلى المغفور له محمد محمود باشا — وكان وزيراً للمالية في وزارة ثروت باشا الائتلافية — وحدثته عنه وعن حاجتي إلى عمل مجسات على الطبيعة في منخفض القطارة نفسه وكان محمد باشا يثق بي ثقة شديدة فقال لي : « بالاختصار ماذا تريد مني ؟ » فقلت : « أريد عشرين ألف جنيه أو ثلاثين ألفاً للمجسات » . فقال : « نعطيك عشرين ألفاً » فخرجت من عنده إلى زيارة المغفور له عبد الخالق ثروت باشا وكان رئيساً للوزارة فما حدثته عن المشروع بإيجاز حتى قال لي : « وكم تعتقد أن تنفيذ هذا المشروع سيكلف ؟ » فقلت : « من عشرين مليون جنيه إلى ثلاثين مليوناً » فأبدى استغرابه لاهتمامي بمشروع يكلف هذه الملايين الكثيرة وقال : « من أين لنا هذا المال الطائل ؟ » ثم تشرفت بمقابلة الملك فؤاد ومعي تقريران عن المشروع أحدهما يبسطه بسطاً مقتضباً والآخر يبسطه بسطاً مسهباً وقلت في نفسي إن وقت الملك لن يتسع لأكثر من الاطلاع على التقرير المختصر ولكن إراحة لضميري سأرفع إليه التقرير الآخر كذلك فإذا أراد أن يرجع إلى نقطة ما أغفلها التقرير المختصر وجدها مفصلة فيه فكان أول سؤال وجهه إليّ جلالته: « وماذا تستفيد مصر من تنفيذ هذا المشروع ؟ » فسردت لجلالته أهم فوائده فارتاح إليها وأظهر اغتباطه بالمشروع ولم يسألني قط « كم سيكلف » بل قال لي : « اترك لي هذين التقريرين يا حسين بك وسأدعوك إلى هنا مرة أخرى قريباً » .

و بعد عشرة أيام دعيت إلى التشرف بمقابلة جلالته فوضع التقرير الكبير أمامه وأخذ يتصفح أوراقه فرأيت على كل صفحة منها تقريباً علامة استفهام فكان يقف عند كل علامة منها و يسألني إيضاحات جديدة استيفاء لما قرأه في التقرير. أما التقرير المختصر فلم يمسه . ولما راجعنا التقرير كله بهذه الكيفية حثني على المضي في تجاربي فكانت كلماته لي في تلك المقابلة أكبر تشجيع سمعته في حياتي الهندسية »

* * *

وفي شهر مارس سنة ١٩٢٩ اقيم معرض فرنسي في أرض الجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة وتفضل جلالة الملك بافتتاحه

ونذكر أنه لما وصل جلالته في أثناء طوافه بأقسام المعرض إلى القسم الخاص بشركة مركبات النوم والأكل شاهد خارطة على الجدار تمثل الخطوط التي تسير عليها هذه الشركة مركباتها في فرنسا وسائر بلدان أوربا فدنا منها وقال : « إن هناك مشروعاً عمرانياً عظيماً أود تحقيقه وهو أن تمتد خطوط سكك الحديد من فرنسا إلى أسبانيا إلى بلاد المغرب الأقصى إلى مصر مارة بالجزائر وتونس وطرابلس . . . إنني أتمنى أن يحقق هذا المشروع يوماً ما »

* * *

وحلل لي دولة اسماعيل صدقي باشا نقطة هامة تستحق أن يلقى عليها ضوء من الأيضاح والتفسير في ختام هذا الفصل فقال : « كان الملك فؤاد يعلم ما نعلمه جميعاً وهو أن مصر تجتاز مرحلة نهضة جديدة من جميع الوجوه وفي جميع مرافقها العامة فكان يرى أن هناك واجباً مقدساً ملقى على عاتق جميع المصريين وهو أن يشتركوا جميعاً في بذل الجهود في سبيل استكمال هذه النهضة فكان إذا أبدى رأياً أو أعرب عن رغبة لا يفعل ذلك إلا كمصري يريد أن ينفع بلده بما اتيح له

من تجارب واسعة ولا ريب في أنه كان رجلا ذا تجارب كثيرة وعظيمة وأن أساس حكمه كان الرغبة الصادقة في إبلاغ مصر أسمى المراتب بين الدول المتمدنة»

واستطرد صدقي باشا من ذلك إلى القول: « وقد أثبت الملك فؤاد بالمشروعات والأعمال ووجوه الإصلاح التي تمت في عهده أن مصر جديرة بالاستقلال ومن حسن حظ مصر أنه صاحب استقلالها في مرحلته الأولى حتى تشربت به نفوس المصريين وعندي أن التقدم الذي بلغته البلاد على يده لا يدانيه تقدمها في أي مرحلة أخرى من مراحل تاريخها ولو احصيت الأعمال التي عملت في سني حكمه وأردنا أن نختار لعصره اسماً يطابق نتيجة الإحصاء لما سميناه غير عهد صقل المواهب والإنتاج »

* * *

ولا يسع الباحث أن يتكلم عن النهضة العمرانية والإنشائية التي وضع الملك فؤاد اسسها من دون أن يلمع إلى الرحلات التي رحلها جلالته في داخل المملكة استكمالا لعناصر تلك النهضة

وكان برنامج كل زيارة منها طافحاً بالأعمال والمشروعات التي يفتتحها جلالته أو التي يضع حجارة الأساس فيها كتوزيع الماء والنور وإنشاء دور العلم والمستوصفات ومراكز الاسعاف والمباني الجديدة للمجالس المحلية والمكتبات وكلها مما يرجى أن يزيد في رفاهية الناس وتجميل المدن التي تقام فيها وتسهيل أعمال الهيئات المحلية ووقاية الخلق من غوائل الأمراض وعوادي الأوبئة

وأدرك الشعب بفطرته وسجيته أن توثيق هذه الصلة بينه وبين عرش مصر ربح لمصر وقوة لها وعز لوادي النيل وتوطيد لمقام مصر ورفع لشأنها في عيون الشعوب فكان الناس يتركون أعمالهم في الحقول والقرى البعيدة ويتقاطرون إلى ضفاف النيل ومواضع الحفلات ليشاهدوا ملكهم ويشتركوا في تكريمه والاحتفاء به

بما في طاقتهم من هتاف وزغردة وابتهاج حقيقي صريح صادر من أفئدتهم وهو من أفضل ما يقابل به ملك من رعيته

* * *

أما الرحلة التي نود أن ننوه بها تنويهاً خاصاً فهي زيارة جلالته للصحراء الغربية حتى سيوه من جهة وحتى السلوم من الجهة الأخرى (أكتوبر ١٩٢٨) فقد كان لها غاية أبعد مرمى وأسمى غرضاً من مجرد الطواف والارتياد فقد نظر جلالته إليها بعين بصيرته وأراد أن تمتد يد الاصلاح والتعمير إلى هذا الجزء النائي من ملكه وأن يدخل إليه نوع من التنظيم يتدرج مع الأيام وأن يدرك البعيدون في مواطنهم من رعاياه أن بعدهم عن قلب العاصمة وضواحيها لا يجعلهم بعيدين عن قلوب إخوانهم ومواطنيهم ومليكهم

وفعلا قال جلالته للضباط والموظفين الذين قابلهم في سيوه « لا تظنوا أنكم في سيوه وصحاريها بعيدين عن مصر فأنتم هنا في مصر ومصر تقوم بكم هنا » فكان لهذا النطق الكريم أعظم وقع في نفوس الضباط والموظفين والأهلين على السواء

ولم يكد جلالته يعود إلى الاسكندرية من هذه الرحلة حتى بدأت آثار فوائدها تتجلى للعيان فقد أنشأت اتصالا جديداً بين تلك الشقة المصرية الوعرة المترامية الأطراف وسائر المملكة وخلقت اهتماماً جديداً بها و بسكانها كما أنها بعثت في نفوس هؤلاء السكان شعوراً طيباً إذ رأوا أول ملك لمصر يسعى لزيارتهم غير مكترث بوعثاء السفر في الصحراء علاوة على ما لقوا من عطف جلالته وعطاياه الملكية و إنعاماته الكثيرة التي اغدقت على أفرادهم وجموعهم مما عزز تعلقهم بالعرش المصري وأفهمهم أن الجالس على هذا العرش يعنى بهم عنايته بسائر رعاياه

وأن بعد الشقة وصعوبة الانتقال ليسا في نظره حائلا يحول دون تفقد أحوالهم والعمل لتحسين شؤونهم

وذكرت الصحف يومئذ أن جلالته كان طول المدة التي استغرقتها الرحلة مثالا كاملا للوطنية الصادقة فلم يحصر اهتمامه في الاقتصاد وحده أو الزراعة وحدها بل شمل المرافق الحيوية كلها بنظرة ثاقبة على ضوء خبرته الواسعة ومعلوماته العامة

وأمر جلالته في خلال إقامته في سيوه بأخذ نماذج مزدوجة من جميع مصنوعات سيوه الوطنية سواء كانت من حلي النساء أو من أسلحة الرجال أو من الأدوات المنزلية التي تستخدم في مساكن الأهلين وخيامهم أو المكاييل والأوزان التي يستعملونها أو الأقمشة المحلية التي يصنعونها لملابسهم . وأمر كذلك بشراء بعض الآلات التي يستخدمها أهل سيوه لنسج الأقمشة

وتفضل جلالته فأمر بأن تهدى هذه المجموعة الكبيرة إلى الجمعية الجغرافية المصرية لتحفظ في متحفها ذكراً جميلا للرحلة الملكية

ووصفت البلاغات الرسمية حفلات الاستقبال التي أقيمت لجلالته في سيوه . وكان بعض هذه الحفلات يشبه أفراح العرب قديماً حين ينتظمون في رقصهم حلقات وينشدون الأهازيج « والحدو » العربي

وما إن سمعها جلالته حتى راقت في نظره وسمعه وأصدر أمره الكريم إلى رئيس موسيقى الأورطة السابعة بكتابة هذه الألحان وتوقيعها على النغمات الموسيقية حسب أصولها وطبيعتها فنفذ الأمر العالي فوراً ووضعت لها الأنغام المتناسبة مع أصلها

وأسف جلالته أسفاً كبيراً لأنه لم يأمر باحضار « آلة الصوت الفونوغرافي »

لالتقاط هـذه الألحان من أفواه العرب وهم ينشدونها إذن لكانت تنقل طبيعية أصلية

ووصل إلى علم جلالته أن هناك « شاويشاً » بالبوليس من أهل سيوه لم يغادرها إلى الخارج مدة حياته ولم يشاهد شيئاً من المخترعات أو الرسوم وهو مع ذلك نابغة في فن الرسم والصناعة حتى إنه ابتكر بقوة بديهته وخياله عدة رسوم وصور رسمها في كراسة وزينها بالألوان وصنع من الأقمشة المنسوجة في سيوه نفسها أشكالا مختلفة من الحيوانات وحشاها بالقش فظهرت تشبه الأصل ومنها «ضفدع وقط » لا يكاد الإنسان يفرق بينهما مصنوعين وحيين

وعرض ذلك على جلالته فأعجب به كثيراً ولا سيما أن الرجل لم يخرج من سيوه ليرى نماذج الصناعة الراقية و يشاهد أساليب الرسم وفنه الدقيق

وحدث أن جلالته صعد إلى « غرفة الاستراحة » وقد بنيت على رابية عالية وأنشئت مدارج (سلالم) ذات درجات عدة للوصول إليها وعلى جانبي المدارج وقف العساكر بسلاحهم لتأدية التحية العسكرية لجلالته حين مروره إلى «الاستراحة» . و بعد ما مر المليك ووصل إلى رواق الغرفة أمر الضابط العساكر «بالراحة» أي إنزال السلاح ففعلوا . . . غير أن جندياً وجه نظر الضابط إلى عسكري واقف في الصف وهو لا يزال رافعاً سلاحه للتحية . . . وأسرع الضابط إلى «العسكري» . . .

وما أشد الدهشة التي استولت على كثيرين حين فهموا أن هذا «العسكري» الذي لا يزال رافعاً سلاحه للتحية لم يكن غير عسكري صناعي لا يستطيع من يراه في زيه وملابسه و بندقيته أن يميزه عن سائر الجنود . . . وأن الشاويش هو الذي صنع العسكري وحشاه بالقش وألبسه الملابس العسكرية وقلده البندقية فكان جندياً مهيباً لا تنقصه إلا القوة والحياة

ونمي الخبر إلى المسامع الملكية فسر جلالته كثيراً بعد ما شاهد العسكري المصنوع وأمر بشراء جميع الرسوم والمصنوعات (ومنها العسكري) التي صنعها «الشاويش » وباهدائها إلى متحف الجمعية الجغرافية

✲✲✲

وعند ما يكتب تاريخ النهضة الاجتماعية في القرن العشرين فلا ريب في أن يوم ٧ مايو سنة ١٩٢٩ سيظل يوما مشهوداً في سفر هذه النهضة

ففي ذلك اليوم وضع الملك فؤاد الحجر الأساسي لبيوت العمال في جهة معمل تل البارود بالقاهرة في احتفال رسمي كبير شهده وزراء الدولة ورجالها وممثلو الدول الأجنبية

وكان الحي كله يموج بوفود العمال وجماعاتهم فما كادوا يلمحون موكب جلالته حتى اشتد هتافهم « لملك النيل وحامي العمال وراعي الشعب »

وخطب المغفور له محمد محمود باشا — وكان رئيساً للوزارة في ذلك الحين — بين يدي المليك في فوائد هذا المشروع الاجتماعي العظيم مستهلا خطبته بقوله : « تفضلتم جلالتكم بتشريف هذا الاحتفال الذي يسجل لعهدكم المجيد اهتماماً بأمر العمال على نحو لم يسبق له مثيل في مصر »

ولما انتهى جلالته من طرق الحجر الأساسي التفت إلى المحيطين به وقال : « إن شاء الله يكون فيه الخير » فقال محمد محمود باشا : « في حياة جلالتكم إن شاء الله »

وانشرحت صدور العمال وقرت عيونهم بما ظفروا به من عطف الملك عليهم وعنايته بهم فانتهزوا بعد ذلك بأيام فرصة عيد الأضحى المبارك والتمسوا أن يؤذن لوفد يمثلهم في التشرف بتقديم فروض التهنئة بالعيد اقتداء بسائر طبقات الأمة فلقي هذا الالتماس ارتياحاً وقبولاً وتشرف هذا الوفد بالمقابلة السنية برئاسة الدكتور محجوب ثابت واذيع الخبر في البلاغ الرسمي الذي يصدره ديوان كبير الأمناء

فكانت هذه أول مرة في تاريخ مصر الحديث ينال فيها الذين يعملون بأيديهم أو بالآلات شرف المثول في الحضرة الملكية كهيئة

وكان أول ما قاله جلالته في النطق السامي الذي وجهه إليهم : « يجب أن نتضامن جميعاً لخدمة الوطن »

* * *

ومن المشروعات الاجتماعية الجليلة التي نفذت في عهد الملك فؤاد مشروع إنشاء مطاعم الشعب وقد لقي من عطف جلالته وسخائه ما كفل له النجاح في مرحلته الأولى

* * *

وكان الملك فؤاد فيما يتعلق بالتحول الاجتماعي من أنصار التؤدة وعدم العجلة . كان يريده « تحولا » طبيعياً لا « طفرة » اصطناعية . ومن ذلك أنه وافق على سياسة التعليم المختلط في بعض كليات الجامعة ولكنه كان يقصد من جهة أخرى أن يتم تحرير المرأة تدريجاً فتكون نهضتها نهضة حقيقية لا نهضة تقليدية

قص عليّ سعادة محمود فهمي القيسي باشا أنه كان جالساً مرة في حضرة الملك فؤاد في إحدى رحلاته في الأقاليم فدار الحديث على هذا الموضوع فكرر جلالته ما كان يقوله دائماً وهو أن هناك أشياء يجب أن تترك للناس يتصرفون فيها من تلقاء أنفسهم وأن الزمان كفيل بحل أمور كثيرة . وهنا كان الركاب الملكي قد وصل إلى « المنيا » وكان تلاميذ المدارس وتلميذاتها مصطفين لاستقبال المليك فلاحظ جلالته أن شعر عدد كبير من البنات كان مقصوصاً فالتفت إلى القيسي باشا وقال له وهو يشير إليهن : « شايف يا قيسي . . . ما تقوليش إيه اللي كان حدث لو طلب من أهل البنات دول أن يقصوا شعر بناتهم . . . كانوا غضبوا وهاجوا حتماً . . . فاديهم دلوقت من نفسهم عملوا اللي أرادوا أن يعملوه »

و بعد زيارة الملك أمان الله ملك أفغانستان الأسبق لمصر بأيام كنت أزور البارون فون شتورر وزير ألمانيا المفوض في مصر في ذلك الحين فأخبرني أنه لما تشرف بمقابلة الملك فؤاد قبل ذلك بيومين تكلم جلالته معه عن أحاديث الملك أمان الله وما يتجلى فيها من طفرة خطيرة وأنه (أي الملك فؤاد) قال له (أي للبارون شتورر) انه إذا صمم الملك أمان الله على تنفيذ الانقلاب الذي يريده لبلاده بالطفرة التي تتجلى في أحاديثه فانه (أي الملك فؤاد) يخشى أن يفضي الأمر إلى ضياع العرش منه

ولما كان الملك فؤاد يفضي بهذا الخاطر إلى البارون فون شتورر كان الملك أمان الله يطوف عواصم أوربا ثم عاد إلى بلاده وقرر أن يشرع في الحال في الانقلاب الذي طالما تحدث عنه . . . و بعد أشهر جاءت التلغرافات بأن الأفغانيين ثاروا عليه وأرغموه على التنازل عن العرش

* * *

كذلك كان من رأي الملك فؤاد أن الإصلاحات الخاصة بحياة العمال يجب أن تتحقق في ظل النظم القائمة وأنه يتعين على الدولة أن تحمي عمالها من الدعايات الأجنبية التى لا تناسب ظروفها الخاصة

قال لي القيسي باشا : « في سنة ١٩٢٣ كانت الأحكام العرفية التي اعلنت في مصر في بداية الحرب العظمى لاتزال قائمة ولكن من المنتظر أن تلغى بين آن وآخر فدعيت يوماً إلى التشرف بمقابلة الملك فؤاد فلما مثلت بين يديه قال لي : لقد دعوتك إلى مقابلتي لأوجه نظرك بوصفك الرجل المسؤول عن الأمن العام إلى مسألة الشيوعية فإني أعلم أن هناك مساعي تبذل لنشر الدعوة إليها ولا يخفى أن قانون العقوبات عندنا خال من كل إشارة إلى هذا الموضوع فأرجو أن تحتاطوا للأمر من الآن . فلما رجعت إلى مكتبي وراجعت قانون العقوبات لم أجد فيه نصاً

صريحاً يمكننا أن نستند إليه في محاكمة الشيوعيين فأعددنا تشريعاً خاصاً لذلك ، وبعد التحري تبين لي أن الملك كان مصيباً في قوله وأن هناك حقيقة وكلاء موفدين من أوربا لبث الدعوة في مصر فقبضت الحكومة على المشتغلين بها وأحالتهم إلى المحاكمة واستطاعت أن تقضي على الحركة وهي في المهد

* * *

وحسب المرء أن يزور المزارع الملكية ليرى فيها غير دليل واحد على العطف العظيم الذي كان الملك فؤاد يكنه للفلاح

وإذا كان جلالته قد شاء أن يجعل من تلك المزارع حقولاً أنموذجية للزراع ينسجون على منوالها كما سيجيء الكلام على ذلك في فصل آخر فلا ريب في أنه أراد من جهة أخرى أن يكون ما عمل للفلاح في المزارع الملكية قدوة لكبار الملاك يقتدون بها في ما يتعين عليهم أن يهيئوه لفلاحيهم في مزارعهم وأراضيهم

قابلت يوماً معالي عثمان محرم باشا بعد عودته من زيارة بعض المزارع الملكية فقال لي إن كثيرين يتكلمون عن العطف الذي يستحقه الفلاح وعن ضرورة عمل شيء له ولكنهم لا يعملون شيئاً . أما الملك فؤاد فلم يتكلم بل عمل وترك لعمله أن يتكلم فجلالته أول من بنى بيوتاً صحية للفلاحين في مصر وقد بنيت هذه البيوت بالدبش والخرسانة المسلحة و « بيضت » ويحتوي كل بيت منها على مطبخ وحمام والملحقات بل إن جلالته أول من بنى للفلاحين بيوتاً من دورين فعلم كبار الملاك بطريقة عملية ما تطلبه منهم الإنسانية ومقتضيات النهضة الاجتماعية للرجال الذين تقوم على سواعدهم ثروة مصر الزراعية

* * *

وروى لي سعادة عبد القوي أحمد باشا أنه كان متشرفاً مرة بمقابلة الملك فؤاد فسأله جلالته عن نشأته وتعليمه

وهنا أدع عبد القوي باشا نفسه يتكلم . قال : « وما كاد جلالته يعرف أنني مولود في قرية حتى أخذ يتبسط في الحديث عن القرية وضرورة إصلاحها حتى ماشككت في أنه محيط بكل جزء من أجزاء حياة الفلاح بالتفصيل ولاسيما لما ذكر أنه يريد من كل فلاح أن ... وهنا قال جلالته كلمة بالفرنسية لم أفهمها وبعد تفسير طويل للغرض فهمت أن الكلمة المقصودة هي « دهاكة » المباني بالطين والتبن والمعروفة عند المعماريين « باللياسة » ولما ذكرت الكلمة الأخيرة تناول جلالته قلمه وكتبها على ورقة أمامه فلا غرو إذا قلت لك إن مشروع إنشاء وكالة للمرافق العامة في وزارة الصحة ليس سوى نفحة من نفحات الملك فؤاد وما برحت أذكر أنه لما تكلم جلالته عن مسكن الفلاح تبسط في الحديث عن أهمية التهوية في داخل السكن وعن ضرورة عزل المواشي عنه بكل وسيلة مستطاعة .

***

ويقول القيسي باشا إنه لما بدأت الحكومة تهتم بضرورة تعميم الماء الصالح للشرب في القرى كان الملك فؤاد على اتصال دائم به ليستفسر منه عن الخطوات التي خطاها العمل في سبيل هذا المشروع وكان جلالته شديد الاهتمام به للخير العظيم الذي يعود منه على صحة الفلاح

***

ولما تشرف الدكتور علي توفيق شوشه بك بمقابلة الملك فؤاد ليشكره على الانعام عليه برتبة البكوية من الدرجة الثانية أثنى جلالته على معامل وزارة الصحة ثم قال مستدركاً : « ولكن هذه المعامل يجب أن تعمم فى الأقاليم خدمة للفلاح فلا يظل يعتمد على معامل القاهرة وحدها » وهنا قال جلالته إن لتعميم المعامل في الأقاليم فائدتين جوهريتين الأولى السرعة وكسب الوقت والثانية أن هناك « عينات » تقتضي أن تفحص محلياً أو قد تتلف إذا نقلت الى مسافة بعيدة

« فمن حق الفلاح علينا أن نهيىء له معامل إقليمية ، وفي الجهات التي لايمكن إنشاء معامل دائمة مستقرة فيها يجب أن تتخذ التدابير اللازمة لايصال المعامل المتنقلة اليها »

قال الدكتور شوشه بك : وذكر جلالته غير مرة في سياق الحديث أنه يعد المعامل الاقليمية بمثابة « مخافر أمامية » للصحة العامة فكان لتوجيهه الفضل الأول في إنشاء معامل الصحة في الأقاليم ، و إلى ثاقب رأيه كذلك يرجع الفضل في تكبير معامل الصحة في القاهرة وفي إنشاء معمل الأمصال الجديد في العجوزة

* * *

وسنرى في الفصل الذي أفردناه فيما يلي للنهضة الزراعية وحدب الملك فؤاد على الفلاح أنه كان شديد الاهتمام برفع مستوى الحياة الاجتماعية منذ ما كان أميراً . ومن المؤسسات التي أنشأها جلالته في هذا السبيل وهو أمير معهد الفنون الطرزية للبنات في الاسكندرية فهيأ لعدد كبير من البنات المحتاجات إلى العمل فرصة كسب الرزق بطريق شريف . وقصت علينا مدام ديفونشاير أن الأمير احمد فؤاد كان يبحث بنفسه عن بعض الرسوم اللازمة لهذا المعهد لكي تعنى طالباته بنقلها كما سيجيء الكلام في فصل تال

النهضة الزّراعيّة والصّناعيّة

النهضة الزراعية

إذا كانت هناك ناحية مجهولة جهلاً تاماً في سيرة الملك فؤاد كبنّاء فما لا ريب فيه أنها ناحية ما عمله للزراعة عامة وللفلاح خاصة

وكثيراً ما حاول الصحافيون في حياة الملك أن يفوزوا بمعلومات تمكنهم من إحاطة الناس بما يعمله جلالته في هذا السبيل فلم يوفقوا إلى ذلك لأنه كان يأبى على رجاله أن يتحدثوا عن عمله

غير أنه لم يكن ليجوز لنا ونحن نكتب عن « فؤاد البنّاء » أن نغفل هذه الناحية المجهولة في سيرته ولا سيما أننا نعلم أنها ناحية حافلة بجلائل الأعمال

فذهبنا إلى سعادة محمد زكي الإبراشي باشا وهو الذي قضى سبع سنوات ناظراً لخاصة جلالة الملك فؤاد وسألناه أن يحدثنا في ذلك

قلنا لسعادته : نريد حديثاً مستفيضاً لأننا واثقون من أن كل شيء ستقولونه سيكون شيئاً جديداً تقولونه لأول مرة ويذاع لأول مرة

وفعلا كانت هذه أول مرة يتكلم فيها الإبراشي باشا فاستهل حديثه بقوله :

« لما عينت ناظراً للخاصة الملكية كنت أتوقع أن يكون المغفور له الملك فؤاد مهتمًّا بشيء معين أكثر من اهتمامه بأشياء شتى فخرصت من اليوم الأول على اكتشاف الناحية التي تهمه أكثر من سواها فإذا بالأيام والأعوام تثبت لي الحقيقة التالية وهي أنه إذا تشرف صحافي بمقابلة الملك فؤاد خرج من حضرته وهو

يعتقد أن جلالته يكرس معظم أوقاته لشؤون الصحافة ويقيني أنه إذا اعتقد الصحافي ذلك كان معذوراً في اعتقاده لأنه يسمع من الملك ما لا يسمعه إلا من صحافيين مثله فكأنما كان يقابل زميلا له لا ملكاً وإني أسمح لنفسي بأن أقول « زميلا له » لأنه كان من أخص سجاياه أن يبعث في نفس زائره الثقة والطمأنينة فلا يشعر أنه في حضرة ملك

« فإذا قابله طبيب متخصص في أحد فروع الطب حادثه جلالته في أحدث نظريات فرعه فيتبادر إلى ظن الطبيب أن الملك وقف حياته على درس فرع الطب الذي تخصص هو فيه

« وإذا قابله رجل من رجال المال فدهشته لا تكون أقل من دهشة الصحافي والطبيب لأنه يسمع المليك يتكلم في الشؤون المالية كلام الخبير بها

« وإذا قابله رياضي ألفاه شديد الاهتمام بالرياضة كأكثر الناس ولعاً بها

« وحيث إن الزراعة هي الفرع الأول في عملي كناظر للخاصة شعرت من أحاديث جلالته الأولى معي أنه كرس حياته للزراعة وخيل إليّ في بادىء الأمر أن الزراعة والعناية بشؤونها تستغرق كل اهتمامه

« ولكني لم ألبث أن رأيت أن هذه الحالة عامة وأن ما أشعر به هو نفس شعور كل من يتشرف بمقابلته وعند ذلك أدركت السر في هذا الذي استوقف نظري واسترعى انتباهي فانه لما أُلقيت على عاتقه أعباء الملك جعل هدفه غاية سامية وهي أن ينهض بمصر والنهوض بمصر لا يمكن أن يكون في ناحية واحدة فوجب إذن أن يهتم بجميع نواحي النشاط

« وإني أعتقد أن جميع الذين عاشروه وقابلوه — وكانت مقابلاته كثيرة — يشاطرونني هذا الرأي

« وكذلك أعتقد أنه وفق توفيقاً كبيراً في توجيه نواحي النشاط في وجهة

الخير وخدمة مصر وأنه نجح نجاحاً باهراً في رفع شأن مصر حتى جعل لها مكانة سامية بين الأمم »

* * *

واستطرد الإبراشي باشا من ذلك إلى الكلام عما عمله الملك فؤاد للزراعة فقال :

« كان للناحية الزراعية مقام عظيم في نظره لأنه كان يشعر أن دم محمد علي وابراهيم واسماعيل يجري في عروقه

« كان يعلم حقاً أن جده الأكبر محمد علي أوجد القطن لمصر وأن أباه اسماعيل أوجد السكر فأراد هو من جهته أن يوجد شيئاً جديداً

« فماذا يكون يا ترى ؟

« ماذا يكون الفرع الذي يترك فيه أثراً ؟

« فكر في ذلك كثيراً ثم اختار الفاكهة وتربية الماشية والصناعات الزراعية »

وهنا قاطعت الإبراشي باشا مستفهماً : وهل استنتجت سعادتك ذلك استنتاجاً أم كان من أحاديث جلالته ؟

فقال : « من أحاديث جلالته قطعاً »

واستأنف سعادته كلامه فقال : « وكان مما يفخر به كذلك أن جده ابراهيم وهو ذلك البطل الذي فتح عكاء ووصل إلى أسوار الآستانة لم يكن يفتخر بأنه القائد فقط بل كان يفتخر بأنه المعمر والزارع ، فغرس الزيتون يرجع الفضل فيه إلى ابراهيم

« فهذا الشعور بأنه منحدر من سلالة أولئك العظماء الذين وجهوا جهودهم إلى خدمة الانسانية والفلاح جعله يفكر في خدمة الفلاح

« وفي اعتقادي أنه يخطئ من يظن أن شدة اهتمامه بالزراعة ترجع إلى حب

اكتناز المال والحصول عليه فقد كان له غرض أسمى من ذلك ! كان غرضه أن يكون مثلا أعلى للفلاح فيقلده آخرون فتستفيد البلاد من ذلك »

* * *

ومضى الإبراشي باشا في حديثه فقال :

« قال لي الملك فؤاد ذات مرة : لقد أنعم الله عليّ بنعم كثيرة لا تحصى فوهب لي صحة وأولاداً ومالا كثيراً ما كنت أحلم به وملكاً لم يكن يخطر لي ببال وبالجملة لم تخطر ببالي نعمة إلا كانت من نعم الله عليّ ولكن من الغريب أنني حرمت من شيء بسيط جداً وهو أنني لم أستطع في حياتي كملك أن يكون لي بستان يصح أن يسمى بهذا الاسم . . . فلماذا تكون هناك بساتين في البلدان الأخرى تليق لأن تكون مثالا يحتذى ولا يكون لي شيء منها ؟

« إذن لم يطلب البستان لأنه كان ينتظر أن يدر عليه مالا فقد كان يتحدث بنعمة الله ووفرتها

« إنما كان يطلبه ليكون مثالا يحتذى في البلاد — إذا أمكن عمل ذلك

« وكان من الطبيعي أن يكون هذا الحديث أكبر حافز لي على درس الموضوع مع رجال الفن فدرسته دراسة وافية وبعد ذلك عرضت عليه نتائجها فشجعني على تنفيذ المشروع وتحقيقه

« وفعلا بدأت العمل في انشاص ومضيت فيه أربع سنوات حتى ظهرت بوادر النجاح وكنت قد أنفقت من ماله وبرضائه التام خمسين ألفاً من الجنيهات... في تلك الصحراء الجرداء

« وكان من عادة جلالته أن يزور تفاتيشه مرة في السنة على الأقل أو مرتين فلما زار هذه الحديقة في أول سنة ولم تكن بوادر النجاح قد ظهرت بعد قال لي : إني أتمنى لك النجاح في هذا العمل الجريء في وسط الصحراء وبالطبع أنك لم

تشرع فيه إلا وأنت كبير الأمل بنجاحه فإذا قدر له النجاح و بدأت الأشجار تزهر وتثمر فهل فكرت في الرياح التي ستعصف بها في وسط هذه الصحراء فتذهب بالأزهار وتمنع نمو الثمار ؟

« قال هذا لأني لما غرست الأشجار لم أتخذ من الاحتياطات ما يمنع عنها فعل الرياح عندما تهب وتعصف وفاتني التفكير في الضرر الذي ينشأ من ذلك ولم ينبهني له رجال الفن فأدركت في الحال أن للملاحظة الملكية أكبر قيمة وأن لا أمل في هذه الحديقة إلا إذا احطناها بما يدرأ عنها الخطر فأقمت حولها سورا من البناء وغرست قربه وعلى امتداده أشجار الجزورينا بنظام تام وعنيت بهذه الأشجار عناية فائقة حتى إن السائر في تلك البقعة يحسب نفسه في قطعة من اوربا

« أنجزت هذا العمل بمنتهى السرعة فلما بدأ إثمار الحديقة في السنة الرابعة وجاءت زيارة الملك لها في وقت ازدهار الأشجار وتعطر الجو بأريج أزهارها وقف جلالته يسرح الطرف في تلك الأشجار و يتأمل جمال الطبيعة وما يحيط بالبقعة التي وقف فيها من مناظر خلابة ثم سكت دقائق

« وعندئذ تذكرت ما قاله لي يوماً عن أمنيته في أن يكون له بستان

« واقتربت قليلاً منه وقلت : لعل جلالتكم قد ارتحتم إلى ما شاهدتموه

« فحمد جلالته الله وقال : لقد أتم الله عليَّ نعمته

« ثم تفضل وشكرني فكان هذا اليوم من أسعد أيام حياتي »

وتابع الابراشي باشا حديثه فقال :

« اتفق بعد ذلك أن كبيراً من أعضاء مجلس النواب البريطاني جاء بتوصية من وزير مصر المفوض في لندن — وكان إذ ذاك سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا — ليقابل جلالة الملك و يعرض عليه آراءه واقتراحاته في شأن إصلاح حالة

الفلاح من جهة مسكنه في الريف فبعدما قابله جلالته أرسله إليَّ لكي يزور تفتيشاً من التفاتيش الملكية ويرى بنفسه المساكن التي تعد هناك للفلاحين حتى إذا عنَّت له ملاحظات في صددها كاشفنا بها

« وذهب هذا النائب الكبير وهو في الوقت نفسه من أثرياء الانجليز وشاهد المنازل الريفية التي كنا نبنيها للفلاحين وكذلك شاهد كيفية تقسيم الشوارع في العزب والنظافة التامة التي تراعى فيها فلما انتهى من جولته قال إنه لم يظن قط أن ملك مصر يعمل كل هذا لمصلحة الفلاح في تفاتيشه ثم أعرب عن رغبته في زيارة انشاص فأجيب إلى ذلك ولما عاد إلى العاصمة جاءني وقال لي أرجو منك أن تبلغ جلالة الملك أولاً شكري على تفضله بالسماح لي بزيارة هذه التفاتيش وثانياً أنني سررت وارتحت كثيراً إلى العناية التي يبذلها لخير الفلاح وأن المساكن التي أعدت له يصح أن تكون مثالاً يحتذى وأنه ليس لي ملاحظات ما عليها وثالثاً أنني أهنئه بحدائقه التي أعدها كأحسن حدائق العالم طراً

« فقلت له : اسمح لي وأنت تطلب مني إبلاغ هذه الرسالة أن أوجه نظرك إلى أنه من غير المستطاع تكوين حكم كهذا وإصداره قبل أن يزور المرء جميع أنحاء المعمورة ويشاهد ما تحويه من حدائق

« فقال : لك حق ولكني أؤكد لك أنني زرت حدائق في أميركا وأوربا وآسيا وأفريقيا فلم أر أحسن من انشاص

« وكأنما أراد أن يزيدني اقتناعاً بما قاله فسلمني كتاباً بخطه لأرفعه إلى جلالة الملك وقد أثبت فيه هذا المعنى

« فلما اطلع الملك على هذا الكتاب قال إن أمثال هؤلاء العظماء يحبون إدخال السرور على نفوس من يزورون . وعد جلالته الكتاب مجاملة من هذا النائب الكبير لا أكثر »

واستمر سعادة محدثي يحدثني عن عمل الملك فؤاد في انشاص فقال :

« وماذا حدث بعد ذلك ؟

« سمعت أن كثيرين من الإسرائيليين المتخصصين في البساتين نزحوا إلى فلسطين وأنهم أنشأوا فيها حدائق للموالح وغيرها وأن هذه الحدائق تعد مفخرة وتضارع مثيلاتها في كاليفورنيا بأميركا . وذهب بعضهم إلى أنها فاقت مثيلاتها في كاليفورنيا فقلت لجلالة الملك مرة إنه إذا كانت كاليفورنيا بعيدة عني ولا أستطيع الوصول إليها فلا أقل من أن أزور فلسطين فأقتبس من حدائقها ما يصح العمل به في إنشاص فإن ما سمعته عن بساتين فلسطين يشجعني على استئذان جلالتكم في الذهاب إليها فأشاهدها بنفسي فأذن لي في ذلك وقضيت فعلا فترة من الزمان بين ربوع فلسطين وسوريا ولبنان متفقداً حالة البساتين والمزارع وعدت بفوائد اقتبستها وطبقتها في انشاص كما عدت من ناحية أخرى بعقيدة راسخة وهي أنه إذا كانت بساتين فلسطين تضارع بساتين كاليفورنيا كما سمعتهم يقولون في فلسطين فإن انشاص إن لم تكن أحسن حدائق العالم كما قال النائب البريطاني الكبير فإنها في مقدمة حدائق العالم قاطبة

« وحدث بعد ذلك و بعد وفاة المغفور الملك فؤاد واعتزالي منصبي في الخاصة أن الحكومة المصرية ندبت خبيراً من أميركا لمعاينة بساتين مصر وتقديم ملاحظاته عليها وعلمت أنه قدم تقريراً أثبت فيه أن بساتين انشاص تنقسم قسمين : قسم خاص بالموالح (برتقال ويوسفي وليمون الخ . .) وقسم خاص بالمانجو . فالقسم الخاص بالمانجو هو أول حديقة في العالم مساحة ونوعاً . وأما القسم الخاص بالموالح فإنه الثاني فسئل : وما هي الحديقة الأولى ؟ فقال : هي حديقة في كاليفورنيا أنشأها هو نفسه

« وكان المستر برت فيش وزير أميركا المفوض السابق في مصر يعنى بالحدائق

والبساتين وله بستان كبير في ولاية فلوريدا فلما سمع عن بساتين انشاص استأذن الملك في زيارتها فأمرني جلالته بأن أرافقه في هذه الزيارة فقضيت معه يوماً كاملا في تلك البساتين ولم يكن إنشاؤها قد تم بعد فرأى في ذلك اليوم الجزء الذي تم إنشاؤه مثمراً وشاهد أقساماً أصغر منه غير مثمرة بعد ورأى كيف تجهز الأرض في الصحراء لتتحول من صحراء إلى حديقة ورأى عدداً كبيراً جداً من العمال يعملون في هدوء ونظام وبهمة عرفت عن المصريين في الزراعة كما رأى الماشية تجهز الأرض فأعجب بهذا المنظر وبهذا النظام وبهذه العناية بالعمال وقال لي إنه وإن كان يعتني بمزارعه وبستانه إلا أنه ليس هناك وجه للمقابلة بينها وبين بساتين الملك »

* * *

وهنا انتقل محدثي إلى الكلام عن تشجيع الملك الراحل للفنيين المصريين فقال:

« هذه البساتين التي أنشأها الملك فؤاد وانفق عليها خمسين ألفاً من الجنيهات قبل أن يستفيد منها شيئاً استخدم فيها العلم والفن وكانت مدرسة أظهرت كفاءة الفنيين المصريين واستفادوا هم أنفسهم إذ غيروا كثيراً من المبادئ التي كانوا يعتقدون صحتها وطبقوا مبادئ جديدة عادت على البلاد بالخير والبركات

« وكانت زيارتها مباحة لجميع شبابنا المصريين وغير المصريين كذلك ليستفيدوا مما عمل فيها وليفيدوا بما يرون الإشارة به وهذا هو ما كان الملك فؤاد يقصده فتحقق قصده

« وسأسرد لكم بعض الأمثلة لتروا كيف استفاد الفن على أيدي الفنيين المصريين بعد التجارب التي جربت في انشاص

« كان الاعتقاد السائد أن البرتقال المعروف « بأبو صره » لا يصلح في الأراضي الرملية كأراضي أنشاص ولذلك كان الفنيون يشيرون بعدم غرسه في

مثل تلك المنطقة ولكن التجربة في أنشاص وملاحظة الفنيين لها أدت إلى تغيير هذا الرأي فهذا الصنف من البرتقال يجود بإنشاص بل يجود الآن في غيرها من المناطق المماثلة إذا طعم على الليمون البنزهير

« وكان الرأي متجهاً دائماً إلى تطعيم البرتقال على شجر النرنج فدلت التجربة في أنشاص على أن التطعيم على شجر الليمون البلدي يفيد كثيراً في الأراضي الرملية

« وأثبتت التجربة في أنشاص أن العنب يجود كثيراً في الأراضي الرملية فجاءت مؤيدة لتجربة جانا كليس ومعززة لها

« وفي حدائق انشاص استعملت بنجاح ، وفي مساحة واسعة ، طريقة تلقيح شجر القشطة تلقيحاً صناعياً بذكاء أحد الشبان المصريين الفنيين الذين تعلموا في أوربا وكانت نتيجة هذه التجربة مدهشة لدرجة أن فدان القشطة الذي كانت غلته تباع بخمسة عشر جنيهاً أعطى بعد التلقيح الصناعي مئة وخمسة وعشرين جنيهاً ولم يكن هناك غلاء حرب

« وجميع هذه التجارب كان الملك فؤاد يتتبعها بنفسه ويسأل عن نتائجها ويسر سروراً عظيماً كلما نجح شاب مصري في عمل من هذه الأعمال فيشمله برعاية خاصة وقد يأمر بدعوته إلى مقابلته ليناقشه وليقف منه على التفاصيل بنفسه

« ومما تقدم يتبين لكم كيف أضحت انشاص معهداً علمياً وعملياً في آن واحد » .

* * *

وانتقل زكي باشا إلى نقطة أخرى في الموضوع فقال :

« ومن الأمور الهامة التي روعيت في أنشاء بساتين إنشاص ، ولم يكن معمولا بها في مصر من قبل ، التوفيق بين الوجهة التجارية والوجهة الزراعية

« و بيان ذلك أن الذين أنشأوا البساتين قبلا كانوا يغرسون الأشجار حسب ورودها من المشاتل فكنت تجد الحديقة عندما تثمر مزيجاً من أشجار لا تجانس بينها ولا نظام ، ولكن في انشاص روعي أمر هام وهو الوجهة التجارية ، فقد كان الصنف يختار من أشجار معينة ، ثم تطعم الأشجار الصغيرة على الصنف الذي وقع الاختيار عليه في أماكن معينة ، فإذا وقع الاختيار على صنف معين من البرتقال طعمت عليه مساحة معينة ، وبذلك تكون الأشجار متجانسة ، وعند ما تثمر يمكن أن يقدم للتاجر من كل صنف كل الكمية التي يطلبها ، وكذلك الحال في المانجو ، فإنك تجد في انشاص لكل نوع مساحة مخصصة ، فإذا أراد التاجر كمية معينة من نوع معين وجدت بسهولة

« وماذا كان غرض الملك فؤاد من هذا كله ؟

« كان له غرض جليل ، وهو أن يشق الطريق إلى الإصدار إلى الخارج ، فتكون حدائق انشاص مثالاً أعلى لهذا الاتجاه الجديد ، فيستطيع التجار المستوردون من مصر أن يجدوا حاجتهم من نوع معين بطريقة سهلة بناء على عينة بسيطة

« ترتب على ذلك ضرورة إنشاء متحف محلي ، فإذا دخلت هذا المتحف ، وجدت مثلا نماذج للمانجو تبين كل نوع بحجمه الطبيعي ونوعه كما تبين ما يحويه من لب وسمك القشرة وحجم النواة ، فإذا أراد التاجر أن يشتري نوعاً معيناً فليس عليه إلا أن يختار النوع حتى قبل أن يثمر الشجر فيستطاع البيع على العينة الموجودة في المتحف

« وهنا أقول لكم إن الملك فؤاداً كان يروم أن يستفيد ، وأن تستفيد البلاد من كل فني في وزارة الزراعة ، أو في خارج وزارة الزراعة ، فلم نترك فنياً لم نستفد برأيه و بعلمه سواء كان ذلك من الوجهة النباتية أو الحشرية أو من الوجهة

التجارية ، ومن نعمة الله أن هذه البساتين أينعت وأثمرت في حياة جلالته ، وبيعت ثمارها بأسعار تعلو كثيراً على أسعار ثمار سائر حدائق البلاد

« ولما كانت فكرة الملك فؤاد هي تشجيع الإصدار إلى الخارج لم يكن هناك بد من إنشاء حدائق أخرى ليزيد المحصول الأهلي على حاجة الاستهلاك المحلي ، وفعلاً انشئت في الأوقاف الملكية حدائق في شلقان ، وكفر الحمام ، وكوم زمران باتياي البارود ، وكلها في طليعة بساتين مصر »

* * *

وزاد محدثي على ما تقدم قوله :

« ولماذا قال ذلك الخبير الأميركي إن حديقة المانجو التي في انشاص هي أحسن حديقة من نوعها في العالم ؟

« قال ذلك لأن الملك فؤاداً عني بجلب جميع أنواع المانجو من البلدان التي تجود فيها علاوة على الأنواع التي كانت موجودة في مصر فأحضرنا أنواعاً متعددة من سيلان والهند وجاوه وسومطره — وكلها أنواع ناجحة ، وتزيد في السوق سنة بعد أخرى »

* * *

وختم الإبراشي باشا هذا الجزء من حديثه بقوله :

« وإذا كانت هذه الحدائق قد أعطت الملك فؤاداً ثمرة مالية فما لاريب فيه أنها أفادت البلاد بإضعاف هذه الثمرة لأنها كانت مدرسة نبغ فيها كثيرون من الشبان المصريين فأفادوا بلادهم ولا يزالون يفيدونها ، وغيرت طريقة إنشاء الحدائق تغييراً تاماً وشجعت على الإصدار ، ولولا ظروف الحرب الحالية لجنت البلاد من الإصدار خيراً كثيراً

« ولم يكن الغرض الوقوف بالبساتين عند هذا الحد ، فقد كانت نية الملك فؤاد متجهة إلى جعلها أساساً ترتكز عليه صناعة من الصناعات الزراعية الهامة فنستفيد من الليمون البلدي في بعض الصناعات ونستفيد من البرتقال واليوسفي في صنع فاكهة مسكرة وشراب

« هذه الفكرة كانت موجودة وشرع في بحثها فعلا لما اختار الله الملك فؤاداً إلى جواره

« ولكن من حسن الحظ أنها تحققت ، أو أخذت تتحقق في كلية الزراعة على يد الدكتور توفيق الحفناوي بك ، فقد كان أحد الذين يدرسونها ، ولا ريب في أنه إذا استمرت البلاد في هذا الاتجاه فإنها تجني من ذلك خيراً كثيراً »

* * *

وفي جلسة أخرى استأنف الإبراشي باشا حديثه عما عمله الملك فؤاد للزراعة والفلاح فقال :

« أثبت التاريخ أن الخديو إسماعيل باشا وصل في اهتمامه بالزراعة ، وهو أمير ، إلى أن أصبح أكبر مزارع في مصر كما قال قنصل أميركا في القاهرة في تقرير كتبه إلى حكومته لما تولى إسماعيل الحكم

« فلاغرابة إذن أن يكون بين أنجال هذا العاهل العظيم مثل السلطان حسين وقد لقب بأبي الفلاح

« والواقع أن الملك فؤادا كان صديق الفلاح وحامي الفلاح . حدثني عن نفسه أنه لما عاد من أوربا ، وهو شاب ، عني بالزراعة عناية خاصة في تفتيش كان موقوفاً عليه منذ طفولته ، وظل هذا التفتيش محبباً إلى نفسه حتى آخر حياته

« كان يعرف هذا التفتيش حوضاً حوضاً وقطعة قطعة ، وكان يعرف كثيراً من سكانه وعمدته ومشايخه معرفة شخصية ، وكان يحادثهم في زياراته السنوية له حديث من عاشرهم زماناً طويلا

« قال لي جلالته إنه كان كثير التردد على هذا التفتيش و إنه كان يشرف على زراعته بنفسه حتى أنه كان يقف في الغيط في شهري مايو و يونيو يلاحظ الفلاحين بشخصه وهم يخدمون القطن وقد بنى له داراً جميلة في هذا التفتيش ليقيم فيها من وقت إلى آخر وأنشأ بجوار هذه الدار حديقة غرس فيها أنواعاً كثيرة من الفاكهة

« ولاحظ يومئذ — أي وهو أمير — أن حالة الفلاحين غير صالحة من جهة السكن والمعيشة والظروف الإجتماعية فكان ماء الشرب أول ما اهتم به فأوجد لهم طلمبة ارتوازية ليشربوا من مائها ولايزال رجال التفتيش يشربون منها إلى الآن وماؤها عذب ومن خير مايشرب الناس من الآبار الارتوازية

« وكان يبر بالفلاحين في الأعياد والمواسم فيوزع عليهم الكساوى واللحم والحلوى وغير ذلك

« فلما أُلقيت على عاتقه أعباء الملك ظل هذا التفتيش محبباً إلى نفسه وزادت عنايته به فأنشأ فيه من المساكن للفلاحين ومن المخازن والاصطبلات ما يصح أن يكون نموذجاً يحتذى لا في مصر وحدها بل في أرقى بلدان العالم كذلك ثم عنى بإصلاح أراضيه وظل يتتبع مراحل هذا الاصلاح بنفسه إلى أن وصل هذا التفتيش إلى درجة تجعله في المرتبة الأولى بين التفاتيش الزراعية في البلاد

« وعنى بمحصولاته حتى أنتج في إحدى السنين ما أدهش رجال الفن الزراعيين في وزارة الزراعة فأنتج فدان القطن بمتوسط ٨ ½ قنطار من صنف جيزه ٧ والقمح ١١ أردباً من الصنف الهندي والفول ١٢ أردباً والأرز — وقد زرع في بعض الأطيان — ٣ ⅕ ضريبة والذرة ١٨ أردباً — وهي أرقام تعد مدهشة إذا اجتمعت لتفتيش في سنة واحدة ولم نصل إلى هذه النتيجة إلا بسبب العناية بالري والصرف وتنظيم دورة ثلاثية نفذت بدقة ومراعاة نظافة الأرض من

الحشائش الضارة ومقاومة الحشرات واستخدام أحدث الطرق الفنية

« ولم تقف عناية الملك فؤاد عند هذا الحد بل وصل إلى إنتاج أحسن قطن في مصر لا في هذا التفتيش وحده بل في سائر تفاتيشه كذلك وفي أطيان الأوقاف الخصوصية الملكية

« وكان المعروف في البلاد وعند التجار أن قطن الدومين في مصلحة الأملاك هو أحسن قطن مصري وكان من المعروف كذلك أن المغفور له الأمير كمال الدين حسين ينتج أحسن قطن فى مصر فاستطاع الملك فؤاد فى آخر سني حياته أن يوفق بعنايته الشخصية المتواصلة إلى إنتاج أنواع من القطن هي بلا شك أحسن ما تنتجه أرض مصر من القطن وسلم التجار والمشتغلون بانتخاب القطن وإصداره أن الملك فؤاداً ينتج سيد أقطان العالم

« وكان من عادتي أن أبيع قطن الملك فى عدة جلسات علنية أرأسها بنفسي ولم يكن التجار الذين كانوا يحضرون فى بادىء الأمر من تجار الطبقة الأولى فى القطن ولكن عناية جلالته بهذه الزراعة وتتبعه لها سنة بعد أخرى والاستئناس بآراء الفنيين والعمل بنصائحهم — كل ذلك أدى إلى ازدياد عدد الذين يحضرون المزاد من أرقى طبقات التجار وكان الأجانب منهم يحضرون مع المصريين و يشتركون في المزاد اشتراكاً فعلياً و بعد ما كان الأجانب فى أول الأمر يرسلون مندوبين عنهم صاروا يحضرون بأنفسهم و يشتركون فى المزاد بأشخاصهم احتراماً لهذه المزادات وتقديراً للجهود التي كانت تبذل لتحسين هذه المحصولات

« وكان الملك يرتاح ارتياحاً عظيما لا إلى الأثمان العالية التى كنا نحصل عليها والتي لم يكن لها مثيل بل إلى ما كنت أنقله إليه عما يتحدث به التجار من أن قطنه يحتل المكان الأول بين أقطان مصر كلها

« وحدث مرة أن حضر المسيو الكسندر بينا كي وهو من كبار تجار القطن

واشترك فى المزاد وأعلن أنه كان يشتري دائماً قطن المغفور له الأمير كمال الدين حسين وكان يعده أحسن أقطان العالم فلما توفي سموه ظن أنه لن يجد لهذا القطن بديلاً ولكنه لم يلبث أن شعر بدهشة عظيمة لأن بعض أقطان الملك فؤاد فاقت أقطان الأمير كمال الدين حسين ، و إظهاراً لإعجابه أعلن في الجلسة أنه يزيد في ثمن هذا القطن خمسة ريالات على أعلى ثمن يصل إليه القنطار ونفذ ذلك فعلاً

« ولم يكن حضور جلسات المزاد مظهراً من مظاهر المجاملة فان التجار لايضيعون وقتهم في مجاملات ولكنهم كانوا يحضرون حرصاً على عدم إفلات هذه الأقطان من أيديهم ولكي يفوزوا بها إذا استطاعوا ذلك

« ولم يكن هم الملك فؤاد مقتصراً على إبلاغ القطن وحده المرتبة الأولى بل كان تفكيره متجهاً إلى تحسين أنواع جميع المحصولات الأخرى فكان هناك في تفتيش الفاروقية نوع من القمح الهندي إذا طحن أعطى ٨٥٪ دقيقا فضلا عن أنه يشتمل على نسبة عالية من « الجلوتين » ومن المعروف أن كندا مثلا وهي من أحسن البلدان التي تنتج القمح لاتزيد فيها النسبة التجارية العادية على ٨٠٪ ولم يكن من المتيسر الحصول على نسبة عالية تصل إلى ٨٥٪ إلا في بعض مقاطعات روسيا ورومانيا

« أما فيما يتعلق بالشعير فقد عني بنوع استنبطه الفنيون بوزارة الزراعة من أنواع الشعير البلدي فأكثرنا من زراعته فى أدفينا وغيرها . ودلت التجربة على أنه صنف يصلح لصنع البيرة و يباع في الأسواق بأثمان أعلى من أثمان أصناف الشعير الأخرى ولايزال هذا الصنف ينتشر باطراد في البلاد و يستخدم في صنع البيرة . وانتهزت فرصة وجودي في أوربا في سنة ١٩٣٥ فزرت بعض مصانع البيرة وعرضت عليهم هذا الصنف من الشعير فأكد لي الفنيون في تلك المصانع أنهم يستطيعون استخدامه في صنع البيرة بدلا من أن يستوردوه من تشكوسلوفاكيا وغيرها

« أما الفول فكان له من الخاصة عناية كبيرة إذ كنا ندخل على صنفه تحسيناً يطرد سنة بعد سنة لنصل إلى تكبير حبوبه وجعلها متماثلة في اللون والشكل

« هذا فيما يتعلق بالمحصولات الرئيسية . وفيما يتعلق بالقصب مثلا عنيت الخاصة بإرشاد الملك بزراعته عناية فائقة واسترشدت بتجارب المجربين في زراعته و بعلم فني أميركي كبير خدم الحكومة المصرية وساعد شركة السكر زماناً طويلا فحصلنا بذلك على نتائج تماثل ماتصل إليه سائر التفاتيش والزراعات المعنية بالقصب سواء كان ذلك من حيث كمية المحصول في الغرس والخلفة أو من حيث الحلاوة ونسبتها العالية

« وكان جلالته يعنى بكل محصول مهما يبدو لأول وهلة أنه غير كبير القدر فكنا نسعى لتحسينه والاستفادة منه لأقصى درجة »

* * *

وهنا أخذ سعادة محدثي يتكلم عما صنعه الملك فؤاد للفلاح بوجه خاص فقال :

« ولم تكن فكرة الملك فؤاد متجهة إلى الكسب عن طريق الزراعة و إهمال شأن الفلاحين بل كانت له غاية اجتماعية سامية بدأ يحققها وهو أمير بتحسين حالة الفلاح كما تقدم ولكن لما تبوأ العرش واتسع الأفق أمامه رأى أن يدخل نظاماً اجتماعياً جديداً كان يؤمل من أعماق قلبه أن يكون نواة صالحة لإصلاح اجتماعي شامل يتحقق تدريجاً مع الأيام فقد كان جلالته لايؤمن بالطفرة بل يرى أن كل إصلاح يتم بالتدريج يكون أثبت أساساً وأكثر رسوخاً وأحب إلى النفوس من غيره علاوة على أنه يتيح للقائمين به فرصة لإصلاح الأخطاء التي تكشف عنها التجربة

« فماذا عمل ؟

« بدأ بتحسين مساكن الفلاح فعمَّم هذا النظام في جميع التفاتيش التي يملكها

وأوجد من المساكن ما بني على أساس صحي سليم متين وجعل للماشية زرائب خاصة غير متصلة بالمساكن وروعي في البناء توفر التهوية الكافية ودخول الشمس إلى البيوت واتساع الطرق حتى ليخيل إلى المرء وهو يسير في عزبة من العزب الملكية أنه في بقعة من مدينة راقية

« وسبق أن أشرت إلى أن كبيراً من كبار الانجليز — وهو النائب بوسن — حضر إلى مصر خصيصاً ليعرض على الملك بعض آرائه في إصلاح مساكن الريف فلما زار انشاص ورأى المساكن التي أنشأها الملك فؤاد فيها قال إنه ليست له ملاحظات يبديها غير إعجابه بكل ما رأى

« قال ذلك الكبير الانجليزي ما قاله في وقت كانت تلك المساكن قد بلغت فيه حالة مرضية ولكني لا أدري ماذا كان يقول لو زار التفاتيش بعد سنتين أو ثلاث سنوات لأنه كان يرى حتماً ما هو أعجب مما رآه في المرة الأولى بمراحل

« و بيان ذلك أنني زرت مرة تفتيشاً لأحد السويسريين في الدقهلية وكان معروفاً عن هذا الرجل — رحمه الله — أنه من الذين يحبون المصريين و يعملون لما فيه خيرهم فأعجبني جداً عند زيارتي لتفتيشه أنه لا يكتفي بانشاء مساكن حسنة للفلاحين بل كان يبني بيوتهم من طابقين فلما عدت من زيارتي وأفضيت إلى الملك بما رأيت سر كثيراً وأعجب بعمل هذا الأجنبي فعلت منزلته عنده وأكرمه حتى أنه لما توفي أوفد مندوباً للاشتراك في جنازته والناس لا يعلمون سر هذا العطف

« ولما انتهيت من سرد ما شاهدته في عزبة ذلك الأجنبي قال جلالته : أيجمل بي وأنا ملك مصر أن أكون أقل عناية بالفلاح المصري من هذا الرجل ؟

وأمرني جلالته في تلك اللحظة بأن أغير خطة بناء المساكن وأن أجعل دائماً

بيت الفلاح من طابقين فيتمتع بالسكن في الطابق العلوي على الأقل في فصل الصيف

« ثم أمر بأن يكون في كل عزبة من عزبه مصلى وهو جامع صغير ومكان للضيافة ودكان تباع فيه حاجات أهل العزبة وأن يوجد ماء صالح للشرب وأحواض لشرب الماشية يصل اليها الماء نظيفاً وأن تكون الشوارع دائماً في غاية من النظافة وأن تغرس على جوانبها الأشجار

« وزاد في عنايته فأمرني بأن أقرر مبدأ صرف مكافآت للفلاحين الذين يعنون بنظافة بيوتهم وأن تؤلف لتوزيع هذه المكافآت لجنة فيها طبيب فتتفقد مرة فى الأسبوع وفي أوقات غير معروفة نظافة المساكن وتضع لها درجات ثم تجمع هذه الدرجات في آخر السنة وتعين المكافآت من ثلاث درجات فالذين يفوزون بالدرجة الأولى يمنحون اثنا عشر جنيهاً والذين يفوزون بالدرجة الثانية يعطون ثمانية جنيهات والذين يفوزون بالدرجة الثالثة يصرف لهم ستة جنيهات . وكان لكل فلاح الحق في أن ينال مكافأة طبقاً لدرجة نظافة مسكنه وكنت أوزع هذه المكافآت في حفل محلي يحضره أهل التفتيش فتبسط لهم المبادىء والقواعد التي بنيت عليها المكافأة ثم توزع المكافآت على الفائزين وكانت تزداد كل سنة على ما كانت في السنة التي قبلها

« وكان الملك فؤاد يعنى بالوقوف على مدى التقدم الذي تتقدمه العزب من هذه الناحية ولاحظ مرة وهو آسف أن واحداً من الأهلين لم ينل درجة ما في السنة بطولها فقال إن مثل هذا الشخص جرثومة يجب استئصالها لأن النظافة والعناية يجب أن تكونا في مقدمة ما يعنى به أصحاب الأطيان

« وأمر جلالته بأن يكون في كل تفتيش مستوصف للعناية بصحة الأهلين ومعالجة مرضاهم وأنشأ في أكبر تفاتيشه وهو تفتيش ادفينا مستشفى كاملاً يحتوي

على قسم للجراحة وآخر للطب الباطني وقسم ثالث للنساء والولادة وقسم رابع للرمد وكان الأطباء يعملون عمليات كبيرة في هذا المستشفى بنجاح فاذا بلغ أمرها جلالته سر به سروراً عظيماً

« وأمر جلالته كذلك بأن يكون العلاج مجاناً وبأن تصرف الأدوية مجاناً كذلك

« وكان تفتيش أدفينا مباءة لبعوض الملاريا ومرتعاً خصباً لهذه الحمى الخبيثة فصرف جلالته همه في القضاء عليها غير مبال بالأموال الطائلة التي كان ينفقها في هذا السبيل من إرسال كميات عظيمة من الكنين إلى تجفيف المستنقعات وتحققت غايته قبل وفاته فإن اهتمامه المستمر كان الحافز إلى ردم جميع المستنقعات التي كانت في هذا التفتيش وتبلغ مساحته ١٦ ألف فدان فأضحت الإصابات بالملاريا في أدفينا نادرة بعد ما كانت وباء متوطناً

« وكان في كل تفتيش مدرسة أولية لتعليم أبناء الفلاحين

« ونشأ من هذه العناية بصحة الفلاحين وعقولهم أنهم أصبحوا أقدر على خدمة الأرض وفلاحتها فكافأه الله على الخير الذي أسداه إليهم بزيادة الغلة زيادة تفوق كل ما كان يؤمله وبعد ما كان السكن في أدفينا كريهاً وغير محبب إلى النفس صار الفلاحون يعدونه نعمة على ساكنيه فأقبلوا عليه من كل صوب يلتمسون الرزق فيه ويلحون في قبول طلباتهم لا مني وحدي بل من جميع رجال التفتيش وكان الملك كلما درى بذلك يوصيني بأن لا أدخر وسعاً في قبولهم وفي العمل لما فيه راحتهم وكانت أمامي مشكلة المباني ولم تكن مشكلة هينة فقد كان جلالته يريدها مباني جميلة ذات طابقين كما قدمت فكان يحثني على بذل ما فوق الطاقة لزيادة عدد هذه المساكن إراحة للفلاحين الراغبين في العمل في تفاتيشه

« ولكي أصور لك صورة صغيرة من ذلك المجهود العظيم أذكر انه لما توليت

العمل كان عدد سكان تفتيش أدفينا ثلاثة آلاف تفتك فيهم الأمراض ولا سيما الملاريا فغادرت التفتيش وعدد سكانه ٧٥٠٠ نسمة

« وزار تفتيش أدفينا رجل روسي ولما أتم زيارته قال لي : ما كنت أعتقد قط إن ملك مصر يعتني برعيته وبساكني تفاتيشه كل هذه العناية أو بعضها ولو فعل قياصرة الروس بعض ذلك لما نشأت البلشفية في روسيا

« ولم تكن عناية الملك فؤاد بساكني تفاتيشه ومزارعه تنتهي عند الاهتمام بصحتهم بل كان يساعدهم على اقتناء المواشي الكافية وأن تكون فى كل بيت جاموسة تدر اللبن لأهله ولم يكن هناك بيت واحد ليست فيه جاموسة أو بقرة وقد كوفىء على هذا الخير بما نوهت به قبلا أي بزيادة قدرة الفلاحين على خدمة الأرض وفلاحتها فزادت غلتها »

* * *

وهنا حدثنا الإبراشي باشا عن أمر ظل مجهولا جهلا تاماً في حياة الملك فؤاد ولم يعرفه سوى عدد يسير جداً من الناس . قال :

« وكان الملك فؤاد بعد تجربته الطويلة يرى أن نظام الإيجار بالنقد غير صالح تماماً وإنه لا يقوى على مواجهة الأزمات فأبدله بنظام يقوم على اشتراك المستأجر مع المالك فى الغلة ووصل في كرمه إلى أنه كان ينزل لمزارعيه عن نصف غلة كل محصول وطبق هذا النظام على أكبر تفاتيشه وهو تفتيش أدفينا فأفضى إلى نتيجة مرضية جداً وكانت نية جلالته متجهة إلى تعميمه فى سائر تفاتيشه

« ومن أغرب ما أظهرته هذه التجربة أنه لما شعر الفلاح بأن نصف ما تنتجه الأرض أصبح يؤول إليه واصل العمل ليلا ونهاراً وبذل مجهوداً كبيراً فكانت النتيجة باهرة وعادت بالخير على الفلاح وعلى الأرض معاً »

* * *

ومضى سعادة محدثنا في التكلم عن بر الملك فؤاد بالفلاح فقال :

« ولم يكن حدبه على الفلاح مقتصراً على ما تقدم بل كان من أحب الأمور إليه أن يدخل السرور على قلوب مزارعيه بطرق شتى وكان يأمرني بمشاركتهم في أفراحهم السنوية فتقام الموالد وتذبح الذبائح وإذا كان المولد ذا مقام خاص في نفوسهم شهدته بنفسي

« وقد قلت قبلا أنه كان من عادة جلالته أن يزور تفاتيشه مرة في السنة على الأقل فأقول هنا أن هذه الزيارة كانت فرصة يجتمع فيها بجميع المسؤولين عن أعمال التفتيش فيحادثهم ويناقشهم ويبدي لهم ما يعن له من ملاحظات ثم يضع السياسة التي يجب اتباعها في السنة أو في السنوات التالية فيكون هذا اليوم يوماً مشهوداً ذا نتائج باهرة

« وكان يطيب له في ذلك اليوم أن ينسى أنه ملك ويكره أن يناديه الفلاحون بلقب الملك وأن يهتفوا له لرغبته في أن يشعر بأنه فرد من الأفراد يعيش عيشة بسيطة في وسط موظفيه وفلاحيه متفقداً حالتهم باحثاً معهم كل ما يعود عليهم بالخير وكذلك كانت الزيارة فرصة لمنح الموظفين مكافآت وعلاوات وفي بعض الأحيان كان ينعم عليهم برتب ونياشين مكافأة لهم على إخلاصهم من جهة وتقديراً لخدماتهم للفلاحين من جهة أخرى »

* * *

وقال الإبراشي باشا بعد ذلك :

« وبعد ما أدرك الملك فؤاد هذا النجاح العظيم في مشروعاته الزراعية فكر في أن يخدم مصر من ناحية أخرى لم تكن محل عناية كبيرة من كثيرين فوجه سياسته الزراعية إلى تربية الماشية لأغراض شتى أولها تحسين اللبن وثانيها زيادة

اللحم وثالثها رفع مستوى مواشي الخدمة في الغيط وعني كذلك بتشجيع تربية الأغنام المصرية بعد ما فقدت كثيراً من مزاياها

« ونجح جلالته في ذلك بعد ما استورد من أوربا من أنواع الماشية شيئاً كثيراً فاستورد من هولندا « البقر الفريزيان » ومن انجلترا «الشورت هورن» ومن فرنسا « الشارولیه » ولم يهمل لحظة واحدة العناية بالمواشي المصرية وأشهرها الفصيلة البقرية في المنوفية والبقرة الدمياطية والجاموس أينما وجد حتى أنه فكر في استيراد جاموس من العراق ومن جاوه بل من الصين كذلك وأوجد لهذه المواشي من الزرائب ما لا مثيل له في مصر بتاتاً

« وعلم جلالته أن البابا أنشأ للبقر زريبة على أحدث الطرق الفنية فبزت جميع الزرائب التي من نوعها في اوربا فلم يسترح جلالته إلا بعد ما جلب رسوم هذه الزريبة وأمر بإنشاء زريبة على مثالها في أدفينا بعد إدخال تحسينات رئي ادخالها عليها وأنشأنا إلى جنب الزريبة مكموراً للسباخ يدار بطريقة ميكانيكية وينقل منه السباخ إلى الأطيان بطرق تسر خاطر من يشاهدها

« وزرت كثيراً من مزارع البلجيك وهولندا وفرنسا والدنمرك فلم أر فيها شيئاً يضارع ذلك »

* * *

وعاد سعادة محدثي إلى التنويه بتشجيع الملك فؤاد للفنيين المصريين فقال :

« وكان من أكبر ما يسره أن يعلم أن الفنيين المصريين يجدون في تفاتيشه كل ترحيب وكل تشجيع فالفضل في إنشاء الإصطبلات يرجع إلى اثنين من الشبان المصريين وضعا رسومها بعد ما درساها معي شهراً كاملاً و إنك لتدهش إذا علمت أنه بعد ما درست تلك الرسوم شهراً كاملا مع ذينك الشابين اللذين تعلما تعليماً فنياً راقياً في أوربا عرضت نتيجة البحث على جلالته فأصغى إليّ بانتباه شديد

ما يقرب من ساعة لم يقاطعني في أثنائها فلما انتهيت من الكلام قال لي إنه يسره أن يكون بين الفنيين المصريين من حذق هذا العمل وأن لا مانع عنده من تنفيذ مشروعهما بأكثر ما يقتضيه تنفيذه من مال ولكنه طلب إليّ أن أرجىء الشروع في ذلك إلى أن اطلع على بحث في هذا الموضوع أعده بعض الفنيين في فرنسا ونشر في مجلة زراعية ثم تفضل وأحضر هذه المجلة من مكتبه الخاص وأعطاني أياها وأوصاني بقراءة البحث فدهشت إذ وجدت أنه كان قد أشر على المقالة بقلمه كمن كان يريد أن ينبهني إليها ولم يكن يدري أنني منهمك بهذا البحث ولما اطلعت على البحث الذي تضمنته تلك المقالة سرني أن ألاحظ أن المبادىء التي أشار إليها العلماء الفرنسيون هي نفس المبادىء التي أشار بها الشابان المصريان فلما رفعت إليه هذه النتيجة قال لي : «إنني عرفت ذلك مما عرضته عليّ في المرة الأولى فالآن يمكنكم أن تنفذوا المشروع» فنفذناه على أحسن حال وكان ارتياحه كبيراً لما زار التفتيش ورأى ثمرة البحث مع هذين الشابين

« لقد كان رحمه الله كثير الاطلاع في جميع النواحي ومنها الناحية الزراعية فكان كلما وقف على شيء هام نبهني إليه بل كان يتفضل أحياناً بشراء بعض الكتب ويعطيني إياها لأطلع على ما جاء فيها فتزداد بذلك معلوماتي »

* * *

وقص عليّ الأبراشي باشا بعد ذلك قصة رائعة تتصل اتصالا وثيقاً بعمل الملك فؤاد الزراعي وتصف مدى احترامه للعلم وشدة تقديره لرجاله . قال :

« لما اشتهر في الأوساط الأجنبية أن الملك فؤاداً يعنى بالزراعة تلك العناية العظيمة ولا يغفل فرعاً ما من الفروع المتصلة بها كاشفه بعض أفاضلهم بأن الأكاديمية الفرنسية الزراعية ترى أنه مما يشرفها أن يكون جلالته عضواً فيها فأجابهم بقوله أن مما يشرفه هو أن يكون عضواً فيها كما كان له من قبل الشرف بأن

يكون عضواً في الأكاديمية الفرنسية ولكنه يريد أن يعرف على أي أساس يختارونه عضواً وما هو الفرع الذي سيكون عضواً فيه لأنه يعلم أن في الأكاديمية الفرنسية للزراعة فروعاً متعددة فأجيب بأن المكان الخالي هو عن الغابات فقال وما شأني بالغابات و بلادي فقيرة في الأشجار ونحن لم نبذل بعد مجهوداً في هذا السبيل ؛ واعتذر بلطف عن عدم قبول العضوية

« و بعد أشهر عاد إليه رسولهم يعرض عليه العضوية في فرع تربية الماشية فأجاب بأنه شاكر للأكاديمية فضلها في التفكير فيه دائماً ولكنه يرى أنه غير جدير بهذه العضوية لأنه لا يزال مبتدئاً في تربية الماشية وأنه سيوالي حتماً العناية بهذا الفرع بكل ما أوتي من قوة أما الآن فإنه لم يبلغ بعد النتيجة التي تجيز له أن يكون عضواً في هيئة علمية عالية كهيئة الأكاديمية الزراعية

« وكرر اعتذاره في هذه المرة كذلك

« وكأنما كان اعتذاره الثاني حافزاً للأكاديمية على التشبث بعضوية هذا الرجل العظيم الذي يعلم حق العلم مقدار الشرف الذي يصيب المرء من عضويته في هيئة علمية عالية القدر كهذه ومع ذلك يبدي من أسباب الاعتذار ما ترتاح إليه النفس الكريمة — فانتهز رجالها فرصة خلو عضوية ثالثة في فرع إصلاح الأراضي والعناية بشؤون الفلاح وألحوا عليه في قبولها قائلين إن ما وصل إلى علم الأكاديمية عن عنايته بمزارعه وتفاتيشه وإصلاح الأراضي يبعثهم على الرجاء بأنه سيقبل عرضهم هذه المرة فكان جوابه : إنه لشرف كبير أن أكون محل عناية هذه الأكاديمية إلى هذا الحد والآن لا أستطيع الاعتذار ولكني أريد أن أكون مطمئناً أمام نفسي إلى أنني أستحق هذه العضوية ولذلك أشترط أن تنتدب الأكاديمية فنياً يزور تفاتيشي ويقدم لها عنها تقريراً من الناحية الفنية

فإذا رأت بعد اطلاعها عليه أنني جدير بأن أكون عضواً وقررت ذلك قبلت قرارها بارتياح

« وأكبرت الأكاديمية هذا الشعور السامي وندبت فعلا المسيو الجدور — وكان كبير الخبراء في البنك العقاري — ليزور التفاتيش الملكية ويضع عن كل تفتيش منها تقريراً فزارها واحداً بعد واحد ولما عرضت هذه التقارير على الأكاديمية قررت بالإجماع انتخاب الملك فؤاد عضواً عن الفرع الذي رشح له وسر رحمه الله بذلك وقال الآن أقبل هذه العضوية مرتاحاً بعد ما قرروا أنني أستحقها

« ودعا جلالته بعد ذلك عضوين من زملائه أعضاء الأكاديمية إلى مصر على نفقته ليريا بنفسيهما ما وصفه المسيو الجدور وصفاً موجزاً فقبلت الأكاديمية الدعوة بالترحيب والشكر وأوفدت إلى مصر اثنين من أعضائها فلم يتشرفا لسوء الحظ بمقابلة جلالته لمرضه فقابلتهما بأمر منه وأبلغتهما رغبته في أن يوافياه بما قد يبدو لهما من ملاحظات على التفاتيش بعد زيارتهما لها ، ثم رافقتهما في زيارتها كلها فرأيا نتيجة مجهوده المتواصل وثمرة سهره على خدمة الزراعة في مصر وسافرا بعد ما رغبا إليّ في أن أقدم للملك شكرهما وأن أنقل إليه أنهما شاهدا في تفاتيشه ما لم يكن يخطر لهما ببال وقال أحدهما وهو المسيو هيتيه إنه يجب على فرنسا أن تحتذي في الجزائر وتونس مثال الملك فؤاد في مصر

« ولما وصلا إلى فرنسا قدما للأكاديمية تقريراً نفيساً عن زيارتهما ومشاهداتهما وقد تلي هذا التقرير في جلسة دعي إليها وزير مصر المفوض في فرنسا »

* * *

وهنا جاء ذكر الظروف التي أنشىء فيها المتحف الزراعي فقال سعادته :

« حدث مرة أن سألني جلالته هل زرت بودابست فقلت لم يكن لي هذا الحظ يا مولاي فقد سافرت إلى أوربا ولـكني لم أر منها سوى فرنسا وسويسرا

« فقال جلالته إن المجر عنيت بانشاء متحف زراعي لم أر له مثيلا في أوربا وسأعطيك كتيباً صغيراً عن هذا المتحف لتقرأه ثم تكلمني في شأنه

« ولما فرغت من قراءة الكتيب أخبرت جلالته بذلك وقلت إنني معجب بكيفية تنظيم هذا المتحف فقال ألا تظن أن مصر وهي بلد زراعي في حاجة إلى متحف مثله ؟

« فقلت بلا شك يا مولاي ولـكن الأمر يقتضي مجهوداً شاقاً

« فقال جلالته : ولِمَ لا يبذل . فلنبدأ باقناع وزير الزراعة فاذا اقتنع سعينا لإقناع وزير المالية ورئيس الحـكومة فإذا اقتنع الجميع بفوائد المشروع خطونا خطوة التنفيذ

« وظل جلالته يرعى هذه الفكرة إلى أن قبلتها الحـكومة واختار بنفسه المـكان الذي أعد للمتحف وهو سراي المغفور لها الأميرة فاطمة ثم طلب من الحـكومة أن تدعو فنياً من المجر ليؤسس هذا المتحف وينشئه على غرار متحف بودابست

« ولما بدأ العمل كان يراقب سيره بنفسه ويوفدني من وقت إلى آخر لأطلع على مدى تقدم مراحله وأهدى إليه من تفاتيشه ما كان نواة صالحة له وما زال يتعهده بعنايته حتى تم في أواخر عهده وافتتحه جلالة الملك فاروق

« وإن من يزور هذا المتحف زيارة مدقق يبغي الفائدة الزراعية من زيارة كهذه يخرج ظافراً بمعلومات فنية ذات قيمة كبيرة . وإن المرء ليعجب بعد ما تم هذا العمل العظيم من المجهود الذي بذل لجمع معلومات زراعية فنية وما يتصل بذلك من صناعات زراعية لا حصر لها في صعيد واحد ، وقد شاء الملك فؤاد أن يكمل

فائدة هذا المتحف من الوجهة العلمية البحتة فأنشأ فيه قسماً خاصاً بالزراعة في أيام الفراعنة وأوجد في هذا القسم من محصولات مصر الزراعية وحيواناتها ونباتها وطريقة معيشة أهلها ما هو محل إكبار وإعجاب كل من زار هذا القسم التاريخي في متحف فؤاد الزراعي »

* * *

وقال زكي باشا بعد ذلك :

« والواقع أن نظرة الملك فؤاد إلى الزراعة فى مصر كانت قائمة على الرغبة الصادقة فى إعلاء شأنها وإسعاد أهلها وكان في سبيل ذلك لا يبالي بما ينفق من مال

« وإني أشعر بأنه ليس بين المصريين إلا قليلون جداً يعرفون أن جلالته أنفق من ماله ما يربى على مليون جنيه في تفتيش واحد وهو تفتيش ادفينا أكبر تفاتيشه

« أنفق هذا المبلغ العظيم في شرائه وإصلاحه وفي كل ما يعود بالخير على ساكنيه ولم يكن ينفق كل ريع هذا التفتيش وحده بل كان يضيف إليه كل سنة مالا كثيراً من جيبه ويثابر على هذه السياسة وهو يعلم أنه لا يدخل خزينته قرش واحد من هذا التفتيش مؤملاً أنه سيأتي اليوم الذي يستفيد شخصياً مما أنفقه ولكن كان هناك شيء واحد لم يغفل عنه وهو أنه لا يمر يوم من دون أن تغدق فيه حسناته على ساكني هذا التفتيش والأراضي المجاورة له وكانت النتائج السنوية تشجعه كثيراً على المضي في هذا الطريق الصالح واضعاً دائماً مصلحة ساكني التفتيش وجيرانه فوق كل اعتبار

« وقلت لجلالته مرة إن إصلاح هذا التفتيش المترامي الأطراف غير ممكن ما دامت حالة الري فيه على غير ما يرام فان هذا التفتيش كان يروى من ترعة

الرشيدية وهي آخر ترعة في شمال مديرية البحيرة ووصول الماء إليها صعب شاق وفي فصل الصيف يجد رجال الري مشقة وعنتاً في إيصال الماء إليها فقلت لجلالته كيف يمكن مع هذا إصلاح ١٦ ألف فدان وعرضت عليه أن انفق من ماله نحو خمسين ألف جنيه لأنشىء محطات ري على النيل مباشرة وأحفر ترعة طولها خمسة عشر كيلومترا على نفقته لنسقي التفتيش بماء نحصل عليه بآلات الري من النيل عندما يصبح النهر في تلك المنطقة منقطعاً عن القناطر الخيرية فلا تصل إليه من الماء الصيفي قطرة واحدة ويتحول إلى بركة يتجمع فيها ماء الرشح وهو ماء وإن احتوى على بعض الملوحة يصلح تماماً لري الأطيان ويمكن أن تروى منه أطيان التفتيش وبهذه الكيفية يترك ماء الترعة الرشيدية للجيران فيكون من وراء ذلك رحمة بالجيران وإصلاح للتفتيش وإراحة لموظفي الري من غير إضرار بأحد فان الماء الذى سيروى منه التفتيش صيفاً هو ماء رشح يلقى في البحر المتوسط عندما يرد ماء الفيضان ويستعان به أحياناً في تغذية ترعة المحمودية عند ما يشح الماء وما يؤخذ لتفتيش أدفينا بالآلات لا يؤثر في ترعة المحمودية مطلقاً

« بسطت لجلالته ذلك بعد ما درست الموضوع درساً وافياً فأقرني رحمه الله على فكرتي وقال إذا استطعت أن تقنع رجال الري بذلك فافعل

«وكنت واثقاً من أن رجال الري يستقبلون المشروع أحسن استقبال ويعدونه نعمة وبركة عليهم لأنه فضلاً عن أنه لا يكلف الحكومة شيئاً سيمكنهم من مد جيران الملك بماء ترعة الرشيدية ولم يخب ظني فاني لما عرضت المشروع على مفتش الري المختص — وكان انجليزياً — قابله بارتياح شديد مشترطاً أن لا ننتفع بماء الترعة الرشيدية صيفاً وأن تسد الفتحات التي للتفتيش على هذه الترعة فقلت له إنني لما فكرت في المشروع بنيته على هذا الأساس أي على أساس سد الفتحات التي على ترعة الرشيدية وزدت على ذلك قولي إنني سأسد هذه الفتحات

على نفقة الملك وسأسدها بالأسمنت المسلح حتى يكون واثقاً من أن النية خالصة فأعطاني الترخيص في خلال سبعة أيام أتم فيها بحوثه ، وكانت هذه خطة الخاصة الملكية أي أنها تخضع كالأفراد في جميع أعمالها لأحكام القوانين واللوائح بكل تدقيق ، ونفذت المشروع فعلاً فكلف ما يربي قليلاً على خمسة وأربعين ألف جنيه أنفقتها من مال الملك فردها الله إليه مضاعفة إذا سار الإصلاح في التفتيش بسرعة مدهشة وزادت خيراته و بركاته زيادة طيبة

« وحدث أن شح ماء النيل في سنة ١٩٣١ وخشى الناس أن لا يتمكنوا من إطفاء الشراقي لزراعة الذرة والذرة كما هو معلوم غـذاء الفلاح فأقلقت هذه الحالة الملك فؤاداً وشغلت باله وخصوصاً فيما يتعلق بمديرية البحيرة فان رياح البحيرة ليس من الكفاءة بدرجة تجعل الري في البحيرة مطمئناً وتزداد حالته سوءاً إذا شح ماء النيل ولم يغذ التغذية الكافية من القناطر الخيرية فيجب في هذه الحالة تغذيته من ماء « بركة النيل » في فرع رشيد

« فما كان من جلالته ألا أن أمرني بأن أبلغ رئيس الحكومة — وكان إذ ذاك دولة اسماعيل صدقي باشا — هذا الاهتمام من جانبه بالحالة مع رجائه ببذل أقصى جهد لكي يتم ري الشراقي في جميع المديريات على أحسن حال وفي أسرع وقت مستطاع وخصوصاً في مديرية البحيرة

« واهتم دولة صدقي باشا بالموضوع اهتماماً كبيراً وترأس اجتماعاً من كبار رجال الري فكان من رأي بعضهم أن إطفاء الشراقي ممكن ومتيسر ولكنه يخشى إذا أخذ الماء بكمية كبيرة من بركة النيل في فرع رشيد أن يؤثر ذلك في طلمبات ري أدفينا القائمة على النيل وقد تموت زراعة هذا التفتيش عطشاً . . .

« فلما رفع ذلك إلى مسامع الملك فؤاد قال بغير تردد : لتمت زراعة ادفينا إذا كان في ذلك مصلحة لأهل البحيرة بإطفاء شراقيهم في الميعاد المناسب

« وأمر صدقي باشا رجال الري بادارة طلمبات العطف وتغذية ترعة المحمودية تغذية كافية لري الشراقي في البحيرة فتم الري على أحسن حال وزال الخطر عن الزراع

« ولحسن الحظ لم تقف طلمبات أدفينا على رغم من هبوط منسوب بركة الفيل إلى ما تحت ٤٠ سنتيمتراً وسلمت زراعتها ولم يضع على الملك شيء كما كان بعض رجال الري يخشى

« ومما آسف له أشد أسف أنني لم أسلم — ولم يسلم الملك — من بعض ألسنة السوء فقد زعم أجنبي أنني آخذ الماء لأرض الملك وأحرم منها الجيران وشكا من ذلك بل ذهب إلى كتابة مقالات في إحدى الجرائد الأجنبية فرأيت أن لا أقف مكتوف اليدين إزاء هذه الفرية الباطلة ولاسيما أنني أنفقت بيدي ما يزيد على خمسة وأربعين ألف جنيه من مال الملك لا لخدمته وحده بل رأفة بجيرانه كذلك وبراً بهم

« وكان الرجل قد رفع دعوى على وزارة الأشغال يطالبها بتعويض بحجة أنها حابت الخاصة الملكية فدخلتُ خصماً ثالثاً في الدعوى وطالبت بتعويض قدره ١٠١ جنيه وبسطت الحقائق المتقدمة للمحكمة المختلطة وقد نظرت الدعوى في أثناء غيابي في بروكسل فعينت المحكمة ثلاثة خبراء أحدهم بريطاني والثاني إيطالي والثالث مصري فقدموا لها تقريراً أثبتوا فيه أن الخاصة الملكية عملت هذا العمل في حدود القانون واللوائح وأنها إذا كانت قد أفادت نفسها فقد أفادت الجيران كذلك ومنهم المشتكي

« وزاد الخبراء الثلاثة على ذلك في تقريرهم قولهم إنه لايسعهم إزاء العمل الزراعي والإنساني والاجتماعي الجليل الذي عمله الملك فؤاد في هذا التفتيش إلا أن يشيدوا بذكره

« وحكمت المحكمة برفض دعوى المدعي وألزمته بمئة جنيه تعويضاً لي عما

افتراه كما حكمت عليه بالف جنيه اتعاباً للخبراء وثلاث مئة جنيه اتعاب محاماة ونشر الحكم فى جرائد عربية وافرنكية

« وكان المدعي أول من يعلم افتراءه على الحق وجرأته عليه فلم يستأنف الحكم وقبله فيما يتعلق بالخاصة ونفذه

« وكان هذا آخر ما درى به الملك الراحل الكريم قبل أن يلقى ربه عن عمل ناظر خاصته »

***

وختم الإبراشي باشا حديثه بقوله :

« وقبل أن أختتم حديثي معك أذكر لك ما حدث بيني وبين الملك الراحل قبل أن أبدأ عملي في خاصته الملكية

« قلت لجلالته : أرجو يا مولاي أن تبين لي المبادىء التي يجب عليَّ أن أسير عليها فى ادارة خاصتك

« فقال لي رحمه الله : إنها بسيطة جداً . لقد اخترتك ناظراً لخاصتي وقد كنت من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة الذى قبلك من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة قبله من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة الذي قبله من رجال القضاء كذلك فاختياري لناظر خاصتي من رجال القضاء دائماً يرجع إلى سبب واحد وهو إنني أريد إذا تكلم معي أي إنسان عن ناظر خاصتي وقال لي أنه فعل كذا مما لا يصح فعله أستطيع أن أرد عليه في الحال قائلا لا أعتقد أن هذا حدث فإن ناظر خاصتي من رجال القضاء فلا يمكن أن ترتاح ذمته إلى عمل كهذا

فقلت لجلالته : كفاني هذا يا مولاي وسيكون ذلك رائدي في خدمتك . ويعلم الله أنني ما حدت عن هذا المبدأ طول مدة خدمتي له ويقيني أنه غادر هذه الدار الفانية وهو عني راض »

النهضة الصناعية

بعد النهضة الصناعية العظيمة التي نهضتها مصر في عهد ساكن الجنان محمد علي الكبير لم ير النيل نهضة صناعية اخرى على ضفتيه إلا في عهد الملك فؤاد

وقد تيسر للذين زاروا المعرض الزراعي الصناعي في أرض الجمعية الزراعية في سنة ١٩٣١ أن يشاهدوا مبلغ التقدم الذي بلغته الصناعة المصرية بمقابلة ما رأوه فى هذا المعرض بما رأوه فى المعرض الذي اقيم قبله فى المكان عينه

وتفضل الملك فؤاد فافتتح معرض سنة ١٩٣١ كما افتتح قبلا معرض سنة ١٩٢٦ و بلغ من شدة اغتباطه بما لاحظه من مظاهر التقدم في المعرض الثاني أن ظل يطوف أرجاءه ساعتين ونصف ساعة ماشياً ثم قال في ختام طوافه للمغفور له الأمير كمال الدين حسين « أنه يأسف على أن الزيارة انتهت » . ولم يترك جلالته قسماً من أقسام المعرض من دون أن يتفقد معروضاته وكان في كل قسم منها ينشط العارضين و يشدد عزائمهم و يهنئهم بما بلغوه

ولما وصل جلالته إلى الأقسام الخاصة ببنك مصر وشركاته دخلها كلها وتفرج على معروضاتها بعناية مصغياً باهتمام تام إلى البيانات التي كان المغفور له طلعت حرب باشا يفضي بها إليه ولما دخل جلالته قسم شركة مصر لغزل القطن ونسجه صافح محمود شكري باشا مدير الشركة إذ ذاك وقال وهو يشير إلى القطن المغزول « هذا هو المهم . . هذا هو ثروة المستقبل »

* * *

وبعد ذلك بشهرين (ابريل سنة ١٩٣١) سافر جلالته إلى المحلة الكبرى ليزور عاصمة مصر الصناعية فجاءت تحيته لها أسطع دليل على تشجيعه للصناعات الوطنية وعلى ما يعلقه على نهضتها من شأن

وبعد ما وضع جلالته حجر الأساس فى بعض المنشآت الجديدة فى المحلة الكبرى ذهب بموكبه الحافل إلى مصانع شركة مصر للغزل والنسج وزارها زيارة استغرقت نحو ساعة وكان وجهه يتهلل فرحاً واغتباطاً كلما أشرف على قسم جديد وشاهد فيه ما شاهده في الأقسام التي قبله من مظاهر النشاط والجد في العمل

ولما انتهى من طوافه أعرب للمحيطين به عن ابتهاجه واعتزازه ثم التفت إلى المغفور له طلعت حرب باشا وكان إلى تلك اللحظة يلقب بطلعت حرب بك وفاجأه بقوله « أنا ممنون جداً يا طلعت باشا » ولم يكن جلالته قد أفضى إلى أحد بعزمه على الإنعام على زعيم مصر الاقتصادي برتبة الباشوية فكان لهذه المفاجأة الكريمة وقع عظيم فى نفوس الجميع قابلوها بالحمد والثناء وعدوها تحية من المليك لأعظم مظهر من مظاهر النهضة الصناعية الحديثة في مصر

* * *

وفي سنة ١٩٣٠ أراد الملك فؤاد أن يهدي هدية سنية إلى الأمبراطور هيلا سلاسي أمبراطور الحبشة بمناسبة حفلة تتويجه فأمر بإعداد طقم صالون أرابسك (مشربية) غالي الثمن من الصناعة المصرية فجاءت الهدية بعد إتمام صنعها من أفخر الهدايا وأفخمها

وغني عن البيان أن جلالته أراد بهذا الاختيار أن تكون الهدية مصرية لتمثيل الفكرة المصرية والذوق المصري وبراعة الصناع المصريين وأن يكون

قدوة لنا فى التنويه بفضل الصناعة المصرية وتوجيه النظر إلى أن ما يخرجه الصناع المصريون الحاذقون يصلح لأن يهدى إلى الملوك وأن تزدان به قصور العظماء

* * *

وفي عهد جلالته رفعت مصلحة الصناعة والتجارة إلى وزارة قائمة بذاتها

الرّوح العسكريّة والرّياضيّة

الروح العسكرية والرياضية

كانت ظروف الجيش في عهد الملك فؤاد ظروفاً خاصة على نحو ما نعلم جميعاً ولم تكن المعاهدة المصرية الإنجليزية قد عقدت بعد

ولكن جلالته لم ير مع ذلك أن تلك الظروف تحول دون الشروع في بناء الصرح الأول في نهضة الجيش الحديثة ولو بوضع اسس هذه النهضة فكان في مقدمة ما عني به العمل لرفع مستوى المدرسة الحربية ففي سنة ١٩٢٢ دخلها لأول مرة أربعة طلبة من حملة شهادة البكالوريا فكان ذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ المعهد الذي يخرج للجيش ضباطه وهي المرحلة التى توجها جلالة الملك فاروق برفع المدرسة الحربية إلى مصاف الكليات فأصبحت تسمى الكلية الحربية الملكية

وعني الملك فؤاد في الوقت نفسه بإيفاد بعثات عسكرية إلى الخارج فأحيا السنة التى أستنها جده العظيم ساكن الجنان محمد علي الكبير ووجه النظر إلى ما سيكون لهذه البعثات من شأن فى المستقبل

وفي عهد جلالته بنيت جميع الثكن الحديثة التي يشغلها الجيش المصري الآن واقتضت مشيئته أن تجيء في مستوى النهضة العسكرية التي كان يصبو إلى تحقيقها متى أصبحت مصر مستقلة فى إدارة شؤون جيشها

وحرص جلالته إلى جنب ذلك على أن يكون تقدير كرامة الجندي أول

أساس للخدمة العسكرية في العهد الجديد فيعلم الرؤساء أن للجنود كرامة يجب عليهم أن يحرصوا عليها ويعلم الجنود من جهتهم أن لهم كرامة يتعين عليهم أن يصونوها بصون النظام واحترام القوانين والأوامر

ولقيت الرياضة العسكرية من جلالته كل عضد وتشجيع فإنه كان شديد الإيمان بفائدتها للأخلاق وللأجسام معاً

ومع أنه ليس لمصر أسطول بحري لم يغفل جلالته أمر التعليم البحري فأولى المدرسة الفاروقية البحرية عناية خاصة لتكون نواة لنهضة بحرية مقبلة تحيي بها مصر نهضتها البحرية في عهد محمد علي الكبير

وفي عهده أنشىء السلاح الجوي الملكي المصري وحيا جلالته الفوج الأول من الطيارين المصريين بما نم على تقديره الكبير لهذا السلاح الجديد فاستقبلهم في قصر عابدين وقلدهم بيده الكريمة شارات الطيران

وكان رحمه الله ينتهز كل فرصة تسنح له لإظهار ما للجيش من مقام في نفسه ولتذكير المصريين بأن هذا الجيش كتب صفحات مجد خالدة في تاريخ مصر وأن أنظارهم يجب أن تتجه على الدوام إلى اليوم الذى يعود الجيش فيتبوأ فيه المكانة الخليقة به وبماضيه الحافل بجلائل الأعمال

* * *

واتبع الملك فؤاد في كل ما تقدم الخطة التي اتبعها في سائر نواحي النهضة التي غرس اسسها ، وهي أن يقرن العلم والتوجيه النظري بالإشراف العملي والتشجيع الشخصي

ففي شهر يناير سنة ١٩٣١ زار المدرسة الحربية ، وبدأ زيارته بتفقد عنابر الطلبة فأبدى ارتياحه إلى الإصلاحات التي أدخلت عليها ، ثم زار نادي المدرسة ومكتبة الطلبة ، ولما تفقد القسم الإعدادي (ب) كان الطلبة يصغون إلى

الملك فؤاد الأول أمام تمثال جده العظيم ابراهيم
يوم الاحتفال بذكرى فتح عكاء

محاضرة في قراءة الخارطات وفي القسم النهائي كان الطلبة يسمعون محاضرة في التكتيك ثم زار جلالته غرفة نماذج هندسة الميدان ولما دخل القسم المتوسط كان الطلبة يسمعون محاضرة في التاريخ العسكري وفي القسم الإعدادي (١) كان الطلبة يشتغلون بحفر الخنادق عملياً فراقب جلالته عملهم باهتمام ثم مثلوا أمام جلالته معركة حربية تمثل هجوم الأعداء على الخنادق وصدهم عنها ومن هنالك ذهب جلالته إلى ميدان الطبنجة فميدان الأسلحة الصغيرة فميدان السونكي حيث شاهد معركة التحم فيها الفريقان بالسلاح الأبيض . وزار بعد ذلك ميدان لعب الكرة فحمام السباحة فملاعب التنس فالمغسل فالمطبخ حيث استفسر باهتمام عن صنوف المأكولات التي تقدم للطلبة وتفرج على المطعم وتفقد نظامه

* * *

ولما أتمت مصلحة الأشغال العسكرية بناء « ثكن إسماعيل » الجديدة في ضاحية المعادي زارها جلالته زيارة طويلة وبمعيته وزراء الدولة وكبار رجال الحكومة

وبينما كان جلالته يطوف الطابق العلوي في إحدى البنايات المخصصة لنوم الجنود شاهد « بطانيات » مفروشة على الأرض فسأل هل هذه البطانيات لكي ينام الجنود عليها فأجيب بالإيجاب فالتفت بعد قليل إلى الميرالاي لبيب بك الشاهد مدير مصلحة الأشغال العسكرية إذ ذاك وقال له : « إنني لا أريد أن أرى ضابطاً أو جندياً من رجال جيشي ينام على الأرض في داخل الثكن . أما في الميدان فهذا أمر آخر »

وهي ملاحظة كان يمكن أن تقتصر على الشق الأول منها ولكن الملك

لم يفته أن الجندي والضابط في ميدان الحرب غيرهما في القشلاق وأن الظروف في الأولى غيرها فى الثانية

وقال المغفور له اللواء لبيب الشاهد باشا إنه سيصدع بأمر جلالته حالاً ويأمر بجلب الأسرة إلى ذلك العنبر أسوة بالأسرة الموضوعة في العنابر الأرضية . وقابل الضباط الحاضرون هذا العطف السامي على الجندي بالشكر والدعاء

ودعي جلالته في أثناء تجواله في أقسام الثكن الجديدة إلى تفقد الخزانات (المزائر) التي يوضع فيها الماء لترشيحه فلاحظ جلالته أن هذه الخزانات غير محكمة الإقفال وأن الأقذار أو الحشرات قد تتسرب إليها فقال ما الفائدة من ترشيح الماء إذا كانت الخزانات معرضة لما قد يعكر نظافتها وأبدى جلالته رغبته في إحكام إقفالها تحقيقاً للغاية المطلوبة من وجودها

ولما دخل المليك المعظم مطابخ الثكن أبدى ارتياحه إلى الأفران البخارية التي جهزت بها ثم قال إنه لما زار المدرسة اليونانية في الاسكندرية شاهد فيها أفراناً بديعة للغاية ووافية بالمرام من حيث النظافة والاتقان . وهنا طلب جلالته من كبير الطباخين أن يريه بعض الأطعمة التي يطبخونها للجنود فجاء بكمية منها فأعرب جلالته عن رضائه

وهذه ملاحظات قد تبدو لأول وهلة أنها انتقاد لما شاهده جلالته ولكني لم أقصد فى الواقع بإعادة ذكرها هنا إلا إظهار مبلغ العطف العظيم الذي كان جلالته يكنه لرجال جيشه . أما فيما يتعلق بالثكن وطريقة بنائها وتنسيق بناياتها وتقسيم فروعها وتنظيم ملحقاتها — فإن كل ذلك كان موضع إعجاب جلالته وارتياحه

* * *

ومما أذكره عن شدة اهتمام الملك فؤاد بالعلاقات التي يجب أن تقوم بين الضباط

والجنود أنه بلغه يوماً أن ضابطاً من ضباط الحرس الملكي لطم جندياً في أثناء « الطابور » لأنه لم يفقه أمره فأمر جلالته بنقل هذا الضابط من الحرس في الحال وقال إنه يرأف به لحسن سيرته وسلوكه

* * *

أما فيما يتعلق بالتعليم البحري فانه إذا لم يكن لمصر مقام يذكر بين شعوب البحار كبيرها وصغيرها فهذا يرجع في العصر الحاضر إلى أسباب سياسية معروفة وإلا فان نهضة مصر البحرية في أيام محمد علي الكبير لو دامت لكانت مرتبة مصر اليوم غيرما هي . أما أن المصريين لا يكرهون سير البحار ولا يحجمون عن تجشم خطره فهذا ظاهر في ما اتصف به أهل دمياط وسواهم من سكان الموانىء فإنهم ما برحوا بسفنهم الشراعية الصغيرة يشقون عباب البحر المتوسط إلى الأناضول وسوريا و بلاد اليونان و بلاد شمال أفريقيا

ولكن النهضات عندنا تحتاج بالإجمال في أول عهدها إلى تنشيط من جانب ذوي النفوذ والمقام إلى أن يشتد ساعدها وتقوى على مقابلة ما تستهدف له من العقبات فأبدى الملك فؤاد من العطف على المدرسة البحرية المعروفة بالفاروقية ما يساعدها على تثقيف طائفة من شبان مصر يصلحون لأن يكونوا نواة لرجال الأسطول التجاري الذي لا بد لها منه ما دامت عظمة الأمم تقوم على سطح البحار كما قال الإمبراطور غليوم الثاني وغيره من الأقطاب وكما أثبت تاريخ أسبانيا والبرتغال وهولاندا و بريطانيا ومصر في القرن الماضي

ولما زار الملك فؤاد إنجلترا رسمياً في سنة ١٩٢٧ سأل عن أعضاء بعثة المدرسة الفاروقية مستفسراً عن التقدم الذي بلغوه في العلوم والفنون البحرية فسر بالنتائج التي عرضوها عليه واستقبل الطلبة فصورت لهم صورة تذكارية مع جلالته وقد كاشفهم في تلك المناسبة بما يعلقه عليهم من آمال

ولم يكتف جلالته بتشجيع المدرسة الفاروقية بل إنه لما زار مدينة السويس في سبتمبر سنة ١٩٣٠ كانت مدرستها البحرية التابعة لوزارة المعارف في مقدمة المنشئآت التي زارها وتفقد جلالته ورشها كلها ورشة ورشة وكان كلما اقترب من تلميذ سأله عن بعض الأمور المتعلقة بعمله ثم زار جلالته ورشة « السبك » فجرب التلاميذ أمامه تجارب شتى فسر بنجابتهم وذكائهم وقال إن ما شاهده يعزز ثقته باستعداد المصريين للعلوم والفنون البحرية

* * *

وحسبنا أن نشير إلى تفضل الملك فؤاد بشهود حفلة الألعاب العسكرية في منشية البكري في شهر يناير سنة ١٩٣١ كدليل على الرعاية التي كان يشمل بها الرياضة العسكرية

* * *

أما تمجيد الملك فؤاد للجيش فتجلى بأروع مظاهره في أثناء الزيارات الرسمية التي زارها بعض الملوك الأجانب لجلالته فقد حرص في كل مرة على أن يشتمل برنامج الزيارة على عرض عسكري تشترك فيه وحدات من جميع أسلحة الجيش المصري كأنما أراد جلالته على رغم من الظروف التي كانت محيطة بالجيش أن يظهر لضيوفه ما اتصف به الجندي المصري وانه إذا تهيأت له وسائل العمل تساوى مع خيرة جنود العالم بنظامه ومقدرته وشجاعته

وفي سنة ١٩٣٢ انقضت مئة سنة على السنة التي فتح فيها ابراهيم باشا عكاء فأمر الملك فؤاد بإحياء ذكرى تلك الصفحة العسكرية المصرية المجيدة في حفلة عسكرية كبيرة أقيمت عند تمثال ابراهيم باشا في الميدان المعروف باسمه في القاهرة وترأسها جلالته محاطاً بالأمراء والوزراء والعظماء وقواد الجيش وأعضاء البرلمان وقد وقفوا جميعاً يذكرون أنه تحت أسوار عكاء تبارى نابليون الأول من جهة وقواد

الدولة العلية وحلفاؤهم من جهة اخرى فخاب بطل بينا واسترلتز وعقد النصر لخصومه ولكن إلى أجل مسمى فقد دهمهم بعد ذلك بطل مصر العظيم ابراهيم الفاتح وأبى بعد صراع عنيف إلا فتح عكاء ففتحها واهتز الشرق كله لفتحها بل اهتز يومئذ الشرق والغرب معاً وارتجت قواعد العرش العثماني بهذا الحدث التاريخي العظيم وكان ما كان بعد ذلك من إيغال ابراهيم باشا في سوريا والأناضول حتى أوشك أن يبلغ الآستانة وأن يفتح عصراً جديداً ويكتب فصلا عظيم القدر في تاريخ الشرق بإنشاء دولة أخرى فيه لو لم تقف أوربا في وجه مصر يومئذ وتحول دون استمرار الزحف على نحو ما هو معلوم

ففي يوم الذكرى المئوية لذلك الحدث التاريخي الخطير وقف الملك فؤاد يحيي جيشه في ظل تمثال جده العظيم مباهياً ، معتزاً ، وسائلا الله أن ينتفع رجال اليوم بذكرى آبائهم وأجدادهم

* * *

ولقيت الرياضة البدنية من تشجيع الملك فؤاد ما كفل لها اطراد التقدم والنمو فازدهرت في سني حكمه ازدهاراً عظيماً وكان من أول مظاهر هذا التشجيع إنشاء مراقبة للتربية البدنية في وزارة المعارف وتعميم الأندية الرياضية في جميع أنحاء المملكة وشمل جلالته عدداً كبيراً منها برعايته السامية ووهب لها هبات مالية كثيرة وشرف بحضوره حفلاتها الكبيرة

وكان لحركة الكشافة حظ وافر من ذلك التشجيع ومن تلك الرعاية وهل أدل على ذلك من تنصيب ولي عهده كشافاً أعظم لمصر في احتفال رسمي كبير أقيم في أرض النادي الأهلي في الجزيرة وترأسه جلالته بحضور أعضاء البيت المالك والوزراء وكبار رجال الدولة وألوف من الشبان والفتيان والفتيات فكان أول

احتفال أهلي رسمي أقيم لسموه وقد وصل إلى مكان الاحتفال بملابس الكشافة مع جلالة والده في سيارة ملكية واحدة فكانت هذه أول مرة كذلك يظهر فيها الملك وولي عهده معاً في مناسبة عامة

وما كادا يشرفان على الجموع الزاخرة من الكشك الملكي حتى دوى المكان بتصفيق حاد دام دقائق ووقف الجميع يهتفون للمليك ولولي عهده هتافاً شق عنان الفضاء فلوح لهم جلالته بيمينه شاكراً وأمارات الغبطة والإنشراح بادية على محياه ثم تبوأ مكانه في صدر الكشك و إلى يساره الأمير فاروق

ولعب الأشبال والكشافة والجوالة ألعاباً شتى وقاموا بتمرينات منوعة استغرقت نحو ساعة ونصف ساعة

ثم نزل الكشاف الأعظم من الكشك الملكي واتجه صوب الأشبال في وسط الميدان فقوبل بالهتاف منهم بحياته ونادوا به كشافاً أعظم فرد لهم سموه التحية وتقبل علمهم ثم ودعهم متجهاً إلى الكشافة فقابلوه بالهتاف كذلك فوقف إلى جنب العلم وأقسم يمين الكشافة قائلا :

« أقسم بشرفي : أن أقوم بالواجب عليَّ لله ولملكي ولوطني

« أقسم بشرفي : أن أساعد غيري في جميع الأحوال

« أقسم بشرفي : أن أعمل بقانون الكشافة »

وما كاد سموه ينتهي من القسم الذي تردد صداه في أرجاء الميدان حتى دوت جوانبه بالتصفيق وهتاف الجماهير بحياته وقابلته فرق الأشبال والكشافة والجوالة بالهتاف لـ « فاروق . فاروق . فاروق . »

ومن ثم نودي بسموه « كشافاً أعظم » بينما كان هذا الجمع الحاشد المغتبط يهتف و يصفق

وعاد سموه إلى الكشك الملكي فاستقبله الوزراء ووزراء الدول المفوضون واقفين تحية وإجلالا وشاء جلالة الملك أن يستقبل الكشاف الأعظم بدوره فقبله على جبينه قبلة أبوية غالية دوت أرجاء المكان عندها بالتصفيق والهتاف بحياة الملك وولي عهده

وكتبنا يومئذ في تعليقنا على ما شاهدناه من اغتباط الذين حضروا هذا الاحتفال نقول :

« وكيف لا يعجب المصريون بأميرهم الفتى وقد رأوه عصر السبت وهو في حركاته وسكناته ووقوفه ومشيته وفي نطقه مثال الفتى الكامل الذي يعرف كيف يوازن بين مقامه السامي ومقتضيات منصبه الجديد في هذه الحركة العالمية التي استهوت أفئدة الفتيان والفتيات في جميع أنحاء المعمورة ولقيت حظوة عظيمة في نفوس المصلحين على تفاوت مقاصدهم واختلاف ساسيتهم فلا غرو إذا ابتهج الحاضرون ولا عجب إذا شاهدنا الملك الكبير المعروف بثبات جأشه يدني سمو نجله منه ويقبله وعيناه تكادان تدمعان ابتهاجًا وحبوراً بهذا الشبل الذي يزيده الله حنكة وحكمة ووقاراً وعلماً كلما زاده سناً وقوة

« ولقد أصاب جلالة الملك بهذا التدبير المحكم غرضين فأراد من الجهة الواحدة أن يعزز حركة الكشف في مصر برفعها إلى المستوى الذي يليق بها كعامل عظيم الفعل في تربية النشء واعدادهم لمواجهة حقائق الحياة وتقوية روح التعاون على العمل بما يكفل صون النظام في الاضطلاع بما هو مفروض وبما يطرأ على العامل أو العاملين فأمر بوضع النظام الذي رآه كفيلا بتحقيق هذه الغاية وتوجه باختيار الأمير الفتى زعيماً للذين يشملهم فألقى على عاتقه من الجهة الأخرى عبئاً يرى أن في نهوضه به تقوية له وإشراكاً لقواه مع قوى معاصريه من شبيبة مصر التي هي معقد آمال البلاد في ما تقابل من مستقبل يرجى أن يكون عظيماً باهراً بجهود هذه الأمة وتوسلها بما يرفع شأن الأمم ويعلي قدر الشعوب »

ولم ينقض على حفلة تنصيب الأمير فاروق كشافاً أعظم لمصر أشهر حتى تجلى لمصر مظهر كريم آخر من مظاهر عطف الملك فؤاد على النهضة الرياضية وتشجيعه لها فقد أذيع في أوائل شهر سبتمبر سنة ١٩٣٣ أن ولي العهد سيشرف الحفلة التي يقيمها نادي الاتحاد الرياضي الاسكندري في أواسط الشهر فلم يكد هذا النبأ ينتشر بين الاسكندريين والمصطافين في الاسكندرية حتى تهافتوا على تذاكر الحفلة وكان عددها أكثر من أربعة آلاف تذكرة واحتشد في خارج النادي نحو خمسة عشر ألف شاب ليحيوا سموه واشتد هتافهم للملك فؤاد نصير العلم والرياضة ولولي العهد المحبوب . ومما هو جدير بالذكر هنا أن سموه كان لا يزال يلبس البنطلون القصير في ذلك الحين فكأنما أراد جلالة والده أن يعزز فيه حب تشجيع الرياضة والعطف عليها منذ حداثته

* * *

ولما شرف الملك فؤاد أول حفلة كبيرة أقامتها المرشدات المصريات رغب في أن يكون ولي عهده أول من يشهدها معه فكانت أول حفلة حضرها سموه بتشريف والده العظيم وقد جاء هذا العطف المزدوج يومئذ أكبر دليل على أمنية جلالته في أن تشمل النهضة الرياضية أبناء مصر و بناتها على السواء لما للرياضة من فوائد شتى لا تحتاج الى بيان

* * *

وتفضل جلالته فسمى السيدة منيره صبري كبيرة المرشدات «مرشالة» إظهاراً لرضائه عن المجهود الكبير الذي بذلته في تنظيم حركة المرشدات

* * *

وما كاد الأمير فاروق يبلغ أشده حتى سر جلالة والده بأن يتيح له زيارة نادي السلاح المصري الملكي وشهود حفلة مباراة بين نخبة من أعضائه ولاحظ

الذين دعوا الى تلك الحفلة أن سموه كان يتتبع سير المباراة باهتمام شديد ويبدي ملاحظات شتى لمعالي أحمد محمد حسنين باشا رئيس النادي ومن كبار هواة السيف والشيش فعلموا أن سموه يهواهما كذلك ويمارسهما الى جنب طائفة من ضروب الرياضة التي ولع بها من صغره ومنها التنس والصيد وركوب الخيل

* * *

ولما بلغه أن الرياضي المصري الأستاذ اسحق حلمي قطع « المانش » سباحة فرح بذلك فرحاً عظيماً وكان أول من أبرق إليه مهنئاً . وحدثني إسحق حلمي عن ذلك حديثاً فيه وحده ما يكفي لوصف ما كان للرياضة على اختلاف أنواعها من مقام في تقدير جلالته . قال :

في سنة ١٩٢٥ كنت في فرنسا فخطر لي أن أجرب السباحة في بحر المانش فمكثت في الماء أربع عشرة ساعة متواصلة ورأيت يومئذ فتاتين تشرفان على الغرق فأنقذتهما فكتبت الصحف الفرنسية والانجليزية عن ذلك كله كتابات كثيرة نقلت التلغرافات بعضها الى الصحف المصرية على نحو ما تذكرون فلما عدت إلى مصر نصح لي بعض أصدقائي بكتابة اسمي في سجل التشريفات في السراي ففعلت ، فتلقيت بعد يومين دعوة بالتوجه إلى السراي للتشرف بمقابلة جلالة الملك فتفضل جلالته وهنأني بما وفقت إليه قائلا إنه يسره دائماً أن يسمع اسم مصر في الخارج مقروناً بالثناء والإطراء فقلت : إني أعد جلالته بأن أعبر المانش سباحة يوماً ما

« وفي السنة التالية — ١٩٢٦ — عزمت على امتحان حظي وقبل أن أبحر إلى أوربا لهذا الغرض بأيام كتبت اسمي في سجل التشريفات فلم ألبث أن دعيت إلى التشرف بمقابلة جلالة الملك فلما مثلت بين جلالته الملك أثنى على إقدامي وشدد

عزيمتي وقال لي إنه سيكون أول من يرسل إليَّ تلغرافاً لتهنئتي بنجاحي فلثمت يده وقلت له إن هذه العبارة وحدها تكفيني لتذليل كل صعب

« لكن الحظ خانني في تلك السنة لأني كنت مصاباً بالبلهرسيا من دون أن أعرف ذلك فكررت التجربة عينها في سنة ١٩٢٧ فلم أوفق كذلك ثم تبين لي أنني لم أكن قد شفيت من آثار البلهرسيا شفاء تاماً بعد فاستوفيت العلاج

« وفي سنة ١٩٢٨ كررت التجربة للمرة الثالثة فنجحت وما كدت أصل الى الشاطىء الإنجليزي حتى أبرقت الى كبير الأمناء راجياً إبلاغ جلالة الملك أنني بررت بالعهد الذي قطعته له فتلقيت بعد قليل برقية تتضمن تهنئة جلالته وثناءه وقد أمر جلالته بإرسالها من صورتين واحدة الى لندن والأخرى الى باريس ليستوثق من وصولها إليَّ إما في العاصمة الانجليزية أو في العاصمة الفرنسية

« ورجعت بعد ذلك الى مصر فكان أول ما عملت أن ذهبت الى القصر وكتبت اسمي شاكراً لجلالة الملك عطفه ورعايته فتلقيت بعد أربع وعشرين ساعة دعوة الى التشرف بالمقابلة فاستبقاني جلالته في حضرته خمساً وأربعين دقيقة سردت في خلالها تفاصيل مغامرتي من أولها الى آخرها فأصغى اليها باهتمام كثير وتتبع مراحلها مرحلة مرحلة على الخارطة التي أخذتها معي وفي ختام المقابلة كرر جلالته عبارات التهنئة والتشجيع

« وبعد أيام دعيت الى التشرف بالمقابلة مرة أخرى فألفيت جلالته واقفاً بجوار مكتبه والى جانبه علبة صغيرة ومظروف كبير فتفضل وصافحني ثم قال : « أردت مكافأتك على العمل الذي عملته فوجدت أن نوط الجدارة الفضي قليل عليك فأمرت بهذه المناسبة أن يكون لهذا النوط درجة جديدة من ذهب فتكون أنت أول من أنعم عليه بنوط الجدارة الذهبي . وهذا هو النوط وهذه هي براءته . فمبروك » . فلثمت يد جلالته وأنا أتمتم عبارات الشكر والدعاء

مصر والمصريّون والأجانب

مصر والمصريون والأجانب

قيل عن الملك فؤاد إنه كان شديد الميل إلى الاستعانة بالأجانب

والواقع أن مظاهر بعض الأمور كان يشجع على رواج هذا الرأي بين الذين كانوا يجهلون بواطن تلك الأمور ولا يعرفون حقيقة رأي جلالته في الموضوع

فقد كان الملك فؤاد يميل فعلا إلى الاستعانة بالأجانب ولكن لا يستطيع أحد أن يقول إنه كان يميل إلى الاستعانة بهم على حساب المصريين

كان يرى أن تستعين بهم مصر في كل فرع أو فن أو عمل لم يتهيأ له بعد المصريون الذين يستطيعون أن يحلوا محلهم فيه

ولم يكن يرى في ذلك غضاضة على مصر أو افتئاتاً على سيادتها أو مساساً بكرامتها بل كان يرى أن مصلحتها هي التي يجب أن تؤثر على كل اعتبار آخر فاذا قضت مصلحتها بالاستعانة بالأجنبي وجب الاستعانة به صوناً لهذه المصلحة وخدمة لها

وكان يرى أكثر من ذلك في تقديره الصحيح لمعنى المصلحة المصرية الحقيقية أن لا يظهر المصري الذي يحل محل الأجنبي إلا عند ما يصبح قادراً حقيقة على الحلول محل الأجنبي فيرفع رأس مصر. أما « أنصاف الأكفاء » فلم يكن ميالاً إلى إظهارهم لأن المهم — كما كان يقول — ليس أن يحل المصري محل الأجنبي بل المهم هو أن يحل محل الأجنبي مصري يعتز به المصريون ولا يخجلون

فمن ذلك أنهم لما عرضوا عليه في وقت ما بيان الكراسي الشاغرة في مجلس إدارة الجمعية الجغرافية الملكية وضعوا إلى جنبها أسماء بعض المصريين والأجانب المرشحين لشغلها لكي يبدي رأيه فيها فقال جلالته للذين كانوا في حضرته في تلك المناسبة : « كنت أود أن لا أرشح سوى مصريين لهذه الكراسي كلها . . . ولكن أين هم المصريون الذين يستطيعون الآن أن يجلسوا في مجلس إدارة جمعية كهذه . . . ها كم فلاناً مثلا . . . إنه رجل شريف ومتعلم وقد يكون من علماء القانون ولكن ما هي صلته بالجغرافيا فكيف يمكنني أن أرشحه وأنا مرتاح الضمير إلى أنني خدمت وجه مصر في هذه الجمعية . . . وفلان ما هي أعماله الجغرافية أو بحوثه الجغرافية . . . وفلان كيف أرشحه وليس له بحث واحد في موضوعات الجمعية الجغرافية . . أيريدون أن أرشح مصرياً والسلام فاذا جلس مع إخوانه الأجانب تجلى عجزه . . . أأكون بذلك قد خدمت مصر ؟ ! . . . »

وانتهى الأمر بأن لم يختر من المصريين سوى معالي أحمد محمد حسنين باشا تقديراً لأعماله الجغرافية في رحلاته الصحراوية وسعادة زكي الابراشي باشا بوصفه ناظراً للخاصة الملكية فيشترك في الإشراف على الادارة المالية لما كان جلالته يمنحه للجمعية من هبات مالية كبيرة باستمرار

ولكن في الوقت نفسه كان جلالته يبذل أقصى ما يمكنه ليكثر عدد المصريين الذين يستطيعون أن يحلوا محل الموظفين الأجانب . كان يحث على ذلك في كل مناسبة وله في هذا الشأن مواقف كثيرة ظلت لسوء الحظ مجهولة من الناس

قال لي سعادة محمود شاكر باشا إنه لما عين في سنة ١٩٢٣ وكيلا لمصلحة المساحة كان أول مصري يقلد هذا المنصب فلما تشرف بمقابلة الملك فؤاد قال له جلالته : « أنت ذاهب إلى مصلحة كبيرة ليس فيها مهندس مصري واحد فاعمل فوراً لتلافي هذه الحالة » فلم تمض على سعادته فترة قصيرة في مصلحة المساحة حتى نقل

إليها مهندسين مصريين كثيرين من وزارة الأشغال وأرسل آخرين إلى أوربا في بعثات فلما عادوا إلى مصر حلوا محل الأجانب

وقال الملك فؤاد لشاكر باشا مرة أخرى إن من أعز أمانيه أن يرى طوابع البريد المصرية تطبع في مطبعة المساحة المصرية لا في أوربا فلما أخبره سعادته بعد ذلك أن مصلحة المساحة أصبحت مستعدة لطبع الطوابع وأنها ستباشر طبعها طلب جلالته أن يطلع على « بروفات » الطوابع الأولى قبل الشروع في الطبع فلما عرضت عليه لم تعجبه وأشار بادخال تعديلات عليها فلما رفعوا إليه البروفات للمرة الثانية لم ترق له كذلك وأشار بتعديلات أخرى وظل جلالته يطلب « بروفات » جديدة إلى أن جاءته بالشكل الذي كان يريده فأذن عندئذ في الشروع في الطبع وقال لشاكر باشا: «أنا أتعبتكم ولكني أظن أنكم حريصون مثلي على أن لايقال ان الطوابع التي طبعت في مصر ليست في مستوى الطوابع التي كانت تطبع في أوربا . يجب علينا إذا باشرنا شيئاً كان الأجنبي يباشره بالنيابة عنا أن نقيم الدليل على أننا لا نقل عنه إجادة »

وقبل أن ينصرف شاكر باشا من الحضرة العلية قال له جلالته « والآن أريد منك أن تفكر في اليوم الذي نطبع فيه ورق البنكنوت المصري في مطابع مصرية »

* * *

ولما عين شاكر باشا مديراً عاماً لمصلحة سكة الحديد قال له جلالته : « اريد منك أن ترسل مهندسين مصريين إلى أوربا لكي يتعلموا عملياً ما يمكنهم بعد عودتهم إلى مصر من أن يحلوا محل المهندسين الأجانب الذين هم في مصلحة سكة الحديد »

وقال لي شاكر باشا : « وليس عندنا الآن في مصلحة سكة الحديد سوى مهندسين إنجليزيين اثنين . ومن المحقق أننا لم نبلغ هذه النتيجة إلا بارشاد الملك فؤاد وتوجيهه »

وقص علي سعادة حسن صادق باشا أنه لما عاد إلى مصر في سنة ١٩١٥ من البعثة التي كانت الجامعة القديمة قد أرسلتها إلى انجلترا كان الأمير « أحمد فؤاد » قد ترك الجامعة ولكنه رأى من الواجب عليه أن يزوره بمناسبة عودته فلما تشرف بمقابلته سأله سموه عما ينوي عمله فقال إنه يفكر في دخول الحكومة ، فقال له الأمير « دعك من الحكومة » فقال « و إلى أين أذهب » فقال سموه « اذهب إلى الصحراء فان جميع الذين ذهبوا إليها حتى الآن أجانب فاذهب إليها أنت الآن فان مؤهلاتك العلمية تؤهلك لذلك و بعد ما تمكث فيها ثلاثة أشهر أو أربعة إرجع وقابلني »

ولكن لظروف خاصة لم يتيسر لحسن باشا أن يعمل بهذا الرأي ودخل خدمة الحكومة

* * *

وفي إحدى السنين عرض بعض المعاهد الأميركية على سيادة مطران دير طور سينا (وهو الدير المشهور بدير سانت كاترين) مبلغاً كبيراً من المال في مقابل منحها حق البحث في الكتب والمخطوطات القديمة التي تضمها مكتبة الدير ولكن بشرط أن تستأثر وحدها بهذا الحق خمس سنوات متعاقبة فرفض المطران العرض

وأبلغ بعضهم الخبر إلى الملك فؤاد مبتوراً فدعا مطران الدير إلى مقابلته وسأله عن وجه الحكمة في رفض العرض مع أن في قبوله خدمة للعلم فقال المطران إنه يسلم بأن في العمل الذي تريد تلك المؤسسات عمله خدمة للعلم وأنه يجب على كل متعلم أن يتضافر على نشر العلم وعلى توسيع دائرته « ولكن هل نمي إلى مولانا الملك أنهم يشترطون أن يستأثروا بحق الاطلاع والبحث فلا يجوز حتى لمصري أن يلقي نظرة على مكتبة الدير ؟ » فقال جلالته « لم أكن أدري ذلك فاذا كان

الأمر كما تقول فقد أحسنت برفض العرض الذي عرضوه فاثبت على رأيك وأرفض طلباتهم حتى النهاية »

* * *

ومما سمعناه من جناب المسيو جاكيه المستشار الملكي أنه لما عين في خدمة الحكومة المصرية وقدم مصر تشرف بمقابلة الملك فؤاد فقال له جلالته « إذا أحببت مصر فإن حبك لها سيتجلى للعيان فتبادلك حباً بحب ... إنني أعرف كل أجنبي يحب مصر وأعرف كل أجنبي لا يحب مصر أو لم يحبها ... وما دمت رجل قانون فسأحدثك عن القضاة الأجانب الذين أحبوا مصر والذين لم يحبوها ففلان أحبها وفلان أخلص لها وفلان خدمها خدمة صادقة . أما فلان فلم يحبها وكذلك فلان وفلان »

قال المسيو جاكيه « و بعد ما أقمت في مصر مدة كافية تبين لي أن المعلومات التي بنى عليها الملك فؤاد حكمه صحيحة مئة في المئة وأنه لم يخطىء قط في تقدير حقيقة العواطف التي تخالج كل واحد من الذين ذكر أسماءهم »

وفي مقابلة أخرى دار الحديث على بعض شركات الامتياز والاحتكار في مصر فقال جلالته للمسيو جاكيه « إني أعلم مدى اخلاصك لبلادنا ولكني مع ذلك ألح عليك في أن تنتهز فرصة المفاوضات التي تدور مع بعض تلك الشركات لتدافع عن مصالح مصر بأقصى ما يمكنك أن تدافع به عنها »

وهنا قال المسيو جاكيه « لقد كان الملك فؤاد في طليعة الراغبين في الاستفادة من التعاون المصري الغربي ولكنه كان إلى جنب ذلك مصرياً بكل جوارحه ومشاعره لا يهمه سوى اعتبار واحد وهو مصلحة مصر ومصلحة مصر وحدها »

* * *

وحدثنا جناب المسيو فييت مدير دار الآثار العربية عن الظروف التي تم فيها

تعيينه في هذا المنصب فقال : « دعيت يوماً إلى وزارة الخارجية الفرنسية فأبلغوني أن الحكومة المصرية تريد تعييني مديراً لدار الآثار العربية وسألوني هل أقبل المنصب فقبلته عن طيب خاطر وأنا أعتقد أنه لابد أن تكون حكومة مصر قد طلبت من حكومتي أن ترشح لها رجلا ليكون مديراً لهذه الدار فرشحتني فصادف الترشيح قبولاً عندها

« غير أني لما وصلت إلى مصر وتشرفت بمقابلة الملك فؤاد قال لي جلالته إنه لما خلا منصب مدير دار الآثار تذكرني وتذكر المحاضرات التي ألقيتها في الجامعة المصرية الأهلية لما كان جلالته رئيساً لها فقال لهم إنني الرجل الذي أصلح لهذا المنصب فشكرت جلالته على هذه الثقة العظيمة وقلت إنني أرجو أن أوفق إلى خدمة مصر بما يرضيه ويحقق حسن ظنه بي »

والآن لنسمع ماذا حدث بعد ذلك . قال المسيو فييت مستأنفاً حديثه :

« وما كدت أتسلم مهام منصبي الجديد حتى عكفت على تنظيم دار الآثار طبقاً للخطة التي وضعتها لذلك وأخذت أضع دليلا بمحتوياتها فانقضت سنة ونصف سنة من دون أن يظهر لي عمل ما وفي ذات يوم أخبرني أحد مواطني أنه كان متشرفاً بمقابلة الملك فؤاد فأبدى جلالته عدم رضائه عني وقال إنه بدأ يأسف على ترشيحي لهذا المنصب فالتمست بعد أيام مقابلة جلالته ولما مثلت بين يديه بسطت له العمل الذي عملته في تنظيم الدار وأطلعته على جزء من الدليل الذي وضعته بمحتوياتها فقال لي « ولكني مع ذلك أتهمك بالكسل »

قال لنا المسيو فييت « فبعثتني هذه العبارة على مضاعفة العمل والإنتاج فلما رفعت إلى جلالته بعد ذلك أول مؤلف ألفته في مصر عاهدته على أن أقدم له مؤلفاً جديداً كل سنة وقد بررت بوعدي فقال لي جلالته مرة باسماً « لو لم أقل لك في بداية الأمر إنك كسول لما فزت منك بهذه المؤلفات »

وانتقل المسيو فييت بعد ذلك إلى الكلام عن فضل الملك فؤاد على دار الآثار العربية فقال :

« لم يعمل في هذه الدار عمل هام واحد إلا كان الملك فؤاد وراءه . وقد كنت أتشرف بمقابلته مرة على الأقل كل ثلاثة أشهر فبعد ما كان جلالته يصغي إلى ما أعرضه على مسامعه كان يتناول ورقة من أحد أركان مكتبه ويشرع في سؤالي : « المسألة الفلانية ماذا تم فيها . . . والعمل الفلاني إلى أين وصلتم فيه . . . ولماذا لم يخرج بعد الجزء الثاني من كتاب كذا . . . وماذا تنتظرون لإكمال كذا ؟ » فكنت في كل مرة أحسب أعظم حساب لمقابلة جلالته . ولما كان وقت الملك لا يسمح له بأن يقابلني كان معالي حسنين باشا يتصل بي ويبلغني أن الملك يستفسر عن كيت وكيت فأشعر على الدوام أن عين جلالته لا تغفل شيئاً وأن ذاكرته لا تنسى شيئاً وأظن أن المثابرة كانت من أعظم سجاياه فقد كان إذا آمن بفائدة مشروع ما وشرع فيه مضى فيه إلى النهاية ولو تعددت العقبات أو طال أمد الانتظار »

* * *

وتحدث المسيو فييت عن حرص الملك فؤاد على آثار مصر فقال : « وقعت مرة في يدي صورة مصباح كان موجوداً في دير قبطي ولم ألبث أن أدركت أنه أثر نفيس جداً وأن له قيمته الفنية والتاريخية فخشيت أن يراه سائح من الأثرياء فيشتريه بأي مبلغ يطلب منه ويخرجه من مصر فتحرم منه مع أنه من الآثار التي لا يليق بها سوى المتاحف فرفعت صورته مع تقرير عنه إلى الملك فؤاد فتلقيت من جلالته بعد ثمان وأربعين ساعة أمراً بأن أذهب إلى ذلك الدير مع مدير مصلحة الحدود وأفاوض المسؤولين عنه في شراء ذلك المصباح أو القنديل وفعلا ذهبنا إلى الدير ومكثنا فيه ثلاثة أيام شاهدنا في خلالها كل محتوياته ولكننا لم نر

القنديل فعدنا إلى مصر وأبلغت جلالته نتيجة مهمتي مع إعرابي عن أسفي الشديد على اختفاء المصباح

« و بعد أيام اتصل بي رئيس الوزارة بالتليفون — وكان دولة اسماعيل صدقي باشا — ودعاني إلى مقابلته فذهبت إليه في دار الرئاسة فألفيت الوزراء مجتمعين عنده ولشد ما كانت دهشتي لما رأيت المصباح معروضاً على المائدة أمام حضراتهم فذهلت فقال لي صدقي باشا : لقد وفقت الحكومة إلى الحصول على المصباح الذي علقت عليه كل هذا الاهتمام فاحمله واذهب به إلى قصر عابدين واعرضه على جلالة الملك لأنه شديد الاهتمام بأن يراه قبل أن ينقل إلى دار الآثار . فلما تشرفت بمقابلة جلالته والمصباح بيدي ارتسمت على محياه أمارات الاغتباط والانشراح وقال : الحمد لله على أنه بقي في مصر ولمصر »

✲✲✲

وختم المسيو فييت حديثه بقوله : وقد ظل الملك فؤاد حتى آخر حياته يفكر في كل جديد ينفع به بلاده وقومه . قال لي جلالته يوماً إنه يريد أن يرى أطلساً جغرافياً يبين جميع مراحل التقدم في انتشار الإسلام في أنحاء المعمورة . فقلت لجلالته إن العالم الهولندي « كرامرسي » خير من يستطيع أن ينهض بهذا العمل ، فكلفني أن أطلب منه تقريراً عن ذلك فأعد « كرامرسي » تقريره ورفعته إلى جلالته ولكن وطأة المرض كانت قد اشتدت عليه فلم أر جلالته بعد ذلك

✲✲✲

وسمعت من مدام ديفونشاير الخبيرة الكبيرة في آثار القاهرة الإسلامية ما يصح أن يكون تكملة لما سمعته من المسيو فييت فقد قالت لي إن الملك فؤاداً كان شديد الغيرة على آثار بلاده منذ ما كان أميراً و إنه كثيراً ما حادثها بما ينم على اهتمامه العظيم بها فلما اعتلى العرش أمكنه أن يطبع هذا الاهتمام بطابع عملي وأن يسدي

إلى الآثار خدمات جليلة بنفوذه الشخصي . قالت مدام ديفونشاير : « وكان جلالته بعد ما أصبح ملكاً يتفضل بمقابلتي مرتين في السنة وفي كل مرة كان يطلب مني تقريراً بما عندي من اقتراحات عما أرى عمله لصون ما في القاهرة من آثار كثيرة

« ومما أذكره على سبيل المثال أنه في ذات يوم كنت أزور بيت السحيمي الأثري الشهير مع الليدي لورين قرينة السير برسي لورين وكان يتقلد إذ ذاك منصب المندوب السامي البريطاني في مصر فقيل لها إن مصلحة التنظيم تنوي هدم واجهة البيت لأجل توسيع الشارع فلما سمعت ذلك هاج غضبي وقلت لليدي لورين إن في تنفيذ هذه الفكرة خسارة على العلم والتاريخ لا تعوض وما كدت أرجع إلى بيتي حتى اتصلت تلفونياً بكل من استطعت الاتصال به من ذوي النفوذ راجية أن يتوسطوا ليمنعوا مصلحة التنظيم من تنفيذ مشروعها

« وفي اليوم التالي كانت الليدي لورين مدعوة إلى مأدبة رسمية في قصر عابدين فأفضت إلى الملك فؤاد بما سمعناه فاهتم بالموضوع وقال لها : اتصلي بمدام ديفونشاير وقولي لها أن تطلب مقابلتي غداً . وفي الغد تشرفت فعلاً بمقابلة جلالته وعرضت على مسامعه تفاصيل الخبر فأمر بأن لا تمتد يد التخريب إلى ذلك البيت الأثري الجميل الشهير

« وكان جلالته يعرف جميع جوامع القاهرة القديمة منذ ما كان أميراً فلما تبوأ العرش كان يختار كل أسبوع لصلاة الجمعة جامعاً منها فيجدد معرفته له وكان إذا تكلم عن تلك الجوامع وعن آثار القاهرة القديمة تكلم عنها كأعظم خبير بها

« ولم تكن إحاطته بالآثار الإسلامية مقتصرة على آثار مصر وحدها . فقد تشرفت بمقابلته مرة بعد عودتي من أوربا فسألني أين قضيت الصيف فقلت في إسبانيا فأخذ يتكلم عن الآثار الإسلامية الباقية فيها كأنه زارها من أشهر فسألت

جلالته متى زار إسبانيا فقال إنه زارها لما كان أسيراً ليشهد مؤتمراً عقد فيها ولكن أعمال المؤتمر لم تسمح له إلا بمشاهدة جزء منها فلم ير آثارها الإسلامية كلها غير أن ما فاته رؤيته منها عوضه بالقراءة عنه

« ومن ذكرياتي عن حب الملك فؤاد لآثار بلاده أنني كنت أزوره يوماً وهو لا يزال أميراً فأطلعني على رسم نقش منقول عن أحد جوامع القاهرة القديمة فسألته عن الباعث له على رسمه فقال إنه أنشأ في الاسكندرية معهداً للصناعات النسوية (معهد الفنون الطرزية الآن) وإنه يبحث عن نماذج جميلة لتقلدها فتيات المعهد في أشغال الإبرة والتطريز فاستوقف نظره رسم نافذة في ذلك الجامع فأوصى بنقله ليرسله إلى المعهد »

* * *

ولا يخفى أن الطيار محمد صدقي كان أول طيار مصري طار من أوربا إلى مصر ووصل إلى القاهرة بطائرته (في يناير ١٩٣٠) وكان جلالة الملك فؤاد يتتبع أخبار رحلته باهتمام وشغف عظيمين فلما علم أنه سيحلق فوق قصر القبة لتأدية فرض التحية أصدر أمره إلى رجال بوليس القصر بأن يكونوا متنبهين لما يمكن أن يلقيه الطيار من طائرته مخافة أن تبعده الريح عن موقع إلقائه وقد صدق حدس جلالته لأنه لما ألقى الطيار كتاب الشكر وطاقة الزهر حملتهما الريح بعيداً فوجدهما رجال بوليس القصر وأتوا بهما إلى جلالته

ولما سمع جلالته أن زيز الطائرة خرج إلى شرفة القصر ومعه سمو الأمير فاروق وصفقا للطيار وهو محلق فوق القصر فقد شاء جلالته أن يشترك معه ولي عهده في تحية أول طيار مصري وأن يغرس في سموه من حداثته العناية بكل ما يرفع رأس مصر

وفي اليوم التالي تشرف الطيار محمد صدقي بمقابلة جلالته في قصر القبة

* * *

وكان رئيس اللجنة المحلية للألعاب الأولمبية إجنبياً فرأى الملك فؤاد أن بين المصريين المشتغلين بالرياضة كثيرين يستطيعون أن يحلوا محله فكتبت الجهات المختصة بذلك إلى اللجنة الدولية العامة للألعاب الأولمبية التي أقيمت في سنة ١٩٣٢ فعين للجنة المحلية رئيس مصري (سعادة محمد طاهر باشا) فاشتركت مصر في الألعاب الأولمبية التي أقيمت في سنة ١٩٣٦

* * *

من هذه الأمثلة اليسيرة نستطيع أن ندرك حقيقة عاطفة الملك فؤاد في هذا الموضوع وإني أترك لفصل تال الكلام عما بذله جلالته في أوربا لرفع شأن مصر وعن الاعتزاز الذي كان يظهره عند ما كان يتحدث عنها مع عظماء أوربا وأقطابها وكم من مرة سمعته يفيض في هذا الحديث بلهجة لم يكن يعرفها عنه سوى المحيطين به لنفوره من الإعلان عن أعماله ومآثره

ولكن إرجاء الكلام عن ذلك إلى فصل تال لا يمنعنا من أن ننوه هنا بالشأن العظيم الذي كان جلالته يعلقه على التمثيل السياسي في الخارج مع الرغبة في التوسع فيه بقدر المستطاع فقد كان يرى في تعميم المفوضيات والقنصليات المصرية في البلدان الأجنبية خير دعاية لمصر ولنهضتها الحديثة وكان جلالته في حرصه على أن تكون تلك المفوضيات والقنصليات مظهراً جميلاً لهذه النهضة لا يعرف هوادة في محاسبة رجالها على تصرفاتهم

* * *

وفي خلال زيارة الملك فؤاد لسويسرا رسمياً في سنة ١٩٢٩ وقفتُ على معلومات طريفة تدل على أن اعتزاز جلالته بقوميته كان سجية بارزة فيه منذ حداثته

فإنني لما علمت أن جلالته سينزل في أثناء إقامته في جنيف في الفندق الذي

يشغل الدار التي كانت في وقت ما معهد « توديكوم » سعيت لأعرف هل بين رجال المدينة الأحياء من عرف جلالته لما كان تلميذاً في ذلك المعهد الكبير فقيل لي إن خير من أستطيع زيارته لهذا الغرض هو البروفسور جورج توديكوم نجل البروفسور شارل توديكوم مؤسس المعهد وكان زميلا للملك في عهد التلمذة وقيل لي إنه يعي ذكريات كثيرة عن ذلك العهد إما مما يعرفه شخصياً أو مما تركه له والده في أوراقه وملفاته

ذهبت إليه فألفيته شيخاً وقوراً يناهز السبعين وما كدت أفضي إليه بالغرض من زيارتي حتى قال لي : « كان عمري ثماني عشرة سنة لما جيء بأحمد بك فؤاد — كما كنا نسميه يومئذ — إلى معهد والدي وكان جلالته يومئذ في الحادية عشرة من عمره ويؤخذ من السجلات التي وجدتها في مكتب والدي أن ذلك اليوم كان يوم ٢٠ مايو سنة ١٨٧٨ وقد مكث جلالته في معهدنا لغاية يوم أول أغسطس سنة ١٨٧٩ »

فقلت للبروفسور جورج توديكوم : « وهل تعلم يا أستاذ لماذا وقع اختيار اسماعيل باشا على معهدكم فأرسل إليه جلالة الملك ؟ » . فقال : « لا أعلم ذلك تماماً ولكنني أعتقد أن الدكتور سالم باشا طبيب اسماعيل باشا الخاص هو الذي نصح له بأن يرسل جلالته إلى معهدنا » . فقلت : « وهل كان للدكتور سالم باشا صلة بمعهدكم ؟ » فقال : « أجل فان نجله محمود بك سالم كان يتلقى العلم في معهدنا وأقام عندنا تسع سنوات كاملة ولذلك قلت لكم إنني أعتقد أن مجيء جلالة الملك فؤاد إلى معهدنا كان بتوصية من الدكتور سالم باشا وكان نجله محمود بك أكبر من الأمير فؤاد أو أحمد بك فؤاد كما كنا نسميه ببضع سنوات فكان يعامله معاملة الأخ الأكبر لأخيه الأصغر ولا يدعه وحده لحظة واحدة غير أنه لما كان جلالته يصاب بانحراف في صحته كانت والدتي هي التي تعتني به بنفسها وتسهر عليه

بشخصها لأنها كانت تأبى أن تتنازل عن هذه المهمة لممرضات المعهد ومعلماته مخافة أن لا يلقى منهن العناية الواجبة الخليقة بمقامه »

فقلت : « وهل كان جلالة الملك يقطن يومئذ في الحجرة التي نزل فيها اليوم ؟ » فقال : « لما دخل الملك معهدنا خصصنا له غرفتين إحداهما للنوم والأخرى للاستقبال (صالون) وهي الحجرة التي نزل فيها جلالته الآن . أما حجرة النوم الأصلية فحولت فيما بعد إلى حمام وهو الحمام الذي يقوم بجوار تلك الحجرة في الوقت الحاضر وخصصت يومئذ حجرة النوم الملاصقة لها للأستاذ المصري الذي كان يدرس اللغة العربية لجلالته وقد غاب اسمه عن ذاكرتي تماماً »

وهنا نهض البروفسور جورج توديكوم واقفاً وقال : « واليوم بعد انقضاء خمسين سنة على ذلك التاريخ ما فتئت أذكر كيف كان جلالة الملك فؤاد يوم أن دخل معهدنا .. ها إنني أراه بثوبه الأزرق الجميل وعينيه العسليتين البراقتين وطربوشه الأحمر الرشيق وكان يلبسه بطريقة جميلة للغاية . . . » فقاطعته وسألته قائلا : « وهل كان جلالته يلبس الطربوش في أثناء إقامته في معهدكم ؟ » فقال : « دائماً إلا في ساعات اللعب » فقلت : « وهل كان جلالته يميل إلى الألعاب الرياضية ؟ » فقال : « لقد كان شغوفاً بها شغفاً عظيماً ووجد جلالته في بادىء الأمر شيئاً من الصعوبة في الاختلاط بزملائه ولكنه ما لبث أن اكتسب مودتهم بلطفه ورقته ونشاطه فأحبوه وأكرموه حتى أنه لما حل يوم رحيله عن معهدنا بكى بكاء مراً لفراقهم فبكوا معه وكان منظراً مؤثراً حقاً »

و بعد ما عاد البروفسور جورج توديكوم إلى الجلوس على كرسيه التفت إليّ وقال : « إن مصر لسعيدة بملكها و إنني كلما سمعت شيئاً عن المشروعات الجليلة التي يفكر فيها جلالته لخيرها ورفاهيتها أذكر حبه لها وغيرته على اسمها منذ نعومة أظفاره و بهذه المناسبة اسمعوا ما سأقصه عليكم عن جلالته في هذا الصدد

« في يوم من الأيام دعا والدي نخبة من طلبة معهدنا إلى عمل رحلة إلى « شاموني » وكان جلالة الملك فؤاد ومحمود بك سالم بين التلاميذ الذين رغبوا في الاشتراك في تلك الرحلة فلما بلغنا شاموني وتسلقنا جبالها شعرنا بتعب شديد ما عدا محمود بك سالم فإنه الوحيد الذي وصل إلى قمة تلك الجبال نشيطاً مستريحاً فلما عدنا في المساء إلى المعهد وجلسنا إلى مائدة الأكل لنلتهم عشاءنا قال والدي : « إن التلميذ الوحيد الذي يستحق الثناء على ما أبداه اليوم من النشاط والإقدام هو محمود سالم المصري فاستحق هذه الجائزة » وناوله جائزة كان قد أعدها لهذه الغاية

قال البروفسور جورج توديكوم : « و بعد انتهاء العشاء أبصرنا الأمير فؤاداً يسرع إلى حجرته ثم يعود إلينا بعد لحظة وهو يحمل القرآن (مصحفه) ولما اقترب من محمود بك سالم قال له : « إنك يا محمود قد رفعت اليوم اسم بلادنا مصر فاقبل مني هذا التذكار » وأهدى إليه مصحفه ولا إخالني مخطئاً إذا قلت لكم إن هذا المصحف الشريف ما زال محفوظاً إلى اليوم . . . هذا هو مليككم كما عرفته تلميذاً فلتهنأ مصر بهذا المصري الكبير »

* * *

وما كاد جلالة الملك فاروق يعتلي العرش حتى أدرك المصريون أن الملك الراحل خلف لهم خير رمز للقومية المصرية في شخص ملكهم الجديد

فقد حرص الملك فؤاد على تنشئة ولي عهده في جو مصري صميم تقديساً منه للقومية المصرية وتعزيزاً للعلاقات بين العرش والشعب فرعى الله مقصده النبيل وكتب له النجاح فجاء الفاروق عنواناً للقومية المصرية

ولم يكن فى استطاعة الملك فؤاد أن يسدي إلى القومية المصرية خدمة أجل من هذه ولا أعظم منها شأناً

السفير الأعظم

السـفير الأعظم

اتيح لي في سنة ١٩٢٩ أن أتشرف بمرافقة الملك فؤاد في زيارته الرسمية لألمانيا وتشكوسلوفاكيا وسويسرا وأن أشاهد عن كثب المقام الجديد الذي بناه جلالته لمصر الناهضة في بلدان أوربا فأسدى إلى بلاده وشعبه خدمة لا تسديها إليها السفارات والمفوضيات فى خلال حقبة طويلة من الزمان

ولم تكن مهمة جلالته في ألمانيا مهمة سهلة فقد كانت زيارة الملك أمان الله لألمانيا وبالا على الشرق والشرقيين لأسباب شتى أهمها ثلاثة أما أولها فانه ما كاد جلالته يعود إلى بلاده حتى اندلعت فيها نار الثورة وجرت في أذيالها الحوادث المعروفة . والسبب الثاني هو أن المصانع والمعامل الألمانية أهدت إليه هدايا فاخرة ثمينة رغبة منها في أن تكون إعلاناً ناطقاً بارتقاء الصناعة الألمانية في البلاد الأفغانية فخاب أملها وذهبت الهدايا سدى . ثم يجيء السبب الثالث وله بعض الصلة بالسبب الثاني وهو أن الملك أمان الله أوصى « بطلبات » منوعة فى تلك المصانع والمعامل فضاعت هذه الطلبات على أصحابها بضياع العرش من جلالته . تضاف إلى ذلك أسباب اجتماعية وأدبية اخرى نضرب صفحاً عن سردها . ولكي يقدر القارىء مدى الوقع السيء الذي تركته زيارة أمان الله لألمانيا يكفيني أن أورد حادثاً بسيطاً على سبيل المثال فإن الدكتور وايزل الصحافي الألماني المعروف في مصر دعاني عقب وصولي إلى برلين إلى زيارة إدارة جرائده لأشاهد

مكاتبها ونظامها وهناك عرفني جنابه برئيس تحرير قسم المقالات السياسية فدار الحديث بيننا على زيارة الملك فؤاد للجمهورية الألمانية فقال رئيس التحرير : إن ملككم يصل إلى برلين غداً وقد كان بودي أن أكتب عنه أكثر مما فعلت ولكنني لا أستطيع حتى إنني اضطررت إلى حذف بعض التفاصيل التي كتبها الدكتور وايزل عن جلالته ، فسألته عن علة ذلك ، فأجابنى بقوله : «إن الشعب غيرمستعد لقبول مقالات مطولة في هذا الصدد بسبب نفوره من الملك أمان الله»

تلك كانت حقيقة الموقف فى ألمانيا قبيل وصول جلالة الملك فؤاد إليها وتجلت هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها عند استقبال جلالته في برلين في اليوم الأول من أيام الزيارة الرسمية فإن الشعب مع خروجه لمشاهدة الموكب الملكي — مع أنه لم يكن يوم عيد أو عطلة رسمية — ظل محتفظاً بشيء من التحفظ في حفاوته وحماسته وكنا نحن الذين أتيح لهم الوصول إلى برلين قبل جلالة الملك بأيام محيطين بدقة الظروف التي سيواجهها جلالته عارفين بصعوبة المهمة التي سيتعين عليه النهوض بها فبتنا نرقب عن كثب باهتمام كبير حركة التحول الذي أحدثه مليكنا المعظم في نفوس الشعب الألماني مقدرين المجهود الذي بذله في هذا السبيل ليزيل ما علق بأذهان الألمان عن بلاد الشرق وملوكها وشعوبها

ولم يكن جلالة الملك فؤاد في حاجة إلى زمان طويل ليبرهن الألمان على أن ملك مصر ليس كالملك الذي عرفوه وأن مصر ليست شطراً من مجاهل إفريقيا النائية كما كانوا يتوهمون فإنه عرف بحركاته وتصرفاته وأحاديثه الاجتماعية والسياسية والأدبية ورقته ودماثة خلقه وإجادته لأشهر اللغات الأوربية وسعة اطلاعه وصفاء حافظته في سرد ذكرياته ونتائج اختباراته — إن جلالته عرف بكل ذلك كيف يكتسب احترام جميع الذين اقتربوا منه وحادثوه أو أصغوا إلى

أحاديثه فغدوا يروون لأهلهم وأصدقائهم ماشاهدوه عن رقي ملك مصر وما أنسوه فيه من علم غزير وأدب وافر واطلاع واسع وانتشر هذا الحكم بين طبقات الشعب فرددت الصحف صداه فرحة مبتهجة وما أصبح صباح اليوم التالي حتى كانت الشوارع التي سيجتازها الموكب الملكي مكتظة بالجماهير فما كادت أبصارها تقع على جلالة الملك حتى هتفت له هتافاً شديداً فشعرنا في الحال بمبلغ الفرق العظيم بين موقفها في اليوم السابق وموقفها اليوم وكان طبيعياً أن ترقص قلوبنا فرحاً وسروراً بهذه المكانة الرفيعة التي عادت بلاد الشرق إلى تسنمها بفعل سفير مصر الأعظم

وكلما انقضت على جلالة الملك ساعة فى ألمانيا كان يزداد عدد المعجبين به وتعظم حماسة الشعب له فما انتهت الحفلة الساهرة التي أحياها الرئيس هندنبرج لجلالته والحفلة الساهرة التي أقامها جلالته للرئيس هندنبرج حتى كان الجميع يسمون مليكنا « هرتز كونيج » أى « ملك الفؤاد » دلالة على ما كان لرقيه وعلمه ولطفه من الوقع العظيم في نفوسهم

* * *

أما الموقف في تشكوسلوفاكيا فكان يختلف عنه في ألمانيا بمظهره لا بمخبره أي أن الملك أمان الله لم يكن قد زار تلك الجمهورية الفتية فيحدث فيها ما حدث في ألمانيا بل إن الملك فؤاداً كان أول ملك يزور تشكوسلوفاكيا بعد إعلان استقلالها ولكن حيث إن جلالته هو أول ملك يزور بلادها بات الموقف دقيقاً كذلك نظراً لما يكنه الشعب التشكوسلوفاكي من البغض والكراهية لأباطرة النمسا ولم تكن مظاهر الحفاوة والتكريم التي أعدتها الحكومة لتحوّل روح الشعب وشعوره لو لم يعرف جلالة الملك كيف يحولها بنفسه من اليوم الأول لوصوله إلى براغ كما فعل في برلين فإن الشعب التشكوسلوفاكي لما أبصر أن الملك الشرقي الزائر يعادل ملوك الغرب برقيه وحسن تصرفه ويمتاز عن بعض منهم بعلمه ورقة

جانبه عطف عليه عطفاً عظيماً وازداد هذا العطف كثيراً حين اتصل بمسامعه نبأ المبرة الملكية لفقراء مدينة براغ فما كاد جلالته يخرج من دار البلدية في ذلك اليوم حتى قابلته الجماهير المحتشدة في الشوارع بأشد مظاهر الهتاف والتصفيق

* * *

وكانت الظروف التي واجهت زيارة الملك فؤاد لسويسرا مماثلة للظروف التي قلت إنها كانت قائمة في ألمانيا ولكن السويسريين المقيمين فى مصر من الذين كانوا يصطافون فى أوربا عنوا بتلافي الأمر بهمة ونشاط عظيمين ساردين لمواطنيهم وولاة أمورهم ما يلقاه الأجانب فى مصر من عطف جلالة الملك وحسن معاملة الشعب والحكومة مؤكدين لهم أن الملك فؤاداً سيمحو الصورة التي رسموها في أذهانهم لملوك الشرق وشعوبها وقد تحقق ذلك فعلا حتى أنه لما زار الملك مدينة زوريخ ليشاهد مصانعها ومعاملها كان العمال يلوحون له بمناديلهم من القطرات ويهتفون له فى الشوارع والساحات مما حمل أحد رجال الحكومة السويسرية على أن قال : « ومن يصدق عند ما يرى هؤلاء العمال يحتفون بالملك فؤاد هذه الحفاوة الشعبية العظيمة أننا فى منطقة اشتراكية »

* * *

و « طون » بلدة صغيرة جميلة تبعد عشرين دقيقة بسكة الحديد عن مدينة « برن » عاصمة سويسرا وقد اشتهرت بالبحيرة المترامية الأطراف الملاصقة لها وهى البحيرة الصافية الماء المعروفة « ببحيرة طون » ففي اليوم التالي لوصول الملك فؤاد إلى سويسرا دعاه المسيو هاب رئيس الاتحاد السويسري إلى نزهة في تلك البحيرة ودعا إليها معه كبار رجال الحاشية الملكية

ويجدر بنا قبل ذلك أن نذكر أن المسيو هاب رئيس الاتحاد السويسري يومئذ كان مديراً لمصلحة سكة الحديد في سويسرا قبل أن ينتخب لمنصب الرئاسة

جلالة الملك فؤاد الأول فى أوربا

الرفيع الشأن فأظهر في تنظيم أعمال تلك المصلحة مقدرة عظيمة مكنته بعد مدة قصيرة من سد أبواب العجز في ميزانيتها ثم لم يلبث أن عكف على كهربة الخطوط الحديدية مبتدئاً بالخطوط الرئيسية فلم ينقض عليه وقت طويل حتى أصبح ثمانون في المئة من سكك الحديد تسير بالكهرباء في البلاد السويسرية فلما انتخب فخامته رئيساً للاتحاد السويسري أو بعبارة أوضح رئيساً للجمهورية السويسرية شق عليه أن يتخلى عن منصبه في إدارة مصلحة سكة الحديد ولم يكتم عن أصدقائه أن هذه المصلحة لا تزال في حاجة إلى بقائه على رأسها ليشرف على ترسيخ ما وضعه لها من الأنظمة المالية والأسس الفنية والعملية فاقترحوا عليه أن يتقلد منصب الرئاسة مع احتفاظه بإدارة سكة الحديد قائلين إنه وإن لم يكن في تاريخ رئاسة الاتحاد السويسري سابقة تسوغ هذا التصرف فإن الغرض الذي يقصده هو خدمة المصلحة العامة وهذه المصلحة تقدم على العرف والتقاليد وعلى كل اعتبار آخر فعمل بمشورتهم واحتفظ بالمنصبين

وفي أثناء شرب الشاي في الذهبية التي أقلت المدعوين في نزهتهم دار الحديث بين جلالة الملك والمسيو هاب على شؤون سكك الحديد في مصر وسويسرا فذكر المليك للرئيس طول الخطوط الحديدية المصرية الواسعة والضيقة وعدد محطاتها الكبيرة والصغيرة وعدد القطرات السريعة والعادية التي تسير عليها وعدد المركبات التي تتألف منها القطرات وعدد مركبات « بولمان » التي جلبتها مصلحة سكة الحديد المصرية ومتوسط عدد الركاب الذين يسافرون كل سنة في الدرجات الثلاث ونسبة أجور السفر الحالية إلى أجور قبل الحرب وإلى أجور سكة الحديد في أوربا ومتوسط إيراد مصلحة سكة الحديد من نقل الركاب والبضائع ثم انتقل جلالته من ذلك إلى الكلام عن نفقات سكة الحديد المصرية وما تم فيها من الإصلاحات في السنين الأخيرة وما ينتظر إنجازه قريباً من المشروعات الجديدة

وكان جلالته يسرد كل هذه المعلومات عن ظهر قلب بإفاضة و بلاغة عظيمتين أثارتا دهشة الحاضرين فأقبل علينا المسيو موتا رئيس الاتحاد السويسري السابق ووزير الخارجية السويسرية منذ سبع عشرة سنة وقال : « إن ملككم رجل ممتاز ومدهش حقيقة فانه بسط لنا ميزانية سكة الحديد في بلادكم كأنه كان يقرأ من كتاب أمامه » ثم دار الحديث على سكة الحديد في أوربا فتكلم عنها الملك طويلا معززاً كلامه بالمعلومات والبيانات الدقيقة مما زاد في دهشة حكام سويسرا واستغرابهم

ثم جاء دور الكلام عن الزراعة فحدثهم جلالة الملك عن القطن المصري وقابل بينه و بين أنواع القطن التي تزرع في السودان وأميركا ثم حدثهم عن زراعة الأرز في مصر وفي سائر البلدان التي تزرعه فقال لنا المسيو موتا : « اسمعوا . إن مليككم يعطينا درساً آخر في الشؤون الاقتصادية وهو في كل موضوع يعالجه يثبت أنه محيط به من جميع نواحيه . هذا شيء مدهش » وكان المسيو موتا وسائر زملائه كلما التقوا بواحد من مواطنيهم يعربون له عن شدة إعجابهم بسعة علم الملك فؤاد وتوقد ذهنه وقد كان بودنا أن يكون أبناء مصر كلهم حاضرين معنا حين سأل المسيو هاب جلالة الملك هل تهتم مصر بالحرير الاصطناعي فأجابه جلالته قائلا : « كلا . ولكني سمعت أخيراً أنه لا بد للحرير الاصطناعي الجيد من فتلة من القطن المصري لتزيده متانة ومن هنا يتضح لكم أن الغرب محتاج دائماً إلى معونة مصر » ونطق جلالته اسم مصر بحماسة وشغف شأنه في كل مرة كان يذكر فيها هذا الاسم وقد كان يردده في كل فرصة مناسبة في خلال رحلته

* * *

ولما اقيمت حفلة العرض العسكري في براغ عاصمة تشكوسلوفاكيا إكراماً

لجلالة الملك وقف جلالته في الكشك الملكي إلى يمين الرئيس ماساريك يعرض وحدات الجيش التشكوسلوفاكي وكان كلما وقع نظر جلالته على ضابط من الضباط الذين تولوا قيادة تلك الوحدات حياه التحية العسكرية برفع يده الكريمة إلى رأسه كما أن جلالته كان يحيي كل علم من الأعلام العسكرية التي كانت تمر أمامه تحية عسكرية طويلة فكان لهذه المجاملة الملكية أعظم وقع في نفوس الحاضرين من العسكريين . وكان جلالة الملك قد سأل قبل توجهه إلى مكان الحفلة عن ترجمة كلمة « سلام » في اللغة التشكوسلوفاكية فقيل له إنها «ناز دار» فلما وصل إلي ميدان العرض ترجل جلالته من المركبة وسار نحو سارية العلم التشكوسلوفاكي وحيا الجيش المصطف أمامه بصوت جهوري قائلا : «أيها الجيش التشكوسلوفاكي ناز دار . » فرد عليه أفراد الجيش كلهم قائلين «ناز دار» . ثم حيا جلالته علم الجيش التحية العسكرية وصعد إلى المكان الذي أعد له في الكشك الخاص

ولما مرت أمام جلالة الملك وحدات المدفعية في الجيش التشكوسلوفاكي أخذ جلالته يميل من وقت لآخر على الرئيس ماساريك ويسرد له المعلومات المسهبة عن المدافع التي يشاهدها ذاكراً قوة كل مدفع وقطر فوهته وزنة قنبلته ومدى مرماها وتأثير فعلها حتى أدهش الرئيس بوفرة معلوماته وقوة حافظته فلما أقيمت حفلة الاستقبال في دار البلدية بعد ظهر ذلك اليوم قال لنا الرئيس ماساريك « إن من يسمع جلالة الملك فؤاد يسرد المعلومات الفنية عن المدافع التي شاهدها اليوم صباحاً كما سمعته أنا يسردها لا يشك لحظة واحدة في أن جلالته غادر مدرسة المدفعية من أسبوع واحد . . . أجل . لقد أعطاني ملككم درساً عملياً مفيداً في المدفعية »

وكان الملك فؤاد فى جميع زياراته شديد الرغبة في الإطلاع على كل جديد قد يفيد به مصر بعد عودته إليها أو قد ينفعه في تعزيز معارفه ومعلوماته

ومن ذلك أنه بينما كان يزور بعض مصانع مدينة «ايسن» الشهيرة سأل أحد المديرين الذين كانوا يرافقونه في طوافه عن مسألة متعلقة بالمعروضات التي دعي إلى مشاهدتها فرد عليه المدير بجواب غير مقنع . فأعاد جلالته الكرة وطرح عليه السؤال مرة اخرى فلم يعط الرجل جواباً وأراد الانتقال إلى موضوع آخر فاستمهله جلالته قائلا : « إنني لم أجىء إلى هنا لمجرد النزهة والفرجة فأكتفي بالنظر إلى المعروضات التي تعرضونها عليَّ ولكني جئت خصيصاً لأتعلم وأستفيد لعلي أستطيع أن أخدم بلادي بعد ذلك بالمعلومات التي أكون قد جمعتها واستوعبتها في أثناء زيارتي »

وحدث لجلالته حادث آخر يكاد يماثل الحادث المتقدم في خلال زيارته لمطبعة « أولشتاين » في تمبلهوف ببرلين فإنه بعد ما طاف به مدير المطبعة أرجاء قسم الروتوغرافور كله وأفاض في بسط المعلومات والبيانات خاطب جلالته بقوله : « إنني ألتمس العفو يا صاحب الجلالة إذا كنت أطيل في الشرح والتفسير ولكنني أعتمد على رحابة . . » فقاطعه جلالته بقوله : « كلا بل يجب أن تعتمدوا على رغبتي في زيادة معلوماتي وما دامت هذه الرغبة تخالج نفسي ففي استطاعتكم أن تطيلوا الشرح والتفسير كما تشاءون لأنني إذا خرجت من هذه الزيارة بدون معلومات جديدة فثقوا أن تأثيرها في نفسي لا يبقى طويلا »

وفي أثناء زيارته لمصنع الخزف في برلين دنا منه أحد مديري المصنع ورجا من جلالته أن يبتعد قليلا عن طاولة أحد الصناع لئلا يصاب « برشاش » من العجينة التي أمامه فابتسم جلالته وقال : « بل إن اللذة هي في ذلك » . ثم أردف جلالته ما تقدم بقوله : « إن في لغتنا العربية مثلا يقول إنه لا بد دون الشهد من إبر النحل وإن المرء لا يجتني النفع ما لم يتحمل الضرر » ثم ابتسم جلالته مرة أخرى ومضى في طوافه ، وبعد ما فرغ من زيارته وصعد إلى سيارته

اقترب منه عامل لتصويره إلى أن أصبح على قيد خطوتين من السيارة فأسقط في يد رجال البوليس وهموا بإبعاد العامل المقدام عن مكانه ولكن جلالته منعهم عن ذلك بأن التفت إلى العامل وقال له وهو يبتسم : « صوّر على مهلك » فقوبلت هذه اللفتة بأصوات الهتاف التي تعالت من كل جانب وظلت تتردد في الأفق إلى أن توارى موكب الملك عن الأبصار

ولما زار جلالة الملك مطار تمبلهوف ببرلين وتفرج على الطائرات الكبيرة التي تتولى نقل الركاب بين أرجاء أوربا أعرب عن رغبته في دخول طائرة منها ليتفرج على أجزائها من الداخل وهنا قال جلالته لمدير المطار : « إن من عادتي ألا أكتفي بالنظر إلى الأشياء نظرة خارجية إجمالية عامة قد لا تجدي نفعاً في معظم الأحيان » وبعد ما أصغى جلالته إلى جميع البيانات التي أفضى إليه بها مدير المطار سار إلى حيث علقت الخارطات الجغرافية المفصلة وطبق عليها عملياً ما استوعبته حافظته القوية من تلك المعلومات

ولما زار جلالته دار البلدية في برلين عرضوا عليه في خلال الحفلة التي أقيمت له فيها ترحيباً بزيارته أفلاماً سينماتوغرافية ناطقة كان لها أعظم وقع في نفس جلالته فقد كانت صناعة الأفلام الناطقة لا تزال في مرحلة التجربة الأولى ومما نورده بهذه المناسبة أن جلالته كان جالساً في تلك الحفلة في الصف الأول من صفوف الحاضرين يحيط به رجال معيته وكبار رجال البلدية فلما آن أوان عرض الأفلام الناطقة قال جلالته : « أظن أننا إذا أبدلنا مجالسنا ورجعنا إلى الوراء قليلا تحسنت رؤيتنا وكانت الفائدة أعظم » ثم نهض بكل بساطة ووداعة وسار إلى المقاعد الخلفية وجلس على مقعد منها بين المدعوين العاديين فكان لعمله هذا وقع حسن في نفوس جميع الحاضرين وكان بينهم عدد يذكر من كبار ولاة الأمور المحليين

ومن الذكريات التي لا أنساها عن رحلة الملك فؤاد في أوربا أنه بعد ما تفرج على حمامات العمال ومغاسلهم في دار « أولشتاين » للطباعة التفت إلى المغفور له الدكتور شاهين باشا وقال له بالعربية : « شاهين باشا . . . متى يكون لعمال مصر مثل هذا ؟ »

ومضى جلالته في طوافه . . .

وكذلك كان دائم التفكير في رفاهية شعبه في كل وقت ولا هم له إلا كيف يسير بمصر إلى الأمام

* * *

ولو أردت أن أجمع هنا ما سمعته من ملوك أوربا ورؤساء حكوماتها عن إعجابهم بعظمة الملك فؤاد لما اتسع لذلك المجال وقد سجلت أقوالهم في حينه عند نشر أحاديثهم وأوردت بعضها في الكتيب الذي طبعته في أواخر سنة ١٩٢٩ عن جلالته ووصفت فيه رحلته إلى أوربا في تلك السنة

ولكني سأتكلم هنا عن حادث واحد أعتقد أنه يصف المقام الذي أنشأته شخصية الملك فؤاد لمصر في أوربا بما يغني عن كل وصف آخر

ففي صيف سنة ١٩٣٣ زرت بروكسل عاصمة البلجيك ولما قابلت المسيو هيمانس وكان يومئذ وزيراً للخارجية سألتُ هل يمكنني أن أتشرف بمقابلة جلالة الملك البرت فقيل لي إن عيد البلجيك الوطني يبدأ بعد يومين وان من عادة البلجيكيين أن يحتفلوا به ثلاثة أيام تقام في خلالها حفلات قومية كثيرة يشهد الملك بعضها قبل الظهر وبعد الظهر ولذلك فإنه لا يقابل أحداً في تلك الأيام الثلاثة فإذا انتهت سافر إلى « اوستند » ليقضي فيها أياماً على شاطىء البحر

قالوا : ومع ذلك سنعرض الأمر على جلالته

وفي الغد اتصل بي مدير البروتوكول بالتليفون وقال إنهم ما كادوا يكاشفون الملك برغبتي حتى قال إنه و إن يكن مشغولاً باحتفالات العيد الوطني لا يسعه أن يضن بالمقابلة على صحافي قادم « من بلاد الملك فؤاد » وعين لمقابلتي موعداً خاصاً فى صباح اليوم الثاني من أيام العيد

وفي الموعد المعين كان المرحوم الأستاذ هنري سميكة القائم بأعمال المفوضية المصرية في بروكسل إذ ذاك يقدمني لجلالته في مكتبه في القصر الملكي

وجاء في سياق الحديث ذكر الملك فؤاد فقال الملك البرت : « دعوني أغتنم هذه الفرصة لأقول لكم إنني شديد الإعجاب بملككم العظيم . . إنه ملك عالمي (١) »

* * *

وما الذي كان يدهشهم في الملك فؤاد بصفة خاصة ؟

سعة اطلاعه وكثرة معارفه وتنوع معلوماته

ومما كان يزيدهم احتراماً له أنه كان ككل عظيم لايدعي معرفة كل شيء ولا يقنع بما يعرفه بل ما برح يطلب المزيد من العلم والعرفان

أتيح لي وخصوصاً في أوربا أن أسمع جلالته في مناسبات كثيرة يتكلم في موضوعات شتى فكان في كل مرة يبهر سامعيه بحديثه على نحو ما رأيناه في صفحة متقدمة

ولكني أذكر مناسبة منها بالذات بدا فيها جلالته كأنه جالس إلى مكتبه وأمامه « دائرة معارف » يختار منها الموضوعات ويخوض في الحديث عنها تباعاً

كان ذلك في دار المفوضية المصرية فى برلين في حفلة استقبال أقامها سعادة

---

(١) والعبارة التى قالها جلالة الملك البرت بالفرنسية هى :
"C'est un Roi International".

حسن نشأت باشا — وزير مصر المفوض في المانيا في ذلك الحين — لرجال السلك السياسي ولجمهور من العظماء والكبراء بمناسبة زيارة جلالته

وكان نشأت باشا يقدم له كبار الحاضرين واحداً بعد الآخر مبتدئاً بسفراء الدول وفي مقدمتهم الكردينال باتشيلي (وهو قداسة البابا الحالي وكان يومئذ يمثل البابا السابق فى برلين) فيحادث جلالته كل واحد منهم دقائق ثم ينتقل إلى غيره

رأيته يفعل ذلك ساعتين وهو واقف في مكان واحد لا تبدو عليه أمارة واحدة من أمارات التعب

وفي أثناء تينك الساعتين غيَّر موضوعات حديثه عشرات من المرات إذ كان يحادث كل واحد في الأمور التي تهمه أو تتصل بطبيعة عمله وكان الكردينال باتشيلي يتتبع أحاديثه عن كثب وهو لا يرفع نظره عنه فقال لي بعد ذلك : « إن ملككم مدهش حقيقة فما أكثر ما يعرف وما أقدره على التحدث بما يعرف »

ولما انتهت الساعتان نزل إلى حديقة الدار وطاف بموائد سائر المدعوين وكان يقف عند كل مائدة قليلا

ومن اليوم الذي ابتدأت فيه الرحلة إلى اليوم الذى انتهت فيه لم يتأخر جلالته دقيقة واحدة عن موعد زيارة أو مأدبة أو حفلة

وفي اليوم الذي كان مدعواً فيه إلى قضاء النهار بعيداً عن « برن » كان مقرراً أن يصل الركاب الملكي إلى محطة سكة الحديد الساعة السابعة صباحاً ليركب جلالته القطار الخاص إلى مكان الزيارة

وكان جلالته قد قضى جانباً من الليل في السهرة التي عقبت إحدى المآدب الرسمية

فوقفنا في المحطة نسأل أنفسنا هل يجيء الملك في الساعة السابعة تماماً في هذا الجو البارد وكان أصغرنا سناً يشكو من عدم كفاية الساعات التي قضاها نائماً بعد برنامج اليوم السابق المرهق

وقبل أن تدق ساعة المحطة الدقات السبع كان جلالته يترجل من سيارته ووجهه يطفح بشراً فيصافح مستقبليه ثم يتجه إلى صالونه في القطار الخاص بينما كانت الساعة تدق آخر دقة من الدقات السبع . . .

واستغرقت الرحلة بالقطار أكثر من ساعتين قضاها جلالته في حديث مع رئيس الاتحاد السويسري وكبار رجال الحكومة السويسرية

وكان كبار رجال الحاشية يتسللون في تلك الأثناء إلى الديوان المجاور للصالون الملكي ليتمتعوا بغفوة سريعة أو ليجددوا نشاطهم براحة قصيرة

أما هو فكان الرجل الذي لا يكل ولا يمل وكان كمن يبدأ الرحلة في يومها الأول مع أن الرحلة كانت قد قاربت على النهاية

ولكنه كان يعيش على أعصابه ليبني لمصر الحديثة المكانة اللائقة بها في الغرب وقد فاز بذلك فكان بلا مشاحة أعظم سفير لمصر في الخارج

الملك فؤاد الرجل
ذكريات متنوعة عنه

الملك فؤاد الرجـــل

ذكريات متنوعة عنه

في اليوم الذي ارتقى فيه الملك فؤاد العرش زار قبري المغفور لهما والديه مترحماً وبعد ما قرأ عليهما الفاتحة أمر بأن يعد لنفسه ضريحاً بجوارهما

ومن تلك اللحظة أخذ يبذل نفسه في خدمة بلاده وشعبه

فقد وقف جهوده وقواه كلها على النهوض بالعبء الذي آل إليه

ولم يكن الملك في نظره متعة بل كان خدمة يجب عليه أن يقضيها

ولأجل تأدية هذه الخدمة على ما يرضي ربه وضميره كان كل بذل في سبيلها يهون عنده

فيمكننا أن نقول إذن إن مهام الملك كانت شغله الشاغل وموضوع تفكيره الدائم ، كانت صناعته وكانت في الوقت عينه لذته ، بل كانت كل شيء عنده

وقد تسلم العرش بعد ما قطع من العمر مرحلة الشباب كلها فاستعاض عن قوة الشباب بقوة التجارب تعززها قوة العزيمة فقد كانت عزيمته من فولاذ

ومتى أدركنا ذلك أمكننا أن نفهم كيف استطاع أن يحمل نفسه عقلاً وجسماً ما حمله إياها ما يقرب من تسع عشرة سنة كاملة

وكأنما كان شعوره بأنه لم يعد في سن الشباب باعثاً له على مضاعفة الجهد ليضع أساس النهضة من جميع نواحيها قبل أن يرحل عن هذا العالم

فقد كان يقضي نهاره بطوله في مكتبه ولا يغادره إلا في ساعة متأخرة

من الليل وكثيراً ما كان يستمر في المطالعة حتى بعد ما يأوى إلى مخدعه ، وعلى كل حال لم تكن فترة الغداء لتزيد على نصف ساعة إلا في المآدب الرسمية . أما في الأحوال العادية فكان غذاؤه لا يستغرق أكثر من ثلث ساعة أو خمس وعشرين دقيقة ثم يعود إلى مكتبه ليستأنف العمل والمقابلات بنفس الهمة التي بدأ بها النهار

حدث مرة أن دعي علي المنزلاوي بك إلى مقابلة جلالته في الساعة الثالثة بعد الظهر فذهب إلى القصر مبكراً ولما وصل إليه قال للتشريفاتي الذي استقبله إنه آثر التبكير لما يعرفه عن تدقيق الملك في مواعيده ولكنه يرجو أن لا يعلن عن قدومه قبل أن يحل موعد مقابلته لئلا يزعجه وهو يستريح فابتسم التشريفاتي وقال له : « إن معالي القيسي باشا فوق وقد تشرف بمقابلة مولانا في الساعة الثانية »

وطالما نصح له أطباؤه بأن يترفق بجسمه فلم يصغ إليهم بل كان همه الأول أن يأخذ بيد مصر إلى الأمام في جميع نواحي الحياة العامة مهما يكلفه ذلك من جهد وتضحية

وكان في حرصه على ما يراه « واجباً » عليه يقسو على نفسه قسوة شديدة في حين أنه كان شديد الرفق بالقائمين على خدمته

أذكر أنه بعد ما انصرف رئيس الاتحاد السوسيري من الحفلة الساهرة التي أقامها له جلالته في « برن » رداً لدعوته صافح رحمه الله رجال حاشيته ثم أتجه إلى السلم المؤدي إلى الطابق العلوي في الفندق الذي نزل فيه ولما وصل إلى منتصفه توقف وقال : « أين سعيد باشا ؟ » فنادوا معالي سعيد ذو الفقار باشا فأقبل مسرعاً فقال له جلالته : « اصعد إلى حجرتك مثلي واسترح واترك للشبان العناية بالضيوف الباقين »

وفي « زوريخ » ما كاد جلالته يرى في مدرسة الهندسة سلمها الداخلي الكثير

الدرجات حتى قال : « قولوا لسعيد باشا أن يركب اللفت (المصعد) »

أما هو فصعد السلم من دون أن يبالي بعناء صعوده

وظلت قوة العزيمة سجيته حتى آخر حياته وليس سراً مجهولا أن من الأسباب التي عجلت بمرضه الأخير حرصه على ترؤس مأدبة رسمية في قصر عابدين لرجال السلك السياسي على رغم شعوره بتوعك صحته في ذلك اليوم فأصيب في نهاية السهرة ببرد كان له تأثيره في تفاقم حالته بعد ذلك ولكنه رأى من الواجب عليه لاعتبارات شتى أن يشهد تلك المأدبة فلم يتردد وآثر تلبية نداء الواجب على حق بدنه عليه ونصح الأطباء

والذي يدرس سيرة محمد علي الكبير درساً وافياً ثم يعكف على درس سيرة الملك فؤاد يجد شبهاً عظيماً بينهما في أمور كثيرة : في قوة العزيمة والشجاعة وأصالة الرأي ، وفي حب العلم والعرفان وتشجيع التعليم والمتعلمين ، وفي الميل الشخصي إلى الاستزادة من المعرفة والاستطلاع ، وفي الهيام بالإنشاء والتعمير ، وفي الاستهانة بكل صعب

بل يلاحظ شبهاً عظيماً بينهما حتى في طبيعتهما ومن أغرب ما هدانا إليه البحث في هذا الصدد أنه لما زرنا البروفسور توديكوم في جنيف[1] وسألناه أن يحدثنا عن بعض ذكرياته عن الملك فؤاد سألنا بدوره عدة أسئلة عن جلالته وكان أول سؤال وجهه إلينا : « ألا يزال جلالته يسعل ذلك السعال الذي كان يسعله وهو صبي ؟ »

فقلت مستغرباً : « أكان جلالته يسعل سعالاً خاصاً وهو صبي ؟ »

فقال البروفسور توديكوم : « لما دخل جلالته معهد والدي لاحظنا أنه كان يسعل من وقت إلى آخر في أثناء الكلام فظننا في بادىء الأمر أنه يشكو برداً ولكننا لم نلبث أن لاحظنا على مر الأيام أن هذا السعال حركة طبيعية فيه »

(١) وهو الذى مر ذكره فى صفحة ١٨٤

وكأنما أراد البروفسور توديكوم أن يفسر لنا لماذا يسأل هذا السؤال فقال : « إنني لم أر جلالته منذ ما غادر معهد والدي وحيث إن تلك الحركة من الأمور الراسخة في ذهني أحببت أن أعرف هل زالت عنه بعد ذلك أم بقيت »

واهتممت يومئذ اهتماماً شديداً بما سمعته من البروفسور توديكوم وأفضيت به إلى المغفور له الدكتور محمد شاهين باشا

ولما كنت مشتغلا أخيراً بتأليف كتابي عن « محمد علي » قرأت لبعض معاصريه أنه كان يسعل سعالاً عصبياً من وقت إلى آخر في أثناء حديثه وأن هذا السعال اشتد عنده لما تقدم في السن

فلما قرأت ذلك عن « محمد علي » تذكرت الملك فؤاداً وتذكرت ما سمعته من البروفسور توديكوم وهو أن السعال الذي كان جلالته يسعله كان شيئاً معروفاً فيه منذ حداثته بدليل أنه استرعى انتباه أقرانه يومئذ فظلوا يذكرونه عنه

* * *

وعلى ذكر الوراثة نقول إن الملك فؤاداً لم يتحدث مرة عن والده إسماعيل باشا إلا اغرورقت عيناه بالدموع

فقد كان شعوره بأن والده ظلم وأنه مات مظلوماً يحرك فيه حزناً دفيناً كلما ذكره فلا يلبث أن يبكي

ولذلك اغتبط اغتباطاً عظيماً لما ألف القاضي « كرابيتس » الأميركي كتابه عن « إسماعيل المفترى عليه » إذ رأى فيه شيئاً من الإنصاف لذكرى والده

ولهذا الكتاب قصة أود سردها هنا لأنها تنقض الشائع وهو أن الملك فؤاداً هو الذي كلف القاضي كرابيتس الكتابة عن أبيه

فقد كان كرابيتس يريد أن يؤلف كتاباً عن الجنرال « غوردن » فاستأذن الملك فؤاداً في الاطلاع على بعض المحفوظات الملكية فأذن له في ذلك

وبينما كان كرابيتس يراجع المحفوظات المتصلة بإسماعيل باشا وغوردون وقف على بعض الكتب التي كتبها إسماعيل باشا إلى غوردون يحثه فيها على القضاء على النخاسة في السودان قضاءً تاماً

ورأى كرابيتس في تلك الكتب حقائق كثيرة كانت مجهولة عن إسماعيل مع أنها كلها في مصلحته فأوحى إليه هذا الاكتشاف بأن يتجه نحو درس المجهول عن إسماعيل على ضوء المحفوظات الملكية

وقال للملك فؤاد وهو يستأذنه في الاطلاع على الوثائق التي يحتاج إليها إنه سيدرسها كقاض فاذا اعتقد أن إسماعيل باشا مظلوم فعلاً وضع كتاباً عنه بنتيجة دراسته فأجابه جلالته إلى طلبه

وما كاد كرابيتس ينتهي من درس الوثائق التي طلبها حتى آمن بأن أوربا افترت على إسماعيل فعوّل على الكتابة عنه وقرر أن يكون اسم الكتاب « إسماعيل المفترى عليه »

وكان الملك فؤاد إذا ذكر السر صموئيل بيكر ذكره بعبارات الثناء لأنه الأوربي الكبير الوحيد الذي أنصف والده في موضوع القضاء على النخاسة في السودان

فإنه بعد ما غادر إسماعيل باشا مصر دعي السر صموئيل بيكر إلى مؤتمر دولي للنخاسة في لندن فاعتذر عن عدم حضوره قائلاً إن الرجل الوحيد الذي كان يجب أن يدعى إلى هذا المؤتمر هو إسماعيل باشا فإليه يرجع الفضل الأكبر في إلغاء النخاسة في السودان ومع ذلك أُغفلت دعوته

* * *

وكان إجلال الملك فؤاد لذكرى والده لا يضارعه إلا إجلاله لذكرى والدته فريال هانم

وكان إذا تحدث عنها قال : « كانت أمي سيدة فاضلة . . . فاضلة بكل ما في هذه الكلمة من قوة »

ثم كان يردد أنها كانت تحبه حباً شديداً حتى إنها ما كانت تأوي إلى فراشها إلا عندما تراه عائداً إلى القصر

ومما قصه مرة عن شجاعتها أنه لما اصيب وهو أمير بما كاد يقضي على حياته دخلت عليه في حجرته في المستشفى وأمسكت بيده وقالت برباطة جأش عظيمة : « هل أنت خائف أو متألم ؟ ... لاتنس أنك ضابط . » فقال لها : « لست خائفاً ولا متألماً » فقالت : « حسناً إذن فالآن يمكنني أن أنصرف مطمئنة »

قال جلالته : « وعلمت في ما بعد أنها تعمدت الإيجاز في الحديث خشية أن يخونها تجلدها أمامي فانها ما كادت تبتعد عن حجرتي قليلا حتى سقطت مغشياً عليها من شدة جزعها عليّ »

وليس أدل على الحب والإجلال اللذين كان جلالته يكنهما لها ولوالده من أنه لما أمر ببناء ضريحه على مقربة من ضريحيهما أوصى ملحاً بأن يكون أصغر منهما فاحترمت مشيئته ونفذت رغبته

وكان جلالة الملك فاروق باراً بتلك الذكرى الكريمة لما اختار لكبرى كريماته اسم « فريال » تمجيداً لمن كان يطيب لجلالة والده أن يسميها « السيدة الفاضلة »

* * *

وكان الملك فؤاد إلى جنب شدته في كل ما يمت إلى الواجب بصلة رقيق العاطفة رحيم القلب وقد رأينا في فصل سابق شدة عطفه على الطبقات العاملة والفقيرة وبره بها في كل آن

كذلك رأينا كيف كان يذرف الدمع لما كان يتحدث عن والده وعما أصابه من عدوان

فمن ذا الذي كان يتصور أن الملك فؤاداً الرجل القوي الشكيمة الشديد المراس يبكي لذكرى والده و يطلق لعاطفته العنان عند ما كان يتكلم عنه . ولكن هذا ما حدث فعلا غير مرة

* * *

وكان الملك فؤاد جالساً يوماً بجوار مكتبه في قصر عابدين يباحث أحد كبار رجال القصر في أمر ما فدق جرس التلفون فنهض إليه وما كاد يضع السماعة على أذنه حتى قال : « لا يا افندم . النمرة غلط »

وكان ذلك قبل شيوع التلفون الأوتوماتيكي

و بعد قليل دق التلفون مرة أخرى فنهض إليه مرة أخرى وقال: « مين ؟ . . لا يا افندم النمرة غلط كمان »

وعاد إلى عمله

ولكن بعد دقيقتين دق التلفون لثالث مرة فقال : « هذا كثير » ومع ذلك ذهب إليه للمرة الثالثة ليقول لعاملة التلفون : « إن النمرة خطأ »

و إذا بالتلفون يدق للمرة الرابعة . . . فيقول جلالته للمرة الرابعة : « النمرة غلط » ثم قال جلالته للكبير الذي كان في حضرته : « إذا كان كل شغل التلفونات بهذا الشكل . . . »

ولم يزد على ذلك حرفاً

غير أنه لم يكد الموظف الكبير يعود إلى مكتبه حتى اتصل بمن رأى الاتصال به وأبلغه ما اتفق للملك . . .

و بعد دقائق كانت عاملة التلفون المسؤولة تتلقى إشعاراً بأنها فصلت من عملها

لإهمالها فاسترحمت فلم يرحمها أحد فقالت : « سأكتب إلى جلالة الملك نفسه وألتمس عفوه »

فقيل لها : « أتكتبين إلى الملك . . . هل فقدت رشدك . . . أتعتقدين أن الملك سيفكر فيك ؟ »

فقالت : « سأكتب إليه »

وتسلم جلالته التماسها

و بعد قليل كان ذلك الموظف الكبير الذي شهد الحادث يمثل بين يدي جلالته ليعرض ما عنده من عمل فقال جلالته : أتذكر يا باشا حكاية التلفون من يومين ؟

فقال : أذكرها يا مولاي

فقال جلالته : وماذا عملتم لعاملة التلفون ؟

فقال : رفتناها

فقال جلالته : رفت ؟ . . . كان في الإمكان توبيخها وكان فى الإمكان خصم يوم أو يومين من مرتبها ولكني لا أرضى بقطع عيشها . . . من فضلك يا باشا تقول لهم أن يعيدوها إلى عملها

وعادت الفتاة إلى عملها

***

ومن ذكرياتي عن الناحية الانسانية في الملك فؤاد أنه بعد ما تغدى في فندق « بورولاك » الشهير في مدينة زوريخ في أثناء زيارته لها بدعوة من هيئاتها المحلية اتجه مع رجال الحاشية ورجال الحكومة السويسرية إلى مدخل الفندق ليركب السيارة إلى مدرسة زوريخ للهندسة فاحتشد جمهور كبير من السويسريين والسياح لتحيته وكان بينهم فتاة أميركية وقفت في الصف الأول لتصوره فأراد

ضابط أن يحول بينها و بين الاقتراب منه ولمح جلالته هذا المنظر فما كان منه إلا أن عرج على الجهة التي كانت الفتاة واقفة فيها ولما دنا منها قال لها بالفرنسية : « صوري يا آنسة » فارتفعت الأصوات من كل جهة بالهتاف لجلالته

* * *

ولما انتهت الحفلة الساهرة التي عقبت المأدبة الرسمية التي أدبها جلالته لرئيس الاتحاد السويسري عند زيارته لمدينة « برن » رسمياً سأل بعض رجال الحاشية مغنية سويسرية كبيرة جيء بها لتغني في تلك السهرة عن الأجر الذي تريده فقالت : «حسبي أجراً الشرف الذي أوليته بالغناء في حفلة يقيمها جلالة الملك فؤاد» فقيل لها : « ولكن جلالته حريص على أن لا يترك أحداً من دون مكافأة » فقالت : «هل لي أن أطمع في شيء صغير ؟» فقيل لها : «وما عساه أن يكون ؟» فقالت : «إذا كان جلالته يريد مكافأتي فهل يتفضل بتوقيع اسمه على نسخة من برنامج هذه الحفلة فأحتفظ بها تذكاراً ثميناً »

وتطوع سعادة صادق وهبه باشا لهذه المهمة وقال لها : «أعطني البرنامج وسأجرب حظي »

وغاب سعادته لحظة ثم عاد ومعه البرنامج وعليه إمضاء جلالته

وفي تلك اللحظة ازددت إيماناً بأن المحيطين بالملوك يستطيعون كثيراً عند ما تتوفر فيهم اللباقة اللازمة مع الإخلاص القائم على إيثار المصلحة العامة على كل اعتبار آخر

كان ممكناً جداً أن يقال لتلك الفنانة السويسرية الكبيرة اعفينا من هذه المهمة فتنصرف كسيرة الخاطر — والملك لا يدري من أمرها شيئاً

ولكنه لما عرف أمنيتها لم ير غضاضة في تحقيق رجائها فانصرفت مغتبطة ممتنة شاكرة

ومن الذكريات التي تحضرنا بهذه المناسبة أنه بعد ما انتهى الاستقبال الذي أقيم فى دار المفوضية المصرية في برلين وقف جلالته فى ركن من أركان قاعة الاستقبال الكبرى مستدبراً الأبواب لكي يستطيع المدعوون الذين كانوا في الحديقة أن يجتازوا القاعة في طريق انصرافهم ولكن أحد رجال الحاشية وقف بالباب الموصل إلى الحديقة ورجا من المدعوين الانتظار لأن جلالته لا يزال في القاعة

وطال الانتظار

وأخيراً تدارك سعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا الموقف بأن قال لجلالته « أيسمح مولانا للضيوف بالمرور لينصرفوا ؟ »

والتفت جلالته حالا نحو الباب وقال : « طبعاً . طبعاً » وأدرك ما كان حادثاً فاستاء استياء شديداً وقال : « دلوقتي يقولوا الملك هو اللي كان مانع . . . مسكين الملك يعمل غيره أشياء كثيرة فينسبها الناس إلى الملك »

قال جلالته هذه العبارة عرضاً ولكنها دلت على ما كان يشعر به أحياناً

* * *

وكان جلالته متصفاً بالتدقيق الشديد في البروتوكول والمراسم ولا يعرف في ذلك ليناً ولا هوادة وكانت المفوضية الفرنسية فى القاهرة تعرف عنه ذلك فأعدت في دارها بدلة رسمية سوداء ووضعتها تحت تصرف كل كبير فرنسي يجيء إلى مصر من غير بدلته الرسمية إذا تشرف بمقابلة جلالته

وكانت تلك البدلة مصنوعة بحجم الرجل الاعتيادي فلما زار الكاتب الفرنسي الكبير هنري بوردو القاهرة وتفضل الملك فؤاد بتعيين موعد لمقابلته تذكر فجأة أنه لم يجلب معه بدلته الرسمية

وكان من العبث أن يطلب منه وزير فرنسا المفوض تجربة البدلة الاحتياطية لاختلاف جسمه عنها اختلافاً عظيماً

وبعد استشارات تلفونية هنا وهناك حل الإشكال بأن ذهب هنري بوردو وهو لابس « روب » العضوية في الأكاديمية الفرنسية فلما دخل على جلالته بصحبة وزير فرنسا المفوض طيب خاطرهما حالا بأن قال للمكاتب الكبير : « إنها لفكرة جميلة يا مسيو بوردو أن تجيء إلى هنا بأحب الملابس إليّ »

* * *

وقص عليّ سعادة محمد زكي الابراشي باشا أنه لما كان جلالته يزور تفاتيشه ويتغدى فيها كان يأمر بأن تكون ألوان الطعام كلها ألواناً بلدية وكان طبق « البصارة » يحتل دائماً مكانه إلى جنب « الأوزي » وكان البصل الأخضر يوضع على المائدة وكانت أول يد تمتد إليه هي يد الملك

* * *

ولما زار جلالته لندن رسمياً في سنة ١٩٢٧ وبعد انتهاء أيام الضيافة الرسمية قبل أن يدعى إلى مأدبة غير رسمية أدبها له صاحب جريدة « الديلى تلغراف » ودعا إليها أصحاب الجرائد الكبيرة ورؤساء تحريرها . . . وهناك حول المائدة تجلت لهم عظمة الملك فؤاد كرجل فودعوه بعد ذلك وكلهم به معجب ولا نخالنا نذيع سراً إذا قلنا إنه كان بينهم من لم ينصف جلالته في مناسبات شتى وكان جلالته يعلم هذا فزاده ذلك رغبة في مواجهتهم فكانت النتيجة ذلك الإجماع الرائع من جانب الصحافة الإنجليزية على تمجيد شخصيته العظيمة

* * *

ولما كنت في طهران في سنة ١٩٣٢ زرت « طاغور » شاعر الهند الكبير وكان قد زار مصر قبل ذلك بست سنوات وتشرف بمقابلة الملك فؤاد

فكان أول ما سألني : كيف صحة الملك فؤاد ؟

ثم قال : لقد قابلت ملوكا كثيرين وعظماء كثيرين ولكنني لا أذكر أنني قابلت كثيرين أثروا في نفسي تأثير الملك فؤاد فيها

وروى لي « طاغور » بعد ذلك أنه لما تشرف بمقابلة الملك فؤاد قال له جلالته إنه فكر في تذكار يهديه إليه فحيره الاختيار لأنه أراد أن يجيء التذكار لائقاً بمنزلته — أي بمنزلة طاغور

فقال له طاغور : عفواً يا صاحب الجلالة

فقال الملك : وبعد التفكير وجدت أن التذكار الوحيد الذي يليق بك هو هذه المجموعة من الكتب

ونظر طاغور إلى الكتب التي وضعها الملك أمامه فإذا هي مجموعة من خيرة كتبه — أي من كتب طاغور نفسه — قد جلدت تجليداً فاخراً نفيساً

قال لي طاغور : « وأؤكد لك بكل نزاهة إنه لم يكن في وسع الملك فؤاد أن يحييني بتحية أجمل من هذه »

* * *

وكان التدقيق طبيعة في جلالته وقد رأينا أمثلة كثيرة على ذلك في الفصول المتقدمة ولا يزال الناس يذكرون الدوي الذي أحدثه في أوربا ما تجلى في مآدب جلالته من مجالي العظمة والنظام والإتقان حتى إن كبريات الصحف الإنجليزية تحدثت عن السفرجية الذين سافروا من مصر إلى أوربا خصيصاً للمآدب الملكية ونشرت صورهم بملابسهم الحمر الجميلة المزركشة بالذهب ونوهت بثناء عظماء انجلترا على نظامهم وكفاءتهم

وقد يعجب القارئ إذا علم أن عين الملك فؤاد كانت تتتبع هذه الأمور كلها وأنه كانت له كلمة في تنسيق كل شيء وأن قائمة ألوان كل مأدبة رسمية كانت

ترفع إليه فيبدي رأيه فيها وأنه كان يراجع بنفسه برامج الموسيقى التي ستعزف في أثناء المأدبة أو الحفلة

قيل لي ذلك مرة فلم أرد أن أصدق

قلت : كيف ؟ أيتسع وقت الملك لهذه الأمور مع انهماكه بما هو ملقى على عاتقه من مهام وتبعات وتفكير مستمر في الإصلاحات والمشروعات ؟

ولكن لما تشرفت بمرافقته في رحلته إلى أوربا رأيت ما أيد لي صدق الرواية

ومن ذلك أنه قبل أن يحل موعد زيارته الرسمية لسويسرا سبقه المغفور له سعيد ذو الفقار باشا إلى « برن » ليطلع على التفاصيل النهائية وليشرف على معدات المأدبة الرسمية التي يأدبها جلالته لرئيس الاتحاد السويسري في اليوم الثاني من أيام الزيارة رداً لمأدبة فخامته

وكان جلالته لا يزال في تشكوسلوفاكيا فاتصل به سعيد باشا بالتلفون وتلا على مسامعه مشروع قائمة ألوان الطعام لتلك المأدبة الرسمية فناقشه جلالته في بعض منها وأشار باستبداله بألوان أخرى

* * *

ولم يكد المغفور له سعد زغلول باشا يؤلف الوزارة الدستورية الأولى حتى دعي مجلس الوزراء إلى الاجتماع برئاسة الملك فؤاد في قصر عابدين

ولاجتماعات مجلس الوزراء قاعة خاصة في القصر على مقربة من حجرة مكتب رئيس الديوان الملكي ويفصل بينهما السلم الذي يؤدي إلى الطابق العلوي والمصعد

ولم يكن المصعد موجوداً يومئذ

وسأل الملك فؤاد : هل وصل سعد باشا ؟

فقيل لجلالته إن دولته وصل ولكنه يستريح قليلاً من عناء السلم

وفي الغد أمر جلالته بإقامة « المصعد » فلا يجشم سعد باشا مشقة صعود السلم مرة أخرى

اخدم فاروق

تخدم بلادك وملكك

اخـــدم فاروق

تخدم بلدك وملـكك

ولما حل يوم سفر جلالة الملك فاروق إلى أوربا ليطلب العلم في لندن ودخل جلالته على جلالة والده العظيم ليودعه كان رحمه الله مريضاً فزوده بنصائحه وشجعه وقبله

وكان معالي أحمد محمد حسنين باشا حاضراً المقابلة بوصفه رائد أمير الصعيد فزوده جلالته بتعلياته كذلك

ولما انتهى الوداع وأصبح الأمير عند باب الحجرة سمع حسنين باشا جلالة الملك فؤاد يناديه : حسنين

فقال : « أفندم مولاي »

وعاد إلى حيث كان جلالته جالساً فألفى عينيه مغرورقتين بالدموع وقال جلالته له : « حسنين اخدم فاروق تخدم بلدك وملـكك . . . »

وأشار إليه بأن ينصرف فقد كانت العبرات تخنق العبارات

* * *

« اخدم فاروق تخدم بلدك وملـكك »

خمس كلمات لا أكثر ولكنها وصية كاملة لمن يتأمل فيها !

النهضة السياسية
وتأثير الملك فؤاد فيها

النهضة السياسية
وتأثير الملك فؤاد فيها

قلنا في مستهل هذا الكتاب إننا لن نتكلم فيه عن الملك فؤاد من الناحية السياسية فإن أوان الكلام عن هذه الناحية بالذات لم يئن بعد

ولكن لا يسعنا ونحن نتكلم عن الملك فؤاد كبنَّاء وكبنَّاء في كل شيء إلا أن ننوه بالجهود التي بذلها وهو على فراش مرضه الأخير ليحقق تأليف الجبهة الوطنية أو كما قال أحد كتابنا « كأنه أحس بدنو الأجل فأراد أن يسمع الشعب وصيته » فجمع رؤساء الأحزاب والأقطاب في قصره وأخذ يوصيهم بالبلاد خيراً ويحثهم على التصافي والتضافر والاتحاد وكلل الله سعيه بالنجاح فتألفت الجبهة الوطنية وشرعت في مفاوضة الانجليز في المعاهدة المصرية الانجليزية

وفي ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ فاضت روح الملك فؤاد إلى خالقها وهي مطمئنة إلى قيام الوحدة راضية بالخطوة التي خطتها الأحزاب في سبيل المعاهدة

فقد كان — طيب الله ثراه — يتوق إلى رؤية المعاهدة حقيقة قائمة لتستقر العلاقات بين مصر وانجلترا وتستوفي مصر استقلالها ولا يكون في البلاد « إلا باب واحد » كما قال غير مرة للمقربين إليه حين كان يفضي إليهم برغبته في عقد معاهدة بين مصر وانجلترا

* * *

وكذلك لا يسعنا ونحن نتكلم عن الملك فؤاد كبنَّاء إلا أن ننوه بأنه لما منح شعبه الدستور منحه إياه مخلصاً

وستظهر الأيام ، عند ما تنكشف الأسرار المجهولة ، الظروف التي أحاطت بإصدار دستور سنة ١٩٣٠

ولكن الذي نستطيع أن نؤكده هنا أنه منذ ما أمضى جلالته دستور سنة ١٩٢٣ حرص من جهته أعظم حرص على أن لا تحيا البلاد من دون دستور

ولما أرسل إليه المغفور له توفيق نسيم باشا في سنة ١٩٣٤ مشروع مرسوم إبطال دستور سنة ١٩٣٠ أمر جلالته بأن تضاف إلى الديباجة « إلى أن تحيا البلاد الحياة الدستورية التي ترتضيها » ليكون مفهوماً عند الجميع أنه إجراء وقتي وأنه لا بد أن تحيا البلاد الحياة الدستورية التي تريدها

وأملى جلالته تلك العبارة على أحد رجال القصر فكتبها بخط يده على مشروع المرسوم الوارد من رئاسة مجلس الوزراء وعرضت بعد ذلك على نسيم باشا فوافق عليها وعدل المرسوم بمقتضاها وعندئذ فقط رضي الملك الراحل أن يمضيه

* * *

وستظهر الأيام حينما يكتب التاريخ كاملا ما كان للملك فؤاد من مواقف وطنية جليلة الشأن في الحركة الوطنية من اليوم الأول

وستظهر ما كان له من تأثير فعال في الخطوات التي أفضت إلى ما حدث في يوم ١٣ نوفمبر بالذات وهو اليوم الذي قابل فيه الزعماء الثلاثة المعتمد البريطاني وطالبوا باستقلال مصر

وستظهر اليد التي كانت له في إطلاق سراح سعد باشا ومن كان معه من جزيرة مالطة

* * *

وستظهر الأيام والمكاتبات المحفوظة المساعي الخطيرة التي بذلها الملك فؤاد لإنقاذ مصر من ورطة مالية كانت ستكلفها ما يقرب من ثمانين مليون جنيه

فنجح سعيه وأنقذ المالية المصرية من هـذا العبء الضخم بنفوذه الشخصي لا بشيء آخر

* * *

كل هذه أمور نكتفي اليوم بأن نشير إليها لماماً لاعتبارات شتى و بينها أسرار لا يمكن إذاعتها إلا بعد مرور عدد معين من السنوات

لذلك قلنا في كلمة التمهيد إن أوان كتابة سيرة الملك فؤاد كتابة عادلة منصفة لم يئن بعد وخصوصاً من الناحية السياسية

* * *

قال الملك فؤاد يوماً لبعض رجاله :

« كان الملك ليو بولد الثاني ملك البلجيك الكبير يقول إن شعبي لن يفهمني إلا بعد وفاتي بعشرين سنة وفعلا لم ينصب الشعب البلجيكي تمثالاً للملك ليو بولد إلا بعد وفاته بتسع عشرة سنة »

وكأنما كان يشير إلى نفسه وهو يردد ما قاله الملك ليو بولد

فإن « عظمة » الملك فؤاد لن تعرف بأكملها إلا في اليوم الذي يعرف فيه المصريون المجهول من أعماله فإنها أكثر من المعلوم و إن يكن المعلوم يكفينا لكي نسميه الملك البنّاء العظيم

ورحم الله ملحا كان شعاره :

أما أنه تكونه أميراً فليس ذلك بشيء

وأما أنه تكونه نافعاً فذلك كل شيء

فهـــرس

صفحة ٧ تقدمة الكتاب

إلى مقام جلالة الملك المعظم

صفحة ٩ تمهيـــد

أبواب الكتاب

الباب الأول من صفحة ١٥

الجامعة المصرية ومجهود الملك فؤاد فيها منذ إنشائها — أحاديث لإسماعيل صدقي باشا وأحمد لطفي السيد باشا والدكتور علي ابراهيم باشا — الجامعة الأزهرية وما أسداه جلالته إليها — أقوال الشيخ محمد مصطفى المراغي — عناية جلالته بالدين لا تقف عند حدود مصر

الباب الثاني من صفحة ٣٩

الملك العالم — حبه للاستزادة من العلم في مقابلاته وزياراته — تنشيطه للبحث العلمي — حبه للمدارس ورعايته لمعاهد العلم — عنايته بالمتاحف والمكتبات — اهتمامه بالمؤتمرات — أقوال لبعض الذين تشرفوا بالعمل معه

الباب الثالث من صفحة ٨١

النهضة الصحية والاجتماعية — زياراته للمصحات والمستشفيات — أياديه على المؤسسات الصحية والإنسانية

الباب الرابع من صفحة ٩٤

النهضة العمرانية — الطرق — سكك الحديد — مشروعات الري — الموانىء — تجميل المدن — الملاحة النهرية — زيارته لسيوه — التحول الاجتماعي

الباب الخامس من صفحة ١٢٤

النهضة الزراعية — كيف جعل جلالته من المزارع الملكية حقول تجارب — ما اكتسبته الزراعة فنياً وعملياً من العمل الذي عمله في مزارعه — شهادة كبار الأجانب الذين زاروها — قصته مع الاكاديمية الزراعية في فرنسا — تشجيعه للنهضة الصناعية — زيارته للمحلة الكبرى

الباب السادس من صفحة ١٥٩

الروح العسكرية والرياضية — نهضة الجيش في عهده — زيارته للمعاهد والمنشآت العسكرية — تمجيده للجيش في المناسبات الرسمية — ذكرى فتح عكاء — تشجيعه للرياضة — تنصيب الأمير فاروق كشافاً أعظم — رعايته للرياضيين المصريين

الباب السابع من صفحة ١٧٣

مصر والمصريون والأجانب — نظرية جلالته في الاستعانة بالأجنبي — اهتمامه بأن يكثر عدد الفنيين المصريين — طبع طوابع البريد في مصر — حرصه على الآثار المصرية — تدقيقه في محاسبة الموظفين الأجانب — اعتزازه بالقومية المصرية — حادث تاريخي حدث له في صباه

الباب الثامن من صفحة ١٨٩

السفير الأعظم — جلالته في ألمانيا وتشكوسلوفاكيا وسويسرا — إعجاب أقطاب أوربا به وتقديرهم العظيم لعلمه وسجاياه — حبه للاطلاع — ماذا قال عنه الملك البرت — ماذا كان يدهشهم فيه

الباب التاسع من صفحة ٢٠٥

الملك فؤاد الرجل — ذكريات متنوعة عنه — كيف كان ينظر إلى مهام الملك — بره بالقائمين على خدمته — وجوه الشبه بينه وبين محمد علي الكبير — إجلاله لذكرى والده — السيدة الفاضلة — حادث عاملة التلفون — تقديره للعلماء — ماذا أهدى إلى طاغور — تاريخ المصعد

الباب العاشر من صفحة ٢٢١

اخدم فاروق تخدم بلدك وملكك

الباب الحادى عشر من صفحة ٢٢٥

النهضة السياسية وتأثير الملك فؤاد فيها

DEMCO

FEB 8 1979

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU52879461
DT107.8 .T5
al-Malik Fuad :
RECAP